كلية

أدب

مصطفى فاسي

دراسات في الرواية الجزائرية

دار الفصبة للنشر

مقدمة

موضوع هذه الدراسة مجموعة من النصوص الروائية الجزائرية، فهي مساهمة مني في اثراء الدراسة في هذا المجال.

فبالرغم من تواصل ظهور بعض المقالات والدراسات عن الرواية الجزائرية بين حين وآخر وكذلك بعض الكتب المنشورة فانها تظل نسبيا قليلة اذا ما قورنت بالكم الروائي الذي صدر في بلادنا منذ بداية صدور الرواية حتى الان.

صحيح ان الرواية الجزائرية حديثة العهد بالظهور، والمكتوبة منها باللغة العربية اكثرها حداثة، إلا أننا نستطيع القول انها منذ ظهورها الاول قد اقتحمت الساحة الادبية بشكل قوي، فاذا ما استثنينا المحاولات الاولى البسيطة والمتمثلة في (غادة ام القرى)، (الطالب المنكوب)، (الحريق) [1]، فان (ريح الجنوب) تبقى تلك الرواية الناضجة التي اعلنت البداية الحقيقية القوية للرواية الجزائرية باللغة العربية.

ولكن، وبالرغم من ان عدد الروايات المنشورة منذ ظهور (ريح الجنوب) حتى الان يعتبر نسبيا عددا لابأس به، الا أنه يعتبر في نظرنا قليلا جدا إذا ما قورن بحجم بلد كبلدنا، وإذا ما وضع في إطار العصر الذي نعيش فيه.

ومما لاشك فيه أن للوضع الثقافي المتخلف والمهمش في بلادنا منذ الاستقلال حتى الآن دورا اساسيا في جعل الكتاب المنشور بصفة عامة. والنص الروائي خاصة يعيش هذا الوضع الذي نعرفه، وبطبيعة الحال فاذا كان النص الروائي

---

1) غادة ام القرى : احمد رضا حوحو، الطالب المنكوب : عبد المجيد الشافعي، الحريق : نور الدين بوجدرة.

يعاني من قلة الانتشار في بلادنا، فان النص الدراسي والنقدي لن يكون – بدون شك – أقل منه معاناة، مع العلم أن الدراسات الخاصة بالابداع تكون عادة – بالنسبة الى جميع أنواع الادب، وفي جميع الاماكن والبلدان – اقل من النصوص الابداعية نفسها، مع استثناء حالات نادرة يحدث فيها العكس وذلك عندما ينشر نص ابداعي يثير حوله مناقشات كثيرة وغنية بسبب غنى مستواه الفني، أو بسبب ما يطرحه من اشكالات مختلفة، أو ما الى ذلك.

وبالرغم من كل شيء فان الاتجاه الى دراسة الادب الجزائري الحديث أصبح في السنوات الاخيرة أمرا مألوفا لدى كثير من المهتمين والدارسين، وخاصة منهم الجامعيين مما أدى الى بعض الغنى النسبي في هذا الجانب بحيث وجد من بين هولاء الدارسين من درس تيارا محددا أو جانبا، أو موضوعا خاصا في الرواية الجزائرية، وقد خص بعض الدارسين بدراسته أديبا معينا، أو حتى نصا روائيا محددا.

ولكن الامر الذي يؤسف له حقا – وهذا راجع الى الوضع الصعب الذي يعيشه موضوع طبع الكتاب ونشره عندنا – أن معظم هذه الدراسات لم تر النور بالرغم من الجهد الكبير الذي بذله أصحابها في إنجازها، والسنوات التي قضوها في الجمع والتصنيف والدراسة.

وهكذا فان كثيرا جدا من الجهود العلمية عندنا، والتي تصرف عليها الاموال الطائلة أحيانا، ويستغرق انجازها وقتا غاليا من زماننا أحيانا أخرى، وقد يبذل في سبيل انجازها الامران معا تظل حبيسة الادراج الى ان تنسى وتموت، فيا للخسارة...

وبعد، فاذا كانت هذه الدراسات الجامعية وغير الجامعية لا تستحق النشر كلها، فمما لا شك فيه أن فيها ما يستحق ذلك.

وبالرغم من كل شيئ، ومع ما ذكرنا من وصف للوضع الصعب الذي تعيشه الثقافة في بلادنا، ويعيشه الكتاب – تبعا لذلك – طبعا ونشرا، فان هنالك مقالات ودراسات تتعلق بالابداع الادبي عندنا ومنه الرواية، تفلت هذه المقالات والدراسات بين حين واخر لكي ترى النور بفضل تصميم أصحابها على نشرها، وبفضل الوسيلة التي تتاح لهم لفعل ذلك.

واذا كان من واجبنا هنا ان ننوه بجميع تلك المقالات والدراسات التي نشرت على صفحات الجرائد والمجلات في داخل الجزائر وخارجها، فاننا لا ننسى التنويه – خاصة – بتلك الدراسات القيمة التي نشرت في شكل كتب، ومنها على الخصوص (الرواية العربية الجزائرية الحديثة)[1] للدكتور محمد مصايف، و(اتجاهات الرواية العربية في الجزائر)[2] للدكتور الاعرج واسيني.

وبعد، فان دراستي هذه، هي محاولة، بالنسبة الى بعض الروايات المدروسة سابقا [3]، لاضافة رأي آخر، أو وجهة نظر أخرى أو تقديم قراءة مختلفة ربما فيها بعض الجديد، وهي بالنسبة الى روايات أخرى لم تدرس، او على الاقل لم يتح لي شخصيا قراءة دراسات جادة عنها، هي محاولة مني لدخول عوالمها في انتظار مزيد من الدراسات الاخرى لدارسين اخرين، فتراكم الدراسات سيؤدي بدون شك الى تكوين راي في الموضوع المدروس اكثر دقة، وان كان المهم بالنسبة الى الدراسة ليس دائما الرغبة في الوصول الى هذه الدقة، بقدر ما تكمن الاهمية في اثارة القضايا المختلفة ومناقشتها لخلق مزيد من تحريك جو البحث والدراسة، وهذا في حد ذاته لا يقل أهمية.

أما اختياري لهذه الروايات بالذات فربما كان فيه بعض المصادفة أحيانا، وبعض القصد أحيانا أخرى، فمن بين هذه الروايات روايات قرأتها وأعجبت بها، وأعدت قراءتها، وأخرى قرأتها، وأردت ان اقول فيها أو في بعض جوانبها رأيي الخاص، فهذا الاختيار لا يخلو – بدون شك – من بعض الميل، أو ما يشبه ذلك، وربما كان يفضل دراسة أديب واحد، خاصة وان لكل واحد من الروائيين المدروسين روايات أخرى، وهي في بعض الاحيان أكثر أهمية حتى من الرواية المدروسة هنا، ولعل الزمن سيسمح لي مستقبلا بتناول نصوص أخرى بالدراسة لهؤلاء الروائيين ولغيرهم، وهو أمر سيسعدني كثيرا.

---

1 – نشر، الدار العربية للكتاب، تونس، طرابلس، 1983

2 – نشر، المؤسسة الوطنية للكتاب 1986

3 – درس الاعرج واسيني في كتابه المذكور الروايات التالية : ريح الجنوب، الزلزال، قبل الزلزال، وهي نفسها التي نشرت في شكل كتاب بعنوان : عين الحجر ودرس محمد مصايف : ريح الجنوب والزلزال وما لا تذروه الرياح. كما درس عمر بن قينة في كتابه دراسات في القصة الجزائرية رواية ريح الجنوب.

تتناول هذه الدراسة ثمان روايات، أربع منها لكتاب من جيل السبعينيات، وأربع لكتاب من الجيل الذي سبقه في الكتابة، وان كانت جميع الروايات المدروسة في هذا الكتاب ترجع من حيث الظهور الى السبعينيات والثمانينيات [1].

حاولت في قراءتي لهذه الروايات ان اتتبع أهم ما تثيره كل رواية مما يستحق الاهتمام في نظري، وقد كان تركيزي في دراستها – مع عدم اهمال بقية الجوانب – على عنصر الابطال والشخصيات، وذلك بسبب الدلالة الغنية التي يوفرها هذا العنصر الهام في الرواية لما له من علاقة وطيدة بالمؤثرات الاجتماعية خاصة.

واذا كانت هناك جوانب شكلية وفنية قد تعرضت لها في كل رواية على حدة، فان الذي يجمع بين هذه الروايات جميعا – وعلى اختلاف اساليبها وطرق التناول فيها – مع كونها جميعا تستظل تحت مظلة الواقعية الواسعة – ان الذي يجمع بينها جميعا هو هذا الحس القوي في التعامل مع واقعنا الجزائري الغني، بما فيه من تنوع، ومع قضاياه الكبرى، مع ملاحظة ان هناك خيطا أساسيا يربط في هذه النصوص ما بين قضايا الثورة التحريرية الجزائرية الكبرى وقضايا تطور، وتجدد المجتمع الجزائري لمرحلة ما بعد الاستقلال.

وبعد، فلعلني بهذه القراءات المتواضعة لمجموعة من النصوص الروائية الجزائرية أكون قد اسهمت في إضافة لبنة ولو صغيرة في عالم دراسة الأدب الجزائري الحديث.

وفي الختام لابد من التأكيد على أن مجالات دراسة الادب الجزائري قديمه وحديثه مجالات واسعة وغنية، وان أمام النقاد والدارسين كثيرا مما ينتظر منهم عمله.

الجزائر في 15–06–99

مصطفى فاسي

---

1 – السبعينيات : ريح الجنوب، الزلزال، ما لا تذروه الرياح.
الثمانينيات : بان الصبح، ما تبقى من سيرة لخضر حمروش، الخنازير، عين الحجر، عزوز الكابران.

ريح الجنوب

المرأة الريفية وقوة الواقع

عبد الحميد بن هدوقة

من المعروف أن ريح الجنوب هي أول رواية جزائرية جادة ومتكاملة كتبت باللغة العربية، إذ أن المحاولات التي سبقتها (غادة ام القرى لأحمد رضا حوحو، والطالب المنكوب لعبد المجيد الشافعي، والحريق لنور الدين بوجدرة) على الرغم من أهميتها بصفتها تمثل البداية الأولى لفن الرواية في الجزائر فانها لا تعدو أن تكون مجرد محاولات اولى على درب هذا الفن.

يرى الدكتور محمد مصايف أن المحور الأساسي الذي تدور حوله أحداث هذه الرواية، ليس هو موضوع الثورة الزراعية كما أشار إلى ذلك الدكتور عبد الله ركيبي في كتابه تطور النثر الجزائري الحديث، ولكنه تلك «النفسية المحافظة التي حملها ابن القاضي من أول صفحة في الرواية إلى آخر صفحة منها، وهي نفسية الطبقة الاقطاعية التي عاشت الثورة الجزائرية دون أن تندمج فيها اندماجا كليا. وكل صراع حدث في الرواية مهما كان نوعه واثره في سير الاحداث إنما كان بين هذه النفسية وبين المجتمع الريفي المتمثل في المرأة، والسلطة، والثقافة التي كان يمثلها الطاهر المعلم ومالك إلى حد [1].

غير أننا وإن كنا نتفق مع الدكتور مصايف في أن موضوع هذه الرواية ليس الثورة الزراعية، ففي الرواية كلها وفي مرات قليلة لا نعثر إلا على عبارة «الإصلاح الزراعي» وحتى هذا الاصلاح الزراعي لا نلتقي معه مباشرة من خلال أحداث الرواية ولكنه يذكر فقط على أنه أمر مرتقب وخاصة على أنه أمر مخيف بالنسبة إلى ابن القاضي.

---

1 – د/ محمد مصايف . الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام ص : 180–181.

وإن كنا نتفق معه في هذه النقطة، فإننا نختلف في بعض الجزئيات التي جاءت في هذا النص. ومن ذلك مثلا مفهوم الاقطاعية التي ينتمي اليها ابن القاضي.

اننا كثيرا ما نعثر فيما كتبه الدكتور مصايف وغيره على مفهوم الاقطاعية عندما يتعلق الامر بالحديث عن ابن القاضي.

ولنعد الى البداية فنسأل السؤال المشروع والضروري : هل كان : ابن القاضي اقطاعيا ؟ وهل قصد ابن هدوقة في روايته الى تقديم رجل اقطاعي، ام مجرد فلاح له بعض الاملاك ؟ وهل نعتبر جوانب المحافظة هذه التي يتصف بها ابن القاضي، وخاصة فيما يتعلق بالمرأة هي خاصة بالطبقة الاقطاعية والغنية في الريف أم أنها تشمل جميع الريفيين في المجتمع الجزائري. إن الأجوبة على هذه الاسئلة موجودة داخل الرواية نفسها فنحن لا نعثر بالنسبة إلى «اقطاعية» ابن القاضي في الرواية من بدايتها حتى نهايتها على ذكر كلمة «اقطاعية» وطبعا ليس ضروريا، كما هو معروف، ان نستعمل اللفظة نفسها لكي نصف شخصية ما بأنها «اقطاعية»، ولكن من الضروري بدون شك أن يقدم الكاتب داخل النص من الصفات والطبائع ما يكفي لكي يجعل هذه الشخصية كذلك.

فهل يوجد في «ريح الجنوب» ما يكفي من الصفات لكي نعتبر ابن القاضي شخصية اقطاعية ؟...

إن شخصية ابن القاضي في هذه الرواية واضحة كل الوضوح، ولقد قصد الكاتب قصدا لأن يجعل هذه الشخصية في المقابل تماما لشخصية مالك، وان يربط في الوقت ذاته تاريخ هذه الشخصية بتلك ... فاذا كان مالك هو ذلك المجاهد الوطني المخلص لبلاده سابقا، والمتفاني في حبها والاخلاص لها والتفكير في مصيرها باستمرار حاليا، فان ابن القاضي على العكس من ذلك تماما، فهو سابقا «حركي» لانه اعلم السلطات الفرنسية بموقع المجاهدين انتقاما منهم بعد موت ابنته زليخة في القطار الذي فجره مالك خطأ عوضا عن القطار العسكري وهو حاليا – اي بعد الاستقلال – مصلحي انتهازي لا يفكر سوى في «املاكه» والعمل بكل الوسائل للحفاظ عليها ...

ولكن وعلى الرغم من هذا فانه لا يوجد في الرواية ما يقنع بان ابن القاضي رجل اقطاعي.

يحاول ابن هدوقة من خلال بعض المواقف والاحداث ان يجعل التاريخ يعيد نفسه، ومن بين هذه المواقف التي تؤكد مصلحية وانتهازية ابن القاضي – مثلا – : طريقة تعرف مالك على كل من زليخة التي قدمتها له امها خيرة : « هذه زليخة ابنتي التي تقرأ في الجزائر، انت لا تعرفها يا مالك »[1].

ثم تقديمها لابنتها الاخرى بعد الاستقلال : « انها نفيسة ابنتي التي تقرأ في الجزائر »[2]. فاذا كان معروفا من خلال الرواية بان ابن القاضي الرجل المصلحي الانتهازي صاحب الاملاك سعيا منه للحفاظ على هذه الاملاك بكل الطرق والوسائل، يتقرب باستمرار من مالك رئيس البلدية اي الممثل الاول للسلطة في القرية وان من بين افضل وسائل تقربه منه ابنته نفيسة، التي كانت تدرس في الجزائر العاصمة، والتي جاءت لتقضي عطلتها في القرية اثناء العطلة الصيفية، والتي فكر مع نفسه وخطط لتزويجها له، منذ بداية الرواية، على الرغم من ان الرواية تنتهي دون ان نعلم بالموقف الحقيقي لمالك من هذا الزواج الذي شاع خبره بين ناس القرية...

اذا كان هذا معروفا، أي تقرب ابن القاضي من مالك لاجل تحقيق هذا الزواج المصلحي عن طريق نفيسة، فان ذلك نفسه هو ما حدث زمن الثورة عندما عمل ابن القاضي حفاظا على نفسه وامواله على التقرب من مالك الشاب الذكي المجاهد النشيط عن طريق تزويجه من ابنته زليخة، لقد صار واضحا حتى الان بان المصلحية والانتهازية هما بدون شك من الصفات الملازمة لشخصية ابن القاضي، ولكن هل هاتان الصفتان كافيتان لجعله اقطاعيا ؟ لا نظن ذلك، ومهما يكن، وللجواب على السؤال الذي ما يزال مطروحا والمتعلق بمدى «اقطاعية» ابن القاضي او عدم اقطاعيته، لابد من تحديد مكونات شخصية هذا الرجل وصفاته الاخرى.

يمثل ابن القاضي – في الرواية اضافة لى ما ذكرنا – الرجل الريفي التقليدي المتسلط في اسرته، اي يمثل السلطة الابوية والحكم الفردي الذي لا يعارض ولا يناقش، وهذا ما نجده عادة في القصة والرواية العربيتين اللتين تتناولان امور الحب والزواج، حيث يمثل الاب دائما سلطة القمع الاجتماعي التي لا تعارض، سلطة الاب في مواجهة جميع افراد الاسرة من جهة، ثم سلطة الرجل في مواجهة المرأة

---

1 – ريح الجنوب، ص، 61

2 – المصدر نفسه، ص، 61

وضعفها من جهة اخرى، فها هي – مثلا – ام نفيسة تردد مع نفسها عند عجزها عن مقاومة راي الزوج، وتصميمه على تزويج ابنته مرغمة : «ربي قدر هذا، ثم حظي العاثر [1] » وها هي نفيسة تعبر من جهتها عن الموقف «في الجزائر كان المستقبل وحده الذي يهمني، اما هنا فأبي هو المستقبل، ابي هو مالك مستقبلي، ابي الذي اعطاني الحياة، ابي مالك حياتي اولا واخيرا... ابي يملك حياتي وحياة امي... حياة المرأة ملك الرجل» [2].

فمع الفرق الواضح بين موقف كل من الام والبنت في مستوى الوعي ودرجته، توجدان معا في خانة واحدة، هي خانة الانسان المضطهد المغلوب على أمره.

فكما يضيف الكاتب وبصيغة مباشرة، تعليقا على موقف الام، ف «سواء كان المكتوب او الحظ العاثر او شيء اخر منع هذه الام من الادلاء برأيها في هذا الموضوع الهام بالنسبة اليها فان الزوج كان مصرا على أن تكون له الكلمة وحده » [3].

وبعد، فاذا كان صحيحا تماما ان ابن القاضي لا يسمح باي تنازل لاي كان بأن يدلي برأيه فيما يتعلق بزواج ابنته فهل هذا الامر، أي الحكم الانفرادي المتسلط من طرف الاب، يقتصر على الاقطاعيين وحدهم ؟ لا أظن ذلك فالامر هنا لا يتعلق بالاقطاعية او اللا اقطاعية ولكنه يتعلق برجل ريفي فلاح محافظ مثل غيره من الفلاحين الريفيين اغنياء وفقراء.

فهل هنالك صفات اخرى تجعل من ابن القاضي اقطاعيا ؟ ابن القاضي مصلحي انتهازي كما برهن الكاتب على ذلك اكثر من مرة، ولكننا لا نجد غير ذلك.

بينما هو يتصف من جهة اخرى بصفات حسنة وايجابية وان كان في الرواية ما يوحي بان اتصافه بهذه الصفات انما كان مقصودا لاجل الوصول الى اغراضه، ومن بين ذلك مثلا : كرمه، فهو كريم يقيم – مثلا – مأدبة للجميع يوم اعادة دفن الشهداء كما انه يقيم «فدوة» العجوز رحمة عند وفاتها. الخ...

وهو بصفة عامة واحد من سكان القرية، عادي جدا في تعامله مع الاخرين، لطيف جدا، لا يتكبر، ولا يغضب، عادي ايضا في حياته الخاصة، فهو اولا يعيش مع

---

1 – المصدر نفسه، ص، 205

2 – المصدر نفسه، ص، 216–217

3 – المصدر نفسه، ص، 205

الاخرين في القرية لا يستعمل في ركوبه السيارة –مثلا– ولكن البغل والحصان، يبكر عند الفجر ليصلي، يلتقي مع بقية سكان القرية في المقهى، فاين هي تلك الاخلاق الاقطاعية في التعامل مع الاخرين، خاصة مع العمال والمستخدمين ؟

وللجواب نقول : اما ان هنالك نقصا من طرف الكاتب في تصوير شخصية هذا الرجل «الاقطاعي» بحيث قدم لنا صورة له غير مكتملة، اذا كان يريده ان يكون اقطاعيا او انه قصد قصدا الى تقديم فلاح من فلاحي القرية له بعض الاملاك، ولكنه ابعد ما يكون عن الاقطاعية ، والا فاين عمال هذا الرجل ؟ علاقاته الاخلاقية مع الاقطاعيين الاخرين، نظرته الطبقية المنسجمة معهم الخ...

كل ما هنالك ان الكاتب يذكر ان لهذا الرجل املاكا، يقول انها تمثل نصف املاك القرية، ولكن ماذا تملك القرية ؟ وماذا يملك ابن القاضي ؟ لا ندري.

نحن اذن لا نلتقي باقطاعي، ولكن بفلاح يملك بعض الاملاك، ويسعى للحفاظ عليها، واما تعامله مع من يعملون عنده فلا نجد عنه الا مثالا واحدا، هو تعامله مع رابح راعي غنمه، وحتى تعامله مع هذا –بغض النظر عن النهاية المأساوية للرواية التي تمثلت في مواجهة كل منهما للاخر رجلا لرجل– كان في غاية اللطف والهدوء، فقد ترك الراعي غنم ابن القاضي عندما اراد التخلي عن الرعي، فلم يزد ابن القاضي عن لومه لوما رقيقا، وكان ذلك خلال جلسة حضرها مالك الذي يحترمه ابن القاضي... ولو ظاهريا – غاية الاحترام، وفي هذه الجلسة حاول ابن القاضي ان يثني الراعي عن عزمه، وان يجعله – بمساعدة مالك – يعود الى الرعي... ولكن رابح رفض رفضا قاطعا، فلم يزد ابن القاضي ان اذعن للامر الواقع. ثم هنالك بالاضافة الى ما سبق جزئية صغيرة تجعلنا نتأكد ان ابن القاضي لا علاقة له بالاقطاعية، فعندما سئل رابح من قبل ابن القاضي أين سيعمل بعد تركه الرعي مع العلم ان العمل قليل، واجاب بانه سيعمل اي عمل، المهم ان لا يعود الى الرعي كان من المفروض هنا لو ان ابن القاضي اقطاعي فعلا – ان يعرض عليه – وهو الذي مدحه بعد ان عاش الراعي يشتغل عنده في الرعي منذ صغره – ان يشتغل عنده في املاكه. لا ان يتساءل معه : اين سيجد عملا ؟ وبعد فان ابن هدوقة جاء بشخصية ابن القاضي – بدون شك – لكي يدينها الا انها كما هو واضح في الرواية ليست شخصية اقطاعي، انما هي شخصية فلاح كبير – كما يعلمنا الكاتب بذلك، لا كما نعرف بانفسنا من خلال النص الروائي و من خلال صفات هذه الشخصية.

وبهذا فان ابن هدوقة اخفق في تقديم شخصية ابن القاضي اذا كان يريد تقديم شخصية اقطاعية.

وحتى عند الافتراض – بانه انما كان يهدف – وهذا هو المرجح لدنيا الى تقديم رجل ينتمي الى تلك الفئة التي تمثل نسبة لا بأس بها من الفلاحين الجزائريين الذين كانوا يملكون بعد الاستقلال أملاكا كبيرة، فانه يكون في هذه الحال ايضا قد اخفق الى حد ما في تقريب صورة هذا الفلاح الحقيقية من القارئ عندما اكتفى بالحديث عنه – في معظم الاحيان – من بعيد.

نتفق تماما مع الدكتور محمد مصايف بان مركز الصراع في هذه الرواية هو في واقع الامر ابن القاضي بسبب الجوانب المتنوعة لشخصيته نظرا لاهمية مركزه في اسرته اولا، وفي القرية ثانيا.

فهو في اسرته يقف في الصف المضاد لابنته نفيسة ولزوجته.

وهو في القرية يقف على المستوى الاداري والسياسي في مواجهة مالك من جهة كما نجد له من جهة اخرى اعداء طبيعيين من بين سكانها منهم – مثلا – ذلك الذي اعلمه بوجود ابنته – بعد هروبها– في بيت رابح الراعي، فهو لم يفعل ذلك خدمة له وحبا، ولكن للتشفي منه.

وكان من المفروض ان يقف في صف المواجهة لابن القاضي ايضا عماله ومستخدموه، بصفته «اقطاعيا» الا ان هؤلاء، لا نجد منهم سوى رابح الراعي، وقد سبق ان عللنا سبب ذلك.

وسنركز تحليلنا على اهم شخصيتين مواجهتين لابن القاضي، هما شخصية نفيسة وشخصية مالك.

فما الذي كان الكاتب يهدف اليه من وراء تقديمه لشخصية نفيسة ؟

لقد سعى الكاتب من خلال شخصية نفيسة الى تقديم قضية هامة وكبيرة من قضايا العصر في الجزائر هي قضية المرأة وحريتها وتطورها.

فاذا كانت هذه القضية في العالم العربي قد اسالت كثيرا من الحبر فكتبت فيها المقالات المتعددة عبر الجرائد والمجلات العربية، وكذلك الكتب الكثيرة ابتداء مما كتبه قاسم أمين والطاهر الحداد الى غيرهما من الكتاب الكبار والصغار معا الذين

تحمس بعضهم لحرية المرأة وتقدمها ودافع عنها دفاعا مريرا بينما، وقف بعضهم الاخر موقفا مختلفا، بحيث رأى في هذه الحرية وهذا التطور خروجاً عن الدين والاخلاق الخ...

اذا كانت هذه هي قضية المرأة في العالم العربي، فان قضيتها في الجزائر ايضا لم تكن غائبة عن الصحافة الجزائرية منذ بدايات هذا القرن. فلقد كان موضوع المرأة دائما موضوعا حساسا ومثيرا للجدل بين المفكرين والادباء، والعلماء والمثقفين بصفة عامة.

ومما لا شك فيه ان وضع المرأة بعد استقلال الجزائر يختلف عنه تماما قبله، فلقد فتح المجال واسعا امام المرأة الجزائرية بعد الاستقال لكي تتعلم اولا، ثم لكي تسهم في جميع مجالات النشاط الوطني ثانيا.

هذا من ناحية القرار السياسي. ولكن القرار السياسي غير الواقع الاجتماعي في الريف، ومن هنا تأتي أهمية طرح موضوع المرأة – وبالذات المرأة التي تتعلم وتتغير وتريد ان تغير– في رواية «ريح الجنوب».

ومما لاشك فيه – وهذا قبل الدخول في تحليل شخصية نفيسة وهي الشخصية النسوية المركزية في هذه الرواية – ان الكاتب قد وفق كل التوفيق في اختيار الاطار الذي وضع فيه هذه الشخصية مما سيجعلها تؤدي الدور المنوط بها أحسن أداء.

فالزمان سنوات قليلة بعد استقلال الجزائر، والمكان مكانان، مكان مؤقت، هو مجتمع العاصمة الذي تعلمت فيه نفيسة، وفتح امامها الافاق واسعة، ومكان أصلي، هو مجتمع القرية الذي يناقض الآخر ويعمل على هدم كل ما بناه.

والبيئة بعد هذا هي بيئة هذا المكان الثاني، الذي يضغط على نفيسة بكل الوسائل، والذي لا تكاد تجد فيه متنفسا، اللهم إذا استثنينا علاقتها بكل من شخصيتي العجوز رحمة المرأة الفنانة الطيبة صانعة الفخار، وأم رابح المرأة الجميلة البكماء، هاتين المرأتين اللتين ارتاحت لهما نفيسة ارتياحا كبيرا بسبب طيبتهما وتفهمهما. لقد حضر الكاتب إذن شخصية نفيسة تحضيرا مدروسا ومتقنا لكي تمثل دورها أحسن تمثيل.

فهل أتقنت نفيسة دورها بالفعل ؟ أو بالاحرى هل وفقت في أداء هذا الدور ؟ ذلك ما سنحاول الاجابة عنه في الفقرات التالية.

في تصورنا أنه كان أمام الكاتب عدة طرق أو امكانيات للخط الذي يمكن أن تسير فيه نفيسة.

كان في إمكانه مثلا أن يجعل نفيسة تعود من العاصمة في العطلة الصيفية إلى بلدتها الأصل وكلها بهجة ومرح وفرحة بالحياة فهي تعود من العاصمة مدينة الصخب والفوضى والاكتضاض إلى قرية هادئة نقية الهواء، تعود من الغربة ومن وسط أناس لا تعرف منهم إلا القليل، إلى أهلها وسكان قريتها، تعود في حنين إلى مسقط رأسها.

كان من الممكن أن يكون الخط الذي تسير فيه شخصية نفيسة بهذا الشكل، إلى أن تعلم – وهي في خضم الأمل والحلم بمواصلة دراستها بعد انقضاء عطلة الصيف – بنية أبيها في تزويجها من مالك، هذا الزواج الذي لم تكن تفكر فيه بعد.

وكان من الممكن أن يطرح الكاتب من خلال هذا الخط نفس الأفكار، ونفس الأمور المتعلقة بالمرأة وحريتها. ولكن ربما بطريقة أبعد ما تكون عن المباشرة وعن الاعتماد على النظرية كما فعل، أي بطريقة تجعل نفيسة أكثر انسجاما مع واقعها وأكثر طبيعية مع دورها، ومن ثم أكثر إقناعا.

صحيح، أن نفيسة تنتمي – في الأصل – إلى الريف، وصحيح، أنها تعلمت في المدينة، وصحيح، أن الريف الذي تنتمي إليه ظل محافظا وهو ما سيتناقض مع أفكارها، ومن هنا يأتي الصراع في الرواية وتأتي الثورة على التخلف، ولكن الموقف كان سيكون أكثر تعبيرا وأعمق بكثير... لو أن هذا الصراع وهذه الثورة كانا نابعين من ذات الشخصية ومن تجربتها الخاصة ومن الموقف الذي وضعت فيه، لا من الأفكار النظرية العامة.

لهذا كله فإننا نشعر بنوع من الرتابة وعدم التطور في شخصية نفيسة، مع أنها الشخصية الأساسية التي كان من المفترض أن يحدث فيها كثير من التطور، فالتطور الذي حدث في هذه الشخصية لم يكن في الواقع سوى في حركتها الخارجية. أما في إحساسها وشعورها وفكرها فإن نفيسة في بداية الرواية هي نفسها في نهايتها.

ويرجع السبب في ذلك إلى أن الكاتب قصد عمدا تحميلها كثيرا من افكاره «الثورية» والاصلاحية فيما يتعلق بتطور المجتمع وتحرير المرأة، وكانت هذه الافكار افكارا نظرية في معظمها.

تقول نفيسة في إحدى الصفحات الأولى من الرواية : «لا يعرفون هنا إلا الصلاة والموت أما الحياة فهي وساوس شيطان» [1].

كما اننا نلتقي منذ بداية الرواية مع نفيسة وقد ضاقت نفسها إلى درجة الإحساس بالاختناق من جو القرية وكأنما هي في سجن، وذلك بسبب تخلف القرية التي تختلف اختلافا جذريا عن العاصمة. والكاتب يذهب مباشرة إلى طرح المواضيع والأمور والأفكار التي يريدها فعندما تسأل العجوز رحمة نفيسة عما يحزنها وهي موجودة بين أبويها تجيب هذه «لا شيء يا خالة... انني اغار من عبد القادر» [2] أي بسبب حريته وهو الطفل الصغير، فهي في القرية لا تملك مثل هذه الحرية، بسبب كونها امرأة.

ثم تضيف بعد ذلك بقليل : «ان الدنيا تبدلت يا خالة تبدلت، ان جهل الرجال هو الذي اطلق ألسنتهم بالسوء فينا، وان جهل المرأة هو الذي جعلها تحيا بين عبودية الاباء والازواج [3]، هي اذن مؤهلة لحمل افكار الكاتب الاصلاحية من بداية الرواية وكأنما أراد الكاتب ان يمتحنها عندما جعلها موضوعا لتطبيق هذه الافكار بالذات، فهذا «ابوها يقرر منعها من العودة الى الجزائر، من مواصلة الدراسة، يقرر تزويجعها، يختار هو من تتزوج به [4].

ويواصل الكاتب شرح الامور التي تقف في وجه نفيسة، ومن بينها الدين الذي يتدخل حتى في الملبس. والحظ الدي يقف ضدها، والغيبيات، والظروف الخارجية التي تتحكم في مصيرها والتقاليد البدائية المقيدة لسلوكها الخ...

والسؤال المطروح عليها بعد هذا كله وبعد قرار ابيها تزويجها من مالك هو : «ماذا عساها ان تفعل وحدها لمواجهة كل ذلك ؟ هل تثور ؟ ولكن أية ثورة، وفي اي اتجاه ؟ انها لا تعرف احدا في القرية وهب انها عرفت، ماذا يجدي ذلك ؟ فلا فرع هناك للمنظمة النسائية ولا لشبيبة الحزب ولا لغيرهما» [5] .

---

1 – المصدر نفسه، ص، 13

2 – المصدر نفسه، ص، 36

3 – المصدر نفسه، ص، 37

4 – المصدر نفسه، ص، 87 – 88

5 – المصدر نفسه، ص، 88

وعلى الرغم من ان نفيسة لا تواجه اباها مباشرة، فذلك من قبيل المستحيلات، فانها مع نفسها تقرر الثورة على الوضع الذي وضعت فيه.

وفي خضم الصراع بين الاب والبنت تكون الام – كالعادة – واسطة الاتصال فتقع بين فكي الكماشة، وتنال من غضب الطرفين، فبينما تقول لها البنت مثلا : «الذل الذي عشت فيه انت لن أعيشه، كوني أما لغيري إن شئت»[1]. يكون الاب قد قرر «انا قررت ان تتزوج وقراري قضاء»[2] اراد الكاتب اذن لشخصية نفيسة ان تحمل افكاره وآراءه في قضية المرأة، ولقد اعدها وزودها بثقافة جيدة تؤهلها للقيام بهذا الدور، فهي عندما تجد نفسها في ذلك المأزق الصعب، تستنتجد بقول احد المفكرين : «مع اقسى محنة في الحياة تبقى للمرء حرية الاختيار »[3].

وهي تفكر باستمرار في وضعية قريتها المتخلفة، وخاصة في وضعية نسائها ووضعية المرأة العربية بصفة عامة، «التي في الارث لها نصف حظ الرجل، وفي الحياة لا حظ لها معه مطلقا»[4].

وهو يستعرض من خلال ذهن نفيسة وثقافتها وضعية المرأة العربية بصفة عامة، وما تتحمله من أعباء وما تتعرض له من سيطر ة وسخرية من قبل الرجل الخ... وعلى العموم فان الكاتب يتعرض لموضوع الزواج بالطريقة نفسها التي نعثر عليها، في الكثير من الاعمال القصصية والروائية التي كتبت في البلاد العربية خلال النصف الاول من هذا القرن. هذه القصص والروايات التي جعلت دائما المرأة هي الضحية في مجتمع رجالي متعصب يقف في وجهها، وضد طموحها.

وكالعادة فان ظلم المجتمع يتمثل في معظم الاحيان في سلطة الاب القوية والمطلقة، وقد يمثل جانبا من هذا الظلم احيانا الاخ، او العم، او الخال، الخ...

ولم يفت ابن هدوقة ذلك، فها هو يشير في احدى فقرات الرواية حتى الى سيطرة الابن على أمه فعندما تسأل نفيسة رابح عما اذا كانت أمه لا تريدها أن تبقى في بيتها، يجيب رابح بقوله :

---

1 – المصدر نفسه، الصفحة نفسها
2 – المصدر نفسه، ص، 90
3 – المصدر نفسه، ص، 201
4 – المصدر نفسه، ص، 202

« لا، لا تستطيع أن ترفض فأنا الذي أتصرف هنا، ابتسمت نفيسة لضحك رابح واعتداده بنفسه، ولو أنه لم يفتها ان تلاحظ سيطرة الرجل على المرأة في كل موقف مهما كانت الرابطة التي تربط بينهما» [1].

قد يؤخذ على ابن هدوقة أنه جعل ثورة نفيسة ثورة فردية ولكننا نعتقد أنه قصد بذلك قبل كل شيء، الاخلاص للواقع، فلو كانت نفيسة تريد ان تثور في مدينة كبيرة، أو حتى في مدينة متوسطة، حيث يتوفر العنصر النسوي في شكل الطالبات او الموظفات او العاملات الخ... وحيث تتوفر التنظيمات النسوية المختلفة، او التنظيمات التي تسمح بمشاركة المرأة، فانها كانت بدون شك ستجد بجانبها نساء أخريات يشاطرنها أفكارها ويشعرن بشعورها، أما وقد وجدت في هذه القرية الصغيرة النائية المنعزلة، فان عليها ان تتحمل قدرها ومسؤوليتها وحدها.

وبقدر ما نشعر بانعزال قرية نفيسة هذه نشعر كذلك ان نفيسة بدورها – عندما نتأمل شخصيتها بشكل جيد – شخصية منعزلة تماما عن بقية سكان القرية، بل سينتابنا احساس واضح وقوي بأنها لا تنتمي اصلا الى هذه القرية ومجتمعها وانما هي امرأة دخيلة لا تختلف عن أية امرأة أخرى سائحة او طارئة على هذا المجتمع.

فلقد لاحظنا منذ البداية تأفف نفيسة من القرية وضيقها من وجودها فيها وعدم إحساسها باية عاطفة نحوها. ولقد زاد الكاتب من حيرتنا وتساؤلاتنا عندما ترك مرحلة من مراحل عمر نفيسة غامضة، وهي مرحلة طفولتها. فهو يذكر انها كانت تدرس في العاصمة وكانت تسكن عند خالتها، ثم عادت في العطلة الصيفية، وهذا يسمح لنا ولخيالنا بملء الفراغات الزمنية فنتخيل مباشرة بانها درست خلال اعوام طفولتها في القرية، لان المدرسة الابتدائية كانت موجودة بدون شك، ثم انتقلت الى العاصمة، وهي تعود في كل عطلة صيف الى قريتها.

إذا كان هذا هو الاحتمال الغالب والاكثر قبولا بالنسبة إلى مسار حياة نفيسة، فاننا سنجد كثيرا من الخلل عندما نعود الى تتبع حركتها في الرواية.

ولعل الكاتب يكون قد دق جرس الانذار عندما جعل العجوز رحمة تلاحظ «لاول مرة انها امام امرأة لا تعرف مثيلا لها في هذه القرية [2].

---

1 – المصدر نفسه، ص، 252

2 – المصدر نفسه، ص، 37

لقد كانت ملاحظة العجوز رحمة هنا ايجابية كما هو واضح ؛ اذ من الطبيعي جدا ان تخرج طفلة من قرية ما، لكي تسافر وتتعلم وتعود بعد ذلك الى قريتها وهي تحمل في ذهنها كثيرا من المعارف والافكار الجديدة.

ولكن الامر غير الطبيعي هو ذلك المتمثل في بعض الجزئيات التي ستؤدي بنا اما الى التأكد بان نفيسة لا تنتمي أصلا الى هذه القرية او ان الكاتب لا يعرف القرية جيدا، والا فما معنى ان تلجأ نفيسة الى اختلاق درس في الجغرافيا مع اخيها الصغير فقط لكي تصل الى معرفة موعد القطار المتجه الى الجزائر، مع أنها أكبر منه سنا – وانها – كما هو مفترض – من القرية نفسها، مع العلم ان الناس في القرى يعرفون بالتفصيل كل شيء حتى الاحجار والاشجار كبيرها وصغيرها، فما بالك بموعد القطار الوحيد الذي يمر بالقرية مرة واحدة في اليوم، ثم ان الكاتب يتحدث عنها وقد ضاع منها – اثناء هروبها – الطريق المؤدي الى محطة القطار، فهل هي في قرية، ام في احدى المدن الكبرى ؟

ثم انه يتحدث عن نفيسة يوم وفاة العجوز رحمة في علاقتها بنساء القرية وعلاقتهن بها فيشير الى القطيعة الكاملة بينها وبينهن، فلا هي تعرف واحدة منهن عدا امها، ولا هن يعرفنها، فكأن الكاتب يتحدث عن لقاء مجموعة من النسوة في أحد حمامات العاصمة او ما شابه ذلك... ثم ما هذا التصرف «المتحضر» من طرف نفيسة التي تريد دفع بعض المال ثمن اقامتها في بيت ام الراعي، الذي انقذها من الموت اثر لذغة الثعبان، واعادها الى البيت، وبعد ذلك دخول احدى عجائز القرية الى بيت الراعي دون ان تعرف نفيسة.

وكما ان الملاحظات التي سبق ذكرها تجعل شخصية نفيسة غيرمقنعة بالشكل الكافي، أو هي تجعلها – على الاقل – شخصية غريبة عن القرية مما سيقلل من اهميتها ودورها لحمل رسالة التطور وتحرير المرأة، فان عملية هروبها ايضا تتسم ببعض التكلف.

فبالاضافة الى ما سبق ذكره من تضييعها للطريق المؤدي الى محطة القطار، وبالاضافة الى قصد اختلاق المصادفة في جعل الراعي بالذات هو الذي يعثر عليها في العراء تصارع الموت فينقذها مما يسمح للكاتب بتطبيق المفهوم الاخلاقي المعروف : «العفو عند المقدرة» .

بالاضافة الى هذا وغيره فان الكاتب يختلق مجموعة من الصعوبات والاهوال التي تقف في وجه نفيسة، فهذا ثعبان يفر من امامها، وهذا ثعبان آخر ينهش رجلها، كل ذلك لكي ياتي الانقاذ من قبل رابح الراعي. الا ان هنالك اخطاء، احيانا تتمثل في عدم وجود الدقة الكافية.

فبعد ان ذكر الكاتب – مثلا – بأن نفيسة لدغت، وصار ساقها اسود، واسود جسمها ووجهها [1] بعد ان انتشر السم في جسمها، يعلمنا بوصول الراعي الذي يجرح ساقها مكان اللذغ ليمتص دمها المسموم، لقد صار كل جسمها مسموما، فهل سيمتص كل دمها ؟

حاول الكاتب تحديد عملية هروب نفيسة بكل دقة. فجعل هذا الهروب يتم يوم الجمعة، وبالضبط وقت السوق الاسبوعية، عندما يكون الرجال في السوق، والنساء في المقبرة، وبهذا فقد خرجت نفيسة من دار ابيها وهي تلبس ألبسة رجالية دون ان يلاحظها أحد، الى ان وجدها الراعي بعيدا عن القرية ساقطة على الأرض واعادها الى بيته، كل هذا امر مقبول، مهما قيل في الطريقة التي تم بها، الا ان الامر غير المقبول حقا أن تعود أم نفيسة بعد زيارة المقبرة دون أن تجدها فتظل داخل بيتها تعيش قلقها دون أن تقوم بأية حركة للبحث عنها، ألا يجب ان تسأل عنها عند الجيران ؟، عند سكان القرية الاخرين ؟ الخ..

ان الكاتب يشعرنا أكثر من مرة انه لا يعرف القرية جيدا، ومن الامثلة على ذلك انه جعل «مالكا» الذي يحضر لحظات وفاة العجوز رحمة ليلا، ينتظر حتى يفتح الحاج قويدر مقهى القرية صباحا لكي يعلمه بهذه الوفاة، ولكي ينتشر الخبر من هناك، من المقهى. فما هذا ؟ هل سكان القرية عندنا يتصرفون بهذا الشكل ؟ ان القروي لا يتورع عن دق باب منزل جاره في اي وقت كان من النهار او الليل، بسبب امور ابسط كثيرا من الموت، فما بالك بأمر الموت في القرية ؟

اما الشخصية الثانية في هذه الرواية التي تقف في مواجهة ابن القاضي فهي شخصية مالك رئيس البلدية.

والذي نعتقده ان الكاتب عرف – بشكل موفق تماما– كيف يربط تلك العلاقات بين ابن القاضي ومالك، ويجعلها تقوم في ظاهرها على التفاهم والود والانسجام،

---

1 – المصدر نفسه، ص، 244

بينما هي في حقيقة الامر تقوم على الحذر والاحتياط بين الطرفين فعداوتهما «طبعا لم تكن ... صريحة بينهما ولا معروفة لدى الناس» [1].

فابن القاضي فلاح كبير قبل الاستقلال، متعاون مع الاستعمار وهو حاليا فلاح كبير يسعى للحفاظ على أملاكه، ويبدي كثيرا من الكرم والتسامح والتعامل الحسن، ويتقرب من مالك ممثل السلطة بكل الوسائل « ويفتعل المناسبات للتعظيم من شأنه وذكر كفاحه واخلاصه للثورة والوطن » [2].

اما مالك فهو رجل وطني مخلص، مجاهد سابقا، وشاب مستقيم الى أقصى حدود الاستقامة، وهو الان رئيس لبلدية صغيرة مغمورة، تمثل شغله الشاغل وهو يفكر في النهوض بها ليلا ونهارا.

وباختصار فان العداوة بين مالك وابن القاضي لم تكن «هجوما بل كانت تربصا وانتظارا» [3].

مع الفارق ان عداوة مالك لابن القاضي كانت مذهبية، فهو يرى فيه ذلك الفلاح الكبير الذي يملك من الارض أكثر من حقه، والذي يجب في اطار الاصلاح الزراعي المقبل، وفي اطار اتجاه الجزائر نحو الاشتراكية ان يتخلى على بعض أراضيه للفلاحين الفقراء المستحقين، فمالك يمثل هنا سياسة السلطة الرسمية في الاتجاه نحو الاشتراكية، بينما كانت عداوة ابن القاضي لمالك شخصية، فقد وشى به وبأصحابه من المجاهدين يوم قتلت ابنته زليخة في القطار الملغم، وهو الآن يفكر في مستقبل املاكه، ويعمل على ضمان بقائها. كل من مالك وابن القاضي اذن يعرف الآخر معرفة جيدة مما يجعله يتصرف ازاءه في ذكاء، وحيطة وبحذر شديد، ولقد وفق الكاتب – كما ذكرنا سابقا – في تصوير العلاقة بين هذين الرجلين.

يقدم الكاتب مالك في صورة ذلك الرجل الهادئ المخلص الجاد الانساني المتأمل في واقعه الذي يشعر بثقل المسؤولية الى ابعد الحدود، والوفي بعد ذلك لغيره.

---

1 – المصدر نفسه، ص، 47

2 –المصدر نفسه، الصفحة نفسها

3 –المصدر نفسه، الصفحة نفسها

فمن بداية الرواية تطرح قضية زواجه من نفيسة الفتاة الجميلة المتعلمة، تطرح على لسان ابن القاضي، ويشيع موضوع هذا الزواج على كل الالسنة في القرية، الا ان «مالك» وعلى الرغم من وقوفه منبهرا مع شعوره، عندما دعاه ابن القاضي الى بيته ورؤيته لنفيسة بأنها «زليخة التي وقف منذ ساعات امام قبرها اثناء التدشين تقف الان امامه حية» [1] على الرغم من اعجابه بنفيسة التي تشبه اختها التي كانت ذات يوم خطيبته، وعلى الرغم من المستقبل الجميل الذي كان من الممكن ان يضمنه لو عجل في الزواج من نفيسة. فان «مالك» ولانشغاله باستمرار بهموم البلدية ومشاكلها، ومشاكل الوطن بصفة عامة، الى درجة شعورنا بان تفكيره كان اوسع من حجم هذه البلدية المرمية، برغم ذلك فان مالك ينسى تماما موضوع زواجه، وينسى التفكير في كل ما يتعلق بشؤونه الشخصية.

فهو مرة يشعر بالملل والخجل من دوره كرئيس للبلدية «يدشن المقابر بدل المعامل» [2].

وهو مرة يتأمل تضامن الجميع يوم وفاة العجوز رحمة، فيعلق «هم الشعب هولاء الفقراء، آه لو عرفوا فقط قوتهم الحقيقية واستعملوها كما ينبغي لادركوا ان الارض مهما كان اديمها فهي صالحة للخصب » [3]، وهو في أحيان أخرى يرتفع الى مستويات أخرى من التفكير والتأمل، الى درجة ننسى معها اننا ازاء رئيس للبلدية استغرقته الشؤون الادارية وهموم المواطنين : «لست ادري من منا المسكين الحزين، أأنا الحي ام العجوز الميتة؟ كان مالك يمشي وراء الجنازة سابحا في أفكاره المضطربة وفلسفته العابثة [4] وهو على العموم ثائر على الوضع، يرى ان الاوضاع التي قامت الثورة التحريرية الكبرى من اجل تصحيحها، مازالت لم تصحح، فعندما كان الشيخ يحدث المجتمعين في مساء اليوم الذي دفنت فيه العجوز رحمة عن الجنة والنار، وقد استعمل في حديثه كثيرا من الخرافة كان مالك يفكر : «ان الثورة المسلحة حررتنا من الاستعمار ولم تحررنا من الاوهام يجب القيام بثورة اخرى، لكن من يقوم بها المدرسة وحدها لا تكفي» [5].

---

1 – المصدر نفسه، ص، 59

2 – المصدر نفسه، ص، 63

3 – المصدر نفسه، ص، 171

4 – المصدر نفسه، ص، 175

5 – المصدر نفسه، ص، 178

إلا ان مالك بالرغم من ثورته وتفاؤله كثيرا ما يصاب باليأس واللاجدوى، فقد كان يشعر ان عزلته تزداد اكثر فأكثر وان حياته بهذه القرية التي احبها. وخاض حرب التحرير من اجلها، من اجل تغيير وجهها القاتم، هو ورفاق استشهدوا وآخرون غادروها الى المدينة حيث استأنفوا حياة جديدة، ان هذه الحياة اخذت بمرور الايام تتكشف عن تفاهتها وعقمها» [1].

ان «مالك» في هذه الرواية هو الذي يمثل وعي الكاتب المباشر بالحياة وبالواقع وبما يجري في الجزائر لمرحلة ما بعد الاستقلال هو الضمير الحي، والمخلص، والمتتبع لكل مجريات الامور، ونحن نشعر من خلال تفكير مالك بان الكاتب اصيب بكثير من خيبة الامل، فقد عاهد مالك نفسه وهو في الجبل بالبقاء – بعد الاستقلال – في القرية وخدمتها الا ان : «الحقيقة التي تمخض عنها الاستقلال لم تكن في الحسبان بالاقل في حسبانه هو » [2].

ان سمعة مالك لدى الجميع سمعة طيبة، فالكل يعزه ويحترمه بصدق، باستثناء ابن القاضي، الذي يحترمه ويقدره ويمدحه نفاقا.

ولا شك ان اصدق اصدقائه، واقرب واحد الى نفسه من بين سكان القرية جميعا – بالاضافة الى العجوز رحمة التي يقدرها ويحترمها والتي خدمته خدمات جليلة اثناء ثورة التحرير – هو المعلم الطاهر.

فمن خلال صفحات الرواية نشعر ان شخصية المعلم الطاهر ما هي الى تكملة لشخصية مالك.

فالمعلم الطاهر مثل مالك، رجل وطني مخلص، شارك في ثورة التحرير، خفيف الظل، ينتمي الى البرجوازية الفلاحية الصغيرة، يحمل في ذاته كثيرا من الصفاء الرومانسي : «أليس من الطيش أن أحب فتاة بدون ان اراها ولو مرة، فتاة لا تعرفني ولا اعرفها، احببتها لمجرد ما سمعت عنها ولمجرد ما أوحت به الي سيماء أخيها» [3] وهو الى جانب هذه الحساسية المفرطة ازاء الحب، فان له حسا قويا فيما يتعلق بالفقر وعذاب الانسان في هذه الارض : «المعذبون في الارض انا واحد منهم، حياتي ابشع من حياة الفلاح المصري» [4].

---

1 –المصدر نفسه، الصفحة نفسها
2 – المصدر نفسه، ص، 179
3 – المصدر نفسه، ص، 74
4 –المصدر نفسه، ص، 75

وهو – مثل مالك – عندما يفكر في القرية وكيفية، خروجها من التخلف يرى ان ذلك لن يتم الا عن طريق الجدية والعمل، وهو يعارض – مثلا – بكل شدة، الحاج قويدر صاحب المقهى « الذي يؤمن بان الواقع هكذا، أو هو هذا »[1].

وهو كثيرا ما يتهجم على البلدية – على الرغم من ان صديقه هو رئيسها اذ يرى انها مقصرة جدا، وانها لا تكاد تفعل شيئا، وان بامكانها ان تفعل الكثير.

ومن بين أهم الشخصيات الاخرى التي كانت لها في هذه الرواية علاقات قوية مع جميع الاطراف. شخصية العجوز رحمة.

لقد اهتم الكاتب بهذه الشخصية اهتماما كبيرا، وجمع لها من الاوصاف ما يجعلها شخصية محببة الى جميع سكان القرية بلا استثناء مما يؤهلها لان تكون لها مكانة هامة بين الجميع، ومن ثم يكون لها تاثير واضح في مسار احداث الرواية.

فهي اولا امرأة مناضلة شاركت في الثورة التحريرية بجانب المجاهدين بتقديم خدماتها لهم، ومن بين ذلك انها – مثلا – ظلت تخدم مالكا في بيتها عندما جرح ثلاثة أشهر.

وبالاضافة الى اخلاصها لوطنها فان العجوز رحمة مخلصة كل الاخلاص لزوجها الذي مازالت تزور قبره كل يوم جمعة منذ عشرين سنة.

ثم ان الاواني التي تصنع وتبذل كل الجهد لاجل اتقان صناعتها موجودة في كل بيت من بيوت القرية، وبالاضافة الى هذا كله فان العجوز رحمة ونظرا الى سنها وتجاربها فان الحكم والامثال تنساب دائما على لسانها، ولا يفوتنا بعد هذا ان نشير الى انها رغم كبر سنها تعيش من عرق جبينها، فهي تصنع الاواني لكي تعيش.

لا بد ان الكاتب كان يريد عندما جمع كل هذه الاوصاف في العجوز رحمة ان يشير الى اهمية دور المرأة الجزائرية التقليدية، والى مكانتها على الرغم من اميتها، فهي التي تمثل الاصالة الحقيقية للشعب الجزائري عبر العصور، وهو عندما يضعها في رواية واحدة بجانب نفيسة انما يقصد بذلك الاشارة الى الجيلين معا جيل المرأة الجزائرية التقليدية التي تمثل الماضي وتمثل الاصالة، وجيل امرأة المستقبل التي تمثل التعليم والثقافة والسعي نحو التقدم، الا اننا نشعر أن الكاتب يحمل العجوز رحمة – احيانا – اكثر من مستواها الذهني.

---

1 – المصدر نفسه، ص، 78 وما بعدها

فها هي – مثلا – تخاطب الجميع عندما دعا ابن القاضي مالكا الى بيتها، وساد الصمت بعدما سلم على افراد الاسرة : «تحدثوا، اضحكوا، ان الحديث يخفف الجو ويزيل الحواجز المصطنعة» [1].

ان العجوز رحمة كثيرا ما تتحدث بمعان تفوق مستواها. الا ان تجاوز المستوى لديها لا يقتصر على الحديث ولكنه يتمثل خاصة وبشكل واضح في تعاملها مع صناعة الاواني، الى درجة ان الكاتب ينتقل بها من مجرد صانعة للاواني الى فنانة حقيقية تنظر الى ما تصنعه يداها نظرة اي رسام او نحات او فنان بصفة عامة الى فنه. فهي عندما تتامل لأول مرة صورة نفيسة تقول في نفسها : «آه لو استطيع ان اصنع آنية واحدة توحي لناظرها بما توحي به هذه الفتاة... لكنت إذن أسعد امرأة» [2].

وهي تخاطب مرة الراعي رابح الذي انقذها من الموت بقولها : «أرأيت ؟ لو مت لبقيت هذه الاواني بلا اتمام » [3]، ثم انها كانت « تقص على رابح اخبار تلك السنة الاليمة التي عرفتها القرية منذ اكثر من ثلاثين سنة وعيناها تنتقلان بين بعض الاواني الفخارية القديمة التي هي عندها بمثابة سجل قيدت فيه حياة القرية وايامها »[4] وحتى في هذيانها وهي مريضة فان العجوز رحمة لا تنسى الحديث عن اوانيها الى درجة انها تتصور نفسها آنية.

ثم ان الكاتب يشير مباشرة الى انها «فنانة، وفنها اكسبتها اياه السنون الطويلة التي عاشتها» [5].

ويعبر الكاتب احيانا عن جوانب انسانية حميمية وجميلة في شخصية العجوز، فهي مثلا ليس لها ما تقدمه لروح زوجها سوى الاواني الفخارية التي تضعها على قبره في كل زيارة جديدة، والامر نفسه يفعله الراعي رابح الفقير مع العجوز عند وفاتها فلا يجد ما يقدمه لها سوى لحن جميل يعزفه على الناي.

---

1 – المصدر نفسه، ص، 62
2 – المصدر نفسه، ص، 37
3 – المصدر نفسه، ص، 123
4 – المصدر نفسه، ص، 129
5 – المصدر نفسه، ص، 150

ثم ان العجوز رحمة التي تحلم دائما بصنع الاواني التي لم تصنعها تلتقي بعد هذا مع جميع الكادحين في القرية، هؤلاء، الذين يكدون ويعملون باستمرار تلتقي مع الراعي الباحث باستمرار عن اللحن الذي لم يعزفه، ومع صانع القفاف الذي يبذل ما في وسعه لصنع احسن قفة، ومع الحاج قويدر المتفاني في صنع القهوة التي يعرف قيمتها والذي يعمل في مقهاه من الفجر حتى العاشرة ليلا.

إن هولاء جميعا يقابلون في القرية، اولئك الكسالى الذين يقضون وقتهم في المقهى بين لعب الورق، والحديث الفارغ.

ان الجوانب الفنية التي يمكن ان تثيرها رواية «ريح الجنوب» كاللغة والاسلوب والبناء الخ... كثيرة ومتنوعة، الا اننا سنحاول تناولها ببعض الايجاز.

اول ما يلاحظ على لغة هذه الرواية أنها لغة تميل في مجملها الى العادي المألوف، هي لغة سردية حكائية عادية بسيطة في معظمها.

فالفعل هو الماضي الدال على الزمان المتتالي المتحرك باستمرار تلك الحركة المنتظمة الرتيبة، وزمن الرواية بعد هذا هو ايام من العطلة الصيفية في احدى القرى الجزائرية شبه الصحراوية.

ان اختراق رتابة هذا الزمان المنتظم للعودة الى الماضي قليلا ما يحدث، كأن يرجع الكاتب –مثلا– الى ماضي مالك زمان الثورة التحريرية، او ماضي ابن القاضي او العجوز رحمة. الا ان ذلك بدوره يتم عادة عن طريق قطع الزمان الحاضر تماما، والانتقال الى سرد الماضي لا عن طريق الفلاش باك – مثلا – او الانتقالات السريعة.

لقد اختار الكاتب فصل الصيف الحار اطارا لروايته من حيث الزمان وقصد ان يضع لهذا الزمان ايضا اطارا آخر استقاه من الطبيعة الصحراوية القاسية، ولقد كانت هذه الطبيعة في القرية بما فيها من رياح جنوبية، وتراب، وغبار، ودوي عنيف، وجو قاتم، ولجة دكناء، وفحيح وصفير، وصراخ مما يبعث في النفوس جوا من الهلع، ولا يدع فيها ومضة من سرور، كانت هذه الطبيعة التي تجري فيها احداث الرواية منسجمة تماما مع تلك النهاية المأساوية التي ارادها الكاتب لروايته [1] فتأثير هذا « (الجو القاتم) في النفوس لا يدع متسعا لومضة من سرور»[2] وهو يذكرنا

---

1 – انظر الفقرات المخصصة في الرواية للحديث عن ريح الجنوب، أو القبلي، ص : 7، 85، 233، 266.

2 – المصدر نفسه، ص، 85

مباشرة ببعض الاراء النقدية التي قيلت في رواية الغريب لالبير كامو، والتي ترى ان بطلها مرسو انما توصل الى قتل الجزائري بسبب تأثير الشمس المحرقة :« ونفث البحر كتلة من الهواء سميكة وحارة، وبدا كما لو كانت السماء قد فتحت بكل طولها وعرضها لكي تمطر لهبا، وتوتر كياني كله، وتقلصت يدي على المسدس، واستجاب الزناد للضغط، ولمست اصبعي بطن المسدس المصقول، وارتفع صوت جاف وحاد في الوقت نفسه، وبدأت معه المأساة وازحت العرق والشمس »[1] ومثلما ان الحيز الزماني في هذه الرواية محدد بايام معدودة من فصل الصيف، فكذلك الحيز المكاني لا يتجاوز حدود هذه القرية، وحتى على مستوى القرية فانه لا يتجاوز امكنة بعينها هي بيت ابن القاضي، وبيت العجوز رحمة، وبيت رابح الراعي، ثم مقهى الحاج قويدر، والمقبرة، واحيانا قليلة طرقات القرية او الغابة القريبة.

والمكان لدى ابن هدوقة سواء في هذه الرواية أم في غيرها، هو عادة مكان التجمع مثل البيت او الحمام او المقهى، لان طريقة الكتابة لديه تقوم عادة على إجراء الحوارات والمناقشات بين اثنين أو أكثر. والرواية لديه سردية تحكي من الخارج ولا تسمح للفرد الواحد بالحديث «النفسي» إلا نادرا. ومن هذا النادر في هذه الرواية ما نجده في بدايتها تقريبا على لسان نفسية : «حتى النوم لا استطيع ان أنام ليتني لو نمت (كدا) حتى تنقضي هذه الشهور... كل شيء هنا يحرم الخروج حتى الشمس... لكن أي فائدة في الخروج إلى الخراب أظن أن القنابل الذرية التي يتحدثون عنها لا تستطيع أن تجعل مكانا أشد خرابا من هذه القرية... الصمت، الصمت، الصمت، أكاد أجن من هذا الصمت »[2].

كما ان لغته ترتقي أحيانا إلى مستوى الشاعرية الشفافة : « وكانت منذ أن فتحت النافذة وهي تسمع أنغام ناي حزينة، متقطعة آتية من بعيد، افرغ فيها صاحبها كل ما يفيض به قلبه من حنان ووحدة وشوق، انغاما صافية عذبة كأشعة القمر » ...[3].

ومن بين الأمور الفنية الأخرى التي تلاحظ بشكل واضح في الكتابة الروائية – وخاصة في هذه الرواية – لدى ابن هدوقة اهتمامه بالوصف وتتبعه لدقائق

---

1 – البير كامو، الغريب، الدار القومية للطباعة والنشر ترجمة محمد حسن حلمي، ص، 55
ويمكن مراجعة ما قبل هذه الفقرة للتأكد من فكرة تأثير الشمس

2 – ريح الجنوب، ص، 8

3 – المصدر نفسه، 130

الأشياء، فهو يقدم القرية التي تجري فيها الاحداث من جميع جوانبها في حياتها العادية البسيطة، فيصف الاشخاص والبستهم، وخاصة الالبسة النسائية كما يصف البيت والاشياء والأواني في بعض الأحيان بدقة متناهية : « الحجرة ضيقة طولها ثلاثة أمتار وعرضها كذلك، بها كوة خارجية مطلة على جزء من البستان، ارتفاعها سبعون سنتم وعرضها خمسون سنتم، وفي هذه المساحة السرير القديم الذي تنام عليه نفيسة، وخزائنه أشد قدما منه حيث حقيبتها وأثوابها وكتبها، وقرب الكوة منضدة ومقعد خشبي »[1].

يلاحظ هنا تحديد حجم الحجرة أولا، ومساحتها ثم الدخول في وصف جزئياتها بكل دقة ابتداء من الكوة، التيتطل على البستان وتحديد ارتفاعها وعرضها بالضبط. ثم الحديث عن سرير نفيسة ووصفه بالقدم، والخزانة التي هي أشد قدما منه الخ...

إن الكاتب مغرم بهذه التفاصيل وتتبعها بشكل واضح. وهذا مثال آخر يتحدث فيه عن تحضير القهوة من قبل الحاج قويدر : «أنواع القهوة التي يطلبها زبائنه ثلاثة « قهوة موز » بها قليل جدا من السكر. وقهوة «قد قد» يتساوى فيها مثقال السكر والبن. وقهوة حلوة، يضع الحاج قويدر بالنوع الأول ملعقتين بن ونصف ملعقة سكر، وبالنوع الثاني ملعقتي بن ومثلهما سكر. وبالنوع الثالث ملعقة بن وثلاث ملاعق سكر. يأخذ البن والسكر من صندوق صغير مستطيل الشكل، ذي درجين درج للبن وآخر للسكر، صندوق صيره القدم والبن والدخان أسفح اللون، بين الحاج قويدر وزبنائه طاولة سوداء كبيرة عليها الكؤوس والفناجين والأكواب القصديرية وسطلان ماؤهما أسود من غسل الفناجين »[2].

ويخرج الكاتب أحيانا عن أسلوب الرواية تماما ليقدم في تقريرية جامدة وجافة معلومات تاريخية أو غيرها، لا تخدم كثيرا الحدث الروائي بل ربما تعرقل تطوره. «وكان عام «البون» هذا من أعوام الحرب العالمية الثانية، وعملية تقسيط بيع المواد الغذائية على السكان امتدت من حوالي 1941 إلى سنة 1949. وكانت معظم سنين الحرب سنين جذب ومجاعة فشمل ذلك التقسيط القرى والمداشر وكان لكل اسرة ورقة بها عدد أفرادها يستظهر بها صاحبها في نهاية كل شهر لدى البائع المعتمد

---

1 – المصدر نفسه، ص، 8

2 – المصدر نفسه، ص، 76

من طرف السلطة الحاكمة لشراء بعض المواد الغذائية كالدقيق والزيت والصابون والقهوة، والسكر. وكان ما يوزع على السكان من غذاء، فاسداً في معظمه. فانتشر الوباء في القرى، فكان الموت يحصد الناس حصدا »[1]. لا شك أننا نتفق جميعا على أن مثل هذا الأسلوب يصلح لكتابة مقالة، أو لكتابة التاريخ، ولكنه أبعد ما يكون عن روح القصة أو الرواية.

ان رغبة الكاتب في تقديم كل شيء يلاحظه في القرية وفي بساطة متناهية، جعلته يركز على تتبع الاشياء الصغيرة ووصفها كما جعلته هذه الرغبة يلجأ الى تقديم كل ما امكنه من معلومات عن الامور التي يعرفها، كما اهتم ايضا باحجام الاشياء وبالمساحات، والمسافات والتواريخ فنجده يذكر السنة بالضبط أو الشهر، واليوم والساعة.

وهو بكل هذا وغيره يذكرنا بأساليب الواقعية الأوربية والروسية في رواية القرن التاسع عشر عند بلزاك وتولستوي وديستويفسكي وغيرهم.

---

1 – المصدر نفسه، ص، 25

الزلزال

الواقعية الاشتراكية – قرار السلطة[1]

الطاهر وطار

رواية الزلزال هي ثاني رواية للاديب الجزائري الطاهر وطار، وإذا كان هذا الكاتب قد اتخذ موضوعا لروايته الأولى «اللاز» تلك التناقضات التي رافقت ثورة التحرير، فانه انتقل في «الزلزال» إلى زمان ما بعد الاستقلال وإلى بدايات السبعينيات بالذات ليخصص روايته لموضوع الثورة الزراعية، ولهذا فان رواية وطار تاتي هنا مؤيدة لقرار السلطة في عملها من خلال مشروع الثورة الزراعية على إعادة تقسيم الأملاك الزراعية بشكل عادل، بحيث يتم القضاء على الملكيات الكبيرة، وتوزيع أراضي الأغنياء الزائدة على الخماسين وغيرهم ممن كانوا يشتغلون في الأرض دون أن يملكوها.

ومن هنا فانه يصح القول ان من بين معاني «الزلزال» عنوان الرواية، زلزال الاقطاع، وشبه الاقطاع، وتصدع البنية الاجتماعية، مع مشروع الثورة الزراعية، كما ان من بين معانيه ايضا ذلك الاحساس بالزلزال الذي يرافق ذهن بطل الرواية من بدايتها حتى نهايتها، فهو باستمرار يدعو على هذه المدينة بالزلزال طالبا من الاولياء الصالحين – خاصة – زلزلتها وذلك بسبب انها لم تعد كما كانت، لقد تغيرت قسنطينة، وتغير كل شيء فيها، ذهب الايمان وجاء الكفر، وجاءت معه الثورة الزراعية، وما الثورة الزراعية سوى تخطيط الروس وامثالهم، كما ان رجال قسنطينة وخاصة تجارها الاصليين اختفوا ولم يبق منهم الا القليل، وهذا القليل الذي بقي تغير كثيرا، ومن هذا القليل بالباي ومطعمه «لا حول ولا قوة الا بالله، احقا هذا هو مطعم بالباي الذي عرف الإغوات والباشوات والمشائخ وكبار القوم اصحاب الارض والاغنام والجام، « يوم ترونها تدهل كل مرضعة عما ارضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى»(الزلزال ص : 23)

---

1 – اعتمدت في دراسة هذه الرواية على طبعتها الثالثة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

وحتى بالباي صاحب المطعم وصاحب المكانة لدى الجميع تغير في شكله وهيأته وجسمه الى درجة ان « عبد المجيد بولرواح لم يعرفه الا بصعوبة،» بالباي بدمه ولحمه، غير ان سواد الشعر خلفه البياض، وامتلاء البدن خلفه نتوء العظام، سبحان مغير الاحوال» (الزلزال ص : 24).

ان الجانب الاكبر والاساسي الذي يركز عليه الكاتب في هذه الرواية هو التغير، ولا بد ان الطاهر وطار الذي كان قد عاش زمانا في قسنطينة والذي عاد اليها بعد سنوات ليكتب روايته، قد استفاد من هذا الامر كثيرا، فهو في الواقع كان يلاحظ قسنطينة وما وقع عليها من تغير من خلال عيني بوالارواح، ومن خلال احساسه فالاحساس بهذا التغير وبهذا الشكل القوي لن يتأتى الا لمن عاش فعلا في المكان نفسه قبل سنوات كثيرة، واندمج فيه وتعاطف معه، وعرفه عن قرب معرفة قوية وعميقة.

لذلك فان التركيز على هذا التغيير لا يفارق صفحات الرواية من بدايتها حتى نهايتها، كل المدينة تغيرت، تغير عدد السكان، تغيرت ملامح المدينة في شكل بناياتها، ومتاجرها، ومقاهيها، ومطاعمها، تغيرت طبيعة الناس رجالا ونساء، فالتجار صاروا أكثر نهما في جمع المال : «تردد بالباي في قبول ثمن الفطور، وتردد الشيخ عبد المجيد بوالارواح في دفعه، لكن سرعان ما تدخل ابن بالباي فانتزع الورقة النقدية من يد الشيخ عبد المجيد بوالارواح مبتسما» (الزلزال ص : 23)

وعلى الرغم من ان بوالارواح يلاحظ هذا التغير من خلال نفسيته المضطربة الساخطة على كل شيء والتي تحن باستمرار الى الماضي مفضلة اياه على هذا الحاضر المتجه باصرار نحو المأساة الا ان هذا التغير، وان لم يكن بالقدر نفسه الذي يلاحظه به بوالارواح واقع فعلا : «النساء السافرات اكثر من المحتجبات بهذه الملايات السوداء، عيون النساء وخاصة الشابات والاوانس نهمة، ونظراتهن مشحونة بالفضول والتطفل، يقين ان الزواج متوقف في قسنطينة، المساكن ممتلئة، الشقة التي كانت تؤوي عائلة اضحت تؤوي عدة عائلات» (الزلزال ص 33 – 34)..

بطل الرواية اذن يتعجب باستمرار من هذه التغيرات التي طرأت على المدينة ويستنكرها لانه يراها تغيرات كلها الى أسوأ على العكس من الماضي الذي كان كل شيء فيه جميلا، حتى الماضي الفرنسي فانه لا يذكر منه سوى اناس متحضرين،

وغادات جميلات فرنسيات واسرائيليات وورود ونظافة الخ... وعلى العموم فان قسنطينة من خلال هذه الرواية هي مدينة المتناقضات، واحد يموت، وواحد يعشق، وواحد يربح، والاخر يلعب الخ...

صورة بطل الرواية عبد المجيد بوالارواح :

لابد انه اتضح من خلال الفقرات السابقة ان الشخصية الرئيسية التي تستحوذ على البطولة في هذه الرواية هي شخصية عبد المجيد بوالارواح، فهو الخيط الذي يربط بين جميع احداث الرواية وبقية شخصوها، فأحداث الرواية تمر وتنتهي، والشخوص الاخرون قد يذكر بعضهم في فقرة او صفحة او اكثر، قد يعاد ذكر بعضهم وقد لا يعاد الا ان أهميتهم جميعا تضل ضئيلة الى جانب اهمية عبد المجيد بوالارواح الذي تبدأ الرواية وتنتهي به، فالزلزال اذن بهذا المفهوم هي رواية الشخصية الوحيدة المتفردة.

ولهذا فاننا عندما نركز هنا على شخصية بوالارواح فذلك لان هذه الشخصية هي الرواية نفسها.

قبل الدخول في التفاصيل المختلفة لتحديد صفات البطل نشير الى ان لعبد المجيد بوالارواح في هذه الرواية عالمه الخاص وهو لا يحاول الدخول الى عالم الاخر، او يحاول فهمه، هو لا يحاول فهم عالم النقابات والطلبة والحزب والاتحادات المختلفة الخ...

إن بوالأرواح لا يناقش الاخر او حتى يتحدث اليه الا من داخل نفسه، ولذلك فان الرواية كلها منلوج اي حديث الداخل، حديث الشخصية الى نفسها، اما الديالوج فيها فهو مفقود، وذلك لان الاخر بالنسبة الى البطل مرفوض مسبقا، الاخر هو العالم المتخلف، هو الكافر، هو الخارج عن القانون الخ... لذلك فان هذا الآخر غير قابل للتحاور... في احدى الفقرات الصغيرة يقدم الكاتب بطل روايته بشكل مركز : «أنا عبد المجيد بوالارواح، عم الطاهر صهرك، مدير ثانوية بالجزائر العاصمة، عالم في الدين والنحو والصرف» (الزلزال ص : 105)

ففي هذه الفقرة الصغيرة نتعرف على اسم البطل، وعلى عمله وثقافته. الا ان هذه الجمل القصيرة اذا كانت كافية لكي تعرفنا على اسم البطل ومهنته فانها بدون شك ستظل بعيدة عن اداء مهمة تعريفنا بثقافته.

وذلك لان ثقافة بوالارواح هي المكون الحقيقي لشخصيته اي ان هنالك اسنجاما كاملا بين هذه الشخصية وانتمائها الطبقي، فمجموع جوانب ثقافه بوالارواح يزيدنا وضوحا وتعرفا على شخصيته :«قرأنا العلم الشريف، وجالسنا العلماء، وكافحنا مع الشيخ بن باديس تغمده الله برحمته الواسعة، وتفقهنا في المذاهب الاربعة، ولم نعثر على هذا المنكر، لا... الشيء لمن يملكه، والتمليك وارد في القرآن الكريم» (الزلزال ص : 13).

قد يبدو للوهلة الاولى ان الشيخ بوالارواح باديسي وهذا ادعاء كثيرا ما نعثر عليه لدى هؤلاء الذين درسوا على ابن باديس في هذه الفترة او جالسوه قليلا او كثيرا، او درسوا على بعض تلاميذه او جالسوهم، ولكننا سنعرف فيما بعد ان ثقافة بوالارواح سلفية هذا صحيح، الا انها ليست باديسية خالصة، يقول بوالارواح «في الحق كان غريبا عنا، رغم الحماس الذي كنا نحيطه به، كان نهرا ممتلئا يسير بكل جوانبه نحو المصب، وكنا ...

لم يشأ أن يواصل الاقرار بما بدا له أنه الحقيقة تتكثف (كدا) من خلال حيوية صورة ابن باديس، واكتفى بالاعلان : لو عاش لكان لنا معه شأن، انما الدين هو الدين، وليس شيئا آخر، الدين الاخلاص للسلف، وكل بدعة ضلال» (الزلزال ص : 17–18).

فالطبقة الاقطاعية اذن تنظر الى الدين حسبما يخدم مصالحها، وابن باديس نفسه لو عاش لحاربه هولاء الذين كانوا يحيطون به ما دامت افكاره تقف ضدهم وضد مصالحهم

وعبد المجيد بوالارواح بعد هذا يحسن استخدام ثقافته في الدفاع عن مصالحه، وثقافته المستخدمة دائما دينية، ونحن نعثر على مثل هذه الاستخدامات للثقافة الدينية في كامل الرواية : «عليهم اللعنة في الليل اذا يغشى، والنهار اذا تجلى ان كانوا يعرفون معنى للعدالة، هم الذين يخططون للاستيلاء على اراضي الناس »(الزلزال ص : 51).

وهو بالاضافة الى استخدامه للمصادر الاصلية للدين في تأييد افكاره، واصباغ الشرعية عليها ولو بطرق ملتوية، فانه كثيرا ما يلجأ الى الاولياء الصالحين ، سيدي راشد وغيره، داعيا اياهم ان يحققوا ما في نفسه بصفتهم اولياء المدينة الصالحين، الذين يجب ان يحافظوا على سمعتها ومكانتها ونقاوتها، فهو كثيرا ما يدعو سيدي

راشد، لكي ينتقم من هؤلاء البدو الذين ملأوا المدينة. كما يخاطب سيدي مسيد : «ابدأ من هناك من الاسفل حيث لا يزال الزحف يتواصل ثم اصعد الى قلبها وطهره يا سيدي مسيد ولا تدعهم يخربون المدن لينطلقوا نحو البوادي سلط الخصي على رجالهم، والعقم على نسائهم، حتى ينقرض نسلهم، ولا يمكث الا النسل الصالح» (الزلزال ص : 47)

واضح هنا ان بوالارواح يعني.اولئك الفلاحين والفقراء القادمين من الارياف الذين «اقاموا في كل شبر من المدينة الحياة التي كانوا يحيونها في قراهم وبواديهم، لقد اسسوا في كل ركن من قسنطينة قرية او دشرة» (الزلزال ص : 54). وبوالارواح بعد هذا لا يميز، او هو لا يريد ولا يهمه ان يميز بين الدين الصحيح، والدين المزيف، بين الحقيقة الدينية وبين الخرافة ما دامت الخرافة ايضا تخدم مصالحه : في داخل سيد راشد : «لفت انتباهه صورة رأس الغول على حصانه، وسيف السيد علي يشقهما ويقطعهما الى جزأين قرن حاجبيه في استنكار. ثم انفرجت اساريره، لا تفاصيل في الدين»(الزلزال، ص : 131).

ويؤكد بوالارواح مرة اخرى انه كان في حقيقة الامر مع ابن باديس على طرفي نقيض : «كنت ولا تزال ترى، ان كل ما يربط العامة بالله جائز شرعا، حتى ولو كان عبادة الاوثان. لم تجاهر برأيك، ولكنك كنت شديد الايمان به» (الزلزال ص : 130). ويصل الامر احيانا ببطل الرواية حد السذاجة، فهو مثلا عندما يصل الى سيدي راشد، يصلي له ركعتين ويحكي له عن المهمة التي جاء قسنطينة من أجلها كما يحكي له عن اقاربه الخ... وحديثه وشكواه الى سيدي راشد يشبه الى حد بعيد طريقة الاعتراف في الكنيسة لدى المسيحيين.

لقد بنيت شخصية بوالارواح من جميع جوانبها بشكل منسجم ومتكامل، فاذا كان هذا الرجل سلفيا من الناحية الثقافية، واذا كان اقطاعيا بالنسبة الى الجانب الطبقي، فانه في نظرته الى الحياة دائم البكاء على الماضي الذي يرتبط لديه دائما بالجميل، حتى ماضي الاستعمار الفرنسي لا يذكر منه سوى اناس متحضرين، وغادات فرنسيات واسرائيليات، وورود ونظافة، الخ. اما المستقبل لديه فانه مرتبط بالحاضر فما دام الحاضر غامضا بهذا الشكل، وما دام كل شيء فيه لا يرضي، وغير طبيعي، وكل شيء فيه يدعو للاستنكار فان المستقبل بدوره لن يكون الا بشعا، وعلى العموم فان بوالارواح لا يرى الحل سوى في زلزال يقلب سافل المدينة على عاليها...

وموقف بوالارواح من الاشتركية واضح، فهو نابع اولا من طبقيته، فهذه التي تسمى «الثورة الزراعية» ما جاءت الا لكي تأخذ منه املاكه، وتنزله من طبقته المتميزة الى طبقة بقية الشعب، او ترفع بقية الشعب الى مستواه ومن ثم يتساوى الجميع، ولذلك فانه يحارب هذه «الاشتراكية» بكل الوسائل والامكانيات، وقد قدم الى قسنطينة لكي يكتب املاكه الواسعة لاقاربه حتى تتوزع بينهم ريثما تمر «حملة» الثورة الزراعية، فيعرف كيف يستردها، وهو الداهية الذي لا تخفى عنه خافية.

كما ان موقفه هذا نابع من ثقافته السلفية التي لا تعترف – حسب ما يعرف – بالاشتراكية، وهو يسمي هذه الحكومة التي تطبق الاشتراكية «حكومة الكفار الملحدين» (الزلزال ص : 26).

ويتضح موقفه اكثر من الاشتراكية، وبالذات من الثورة الزراعية التي تمسه هو بالخصوص في حواره مع أحد معارفه القدماء، وهو بالباي :

«– هناك مشروع الحادي خطير، يهيأ في الخفاء

– تقول ! ؟

– نعم ينتزعون الارض من أصحابها

– ينتزعون الارض من اصحابها ؟

– استمع الي، يؤممونها

– وماذا يفعلون بها ؟

– مثلما فعلوا بالاراضي التي خلفها الفرنسيون، تصور الحقد، الحسد... كل اناء بما فيه يرشح » (الزلزال ص : 31)،

والاشتراكية بعد هذا، في رأي عبد المجيد بوالارواح ليست نابعة من الواقع الجزائري ولكنها قادمة ومستوردة من الخارج، «الشياطين، الملاعين، يخطط لهم الروس بأدمغة الكترونية، ينقلون عنهم خططهم حرفا حرفا»(الزلزال ص : 101).

هو يستعمل ثقافته كلها اذن، يعود الى الكتاب والسنة واراء السلف الصالح، بحثا عن الاشتراكية، فلا يجد لها أثرا، ألم يخلق الله الغني والفقير، الم يقل سبحانه وتعالى :«وفضلنا بعضكم على بعض درجات..» الخ.

ثم ان زوجة بوالارواح الثانية كانت تخونه مع ابن عمها، وعندما شعرت بالحمل هجرته الى فرنسا لانها كانت تعرف ان من في بطنها ليس ابنه هو انما ابن الاخر، فهو عاقر لا يلد.

ثم يأخذ من احد الخماسين زوجته وابنته معا، يعيش مع الزوجة مدة، ويتزوج البنت بعد ان يقتل امها بالطريقة نفسها التي قتل بها ابوه زوجته هو وغيرها. ولكنه يقتل ايضا ابنة الخماس بعدما يشك بانها تخونه مع غيره لتعطيه طفلا ... ومثلما تزوج ابوه يهودية، تزوج هو ايضا يهودية غنية عاقرا مثله تماما، عاشا سنوات من السعادة ثم افترقا بعد اختلافهما في موضوع التبني ومن يجب ان يتبنيا، مسلما أم يهوديا.

انها مجزرة اذن، تسعة ما بين الموتى والقتلى، اما عدد المرات التي تزوج فيها كل من بوالارواح وابيه فهي اكثر من ذلك، أليست هذه لعنة تلاحق عائلة بوالارواح، وتذكرنا بما نعثر عليه في بعض الحكايات والاساطير القديمة من تلك اللعنات التي تلاحق اسرا معينة او افرادا معينين، فلا مجال للهروب منها، وما على الافراد الذين تلاحقهم الا ان يتركوا يد القدر تنفذ فيهم حكمها دون مقاومة.

فاللعنة في هذه الرواية تسري في دم بوالارواح وابيه، انهما ليسا شخصين عاديين انهما نوع من الجنون، من القوة الجبارة اللعينة... «انا الشيخ بوالارواح زواجي هذا بكما هو الخامس، انا ربكما الاعلى ما ابيحه مباح، وما احرمه حرام، تعريا، امتثلتا.»

أنتما رغبة واحدة، انا صاحب الرغبة المطلقة، ناما. امتثلتا. انا بوالارواح، وانتما النقيضان المنسجمان بحكم ارادتي (الزلزال ص:20).

لقد عمل وطار على ان يجمع في بطله كل الصفات السيئة، وكما مر بنا سابقا فان من بين هذه الصفات ما هو وراثي ومنها ما هو مكتسب ومن ذلك مثلا صفة البخل الشديد لدى بوالارواح.

والبخل كما هو معروف صفة كثيرا ما يلجأ اليها الكتاب والمؤلفون منذ أقدم العصور حتى الان لكي يلصقوها باحدى شخصياتهم، وتكون هذه الشخصية عادة شخصية غنية، فمع وجود الغنى يصبح للبخل معنى، اما الذي لا يملك فلا لوم عليه في بخله.

ولقد قدم هؤلاء الادباء والكتاب نماذج غاية في الروعة، ومن بين ذلك مثلا، بخلاء الجاحظ في الادب العربي القديم، وبعض شخصيات رواية الارواح الميتة للكاتب الروسي المعروف غوغول، وكذلك بخيل موليير، وشخصية السيد غرانده في رواية بلزاك «او جيني غرانده» وغير هذه الشخصيات كثير وكثير الى درجة اننا لا نكاد نجد ادبا من الاداب، او عصرا من العصور الادبية يخلو من شخصية طريفة مضحكة في مجال البخل والتقتير.

وكثيرا ما يتعمق الادباء، وخاصة الروائيون النفسية الانسانية عن طريق تصوير صفة البخل لدى شخوصهم، فيتوصلون بذلك الى ابراز جوانب اغوار هذه النفسية المظلمة الى درجة ان البخل يتحول لديها احيانا الى نوع من المرض النفسي الذي لا يمكن ابدا التخلص منه.

وعلى كل فان تصوير البخل لدى بو الارواح جاء عبارة عن لقطات من هنا وهناك، وامثلة عن بخل هذا الرجل، الا انها جميعا منسجمة مع شخصيته تزيدها وضوحا ونمذجة.

فعندما اقتربت منه امرأة متسولة وهو يدخل المسجد للصلاة رد عليها: «اسحبي يدك يا امرأة لا حول ولا قوة الا بالله، المصيبة المصائب، من اين خرجوا. لماذا لا تعودون الى قراكم ودواويركم» (الزلزال ص: 16).

وعندما هزته مرة حمية السخاء والكرم، وقرر ان يتصدق على طفلة متسولة، اضطر ان يسرحها بعبارة «الله ينوب» وهو يعيد النقود الى جيبه، بعد ان بحث عن «دورو» بينها ولم يجد سوى قطعة العشرين والعشرة والأربعة» (الزلزال ص 20–21).

وعندما اراد ان يضع قائمة للاقارب الذين يجب الاتصال بهم لتسجيل الارض باسمائهم حتى لا تؤمم: «اخرج القلم وكناشة، قلب اكثر من ثلثي صفحاته الصغيرة، حتى عثر على نصف ورقة غير مسودة» (الزلزال ص 58).

وعندما ذهب مرة عند احد معارفه هو الشيخ ايدير يقترض منه مقدارا من المال بنسبة عشرة في المائة من الربح، وتساءل الشيخ ايدير عن مصير امواله رد بو الارواح: «الحق يا عمي ايدير، انني، قرضتها بعشرين في المائة» (الزلزال، ص: 76).

وعندما كان خارجا من زيارة سيدي راشد، وتساءلت العجوز التي فتحت له الباب عن «الزيارة» رد عليها: «وعدت، سأعود عندما يقضي سيدي راشد حاجتي» (الزلزال، ص: 134).

ان بوالارواح اذن منسجم كامل الانسجام مع نفسه ، مع طبقيته، مع وضعه الاجتماعي، وهو لذلك كله قد خلق شخصيته المتميزة واراءه الخاصة، والتي يؤمن بها كل الايمان، دون ان يطرحها حتى للمناقشة، فهي مسلمات، لا تجوز مناقشتها، ومن ثم وكما ذكرنا في السابق، فان الاخر بالنسبة اليه غير موجود، الموجود فقط هو عبد المجيد بوالارواح، واذا كان قد وصل الى الازمة الشديدة التي هو فيها دون حتى ان يتنبه الى ذلك في الوقت المناسب لكي يحتاط للامر فلأن العالم قد فسد، ولأن الزلزال آت لا ريب فيه ولانه هو المخلص وحده من هذا الوضع، ولكي تكتمل صورة بوالارواح من كل نواحيها، فان وطار لم يقدم لنا بطله – فقط – بصفته اقطاعيا او بصفته سلفي الثقافة، ولكنه عمل على تقديم شخصية اشكالية ذات جوانب متعددة، شخصية تجمع ما بين صفات المكانة والاهمية في المجتمع كالغنى والثقافة من جهة، وبين الصفات الذاتية والوراثية الخاصة، والتي يمكن ان نرجعها الى القدر، كالعقم الذي زاد من تعقيد شخصيته، فهو يفكر باستمرار الا وارث يرث املاكه الواسعة.

ثم ان وطار يشاء الا ان يلجأ الى مفهوم الوراثة كما جاء عند الطبيعيين الغربيين، إميل زولا وغيره، لكي يجعل اللعنة المتمثلة في خيانة الوطن، والعلاقة غير العادية مع المرأة لعنة متوارثة في اسرة بوالارواح أبا عن جد، فقد حكى جد عبد المجيد بوالارواح «قال ابي لمكافحي القبيلة : بدل ان ندافع نهجم، لكن إياكم ان تبدأوا بالضرب قبل ان اعطيكم الاشارة، ارسل ابي الى الفرنسيين يعلمهم : أعطيكم المكافحين واعطوني الباقي... دخل الفرنسيون المنطقة، قتلوا كل قادر على حمل السلاح، وحبلوا النساء، وعلقوا لابي النياشين واعلنوه زعيما، واعطوه ارضا كبيرة، كل الارض» (الزلزال ص : 172).

ويحكي بوالارواح عن ابيه فيقول : « ابي لم يبلغ عظمة ابيه وجده لكن كان عظيما، حافظ على ارض ابيه، وعلى بعض النياشين في صدره، وعندما عاد من حرب الشام، البسوه برنسا أحمر، ونصبوه «قايدا» وبقي الوحيد الذي يملك ارضا وسط المعمرين»(الزلزال ص : 173).

اذا كانت هذه صورة عائلة بوالارواح من اجداده الى ابيه، وهي كما رأينا صورة الخيانة المتوارثة، فان صورته هو بدوره لا تشرف، ويكفي ان نعرف انه انعزل تماما عن أقاربه جميعا، منذ الحرب بحيث عاش سنوات في تونس والباقي في العاصمة

الى درجة انه لم يعرف شيئا عن هؤلاء الاقارب، لا يعرف من توفي منهم ومن ما زال حيا، ولا من دخل جيش التحرير مجاهدا، او من صار «حركيا» في صف الاستعمار.

لقد كان انانيا منذ البداية، وكان يتعامل مع هؤلاء، الاقارب بحسب مصالحه فقط وبناء على ما يستفيده منهم، ولذلك فان عبد المجيد بوالارواح لا يختلف عن ابيه وعن اجداده، وما يؤكد اكثر اللعنة المتوارثة في هذه العائلة علاقة افرادها بالمرأة، وعلى الرغم من ان الكاتب يركز في هذا المجال، على بوالارواح وابيه، فانه يفهم ضمنيا ان سابقيهما لم يكونوا يختلفون عنهما :« زوجة ابي الصغرى، قالت كلاما فضيعا، ابوك قتلها، خنق انفاسها، ترك زوجاته الاربع، وطلبها لغسل قدميه، اغلق الباب خلفها وانفرد بها، في صباح الغد وجدناها ميتة، وجدنا الدم في قميصها (الزلزال ص 174–175).

ويتواصل شلال الدم وتتواصل المأساوية :«زوجة ابي الصغرى كانت في السادسة عشرة، راودتني عن نفسها. وماتعت ومانعت، ثم انسقت معها» (الزلزال. ص : 175).

«زوجة اخي ايضا ماتت نفس موتة عائشة » (الزلزال ص : 175). وتحكي أم بوالارواح لابنها : «ابوك رحمه الله هجرنا في الاخير نحن الاربعة (كدا) وتزوج يهودية في قسنطينة» (الزلزال ص : 177).

كما يحكي هو عن نفسه :« زوجة ابي الثانية كانت تقول عني : رأس البومة، وجه النحس، منذ برز الى الحياة برزت معه الالام، كل مولود في البيت يموت، كل زوجة يتزوج عليها اكل رأس زوجته ورأس اخيه، ورأس زوجة اخيه، ثم ها هو ياكل راس ابيه... خراب بيت بوالارواح سيكون على يده » (الزلزال ص:178).

ويميل الكاتب احيانا الى خلق نوع من الاسطورة، أواللجوء إلى أسلوب الواقعية السحرية في تصوير تتابع الاحداث، فهذه ام بوالارواح تجده مرة مع زوجة ابيه الاخيرة، والتي يقتلها بعد ذلك بالطريقة نفسها التي قتل بها ابوه زوجته الاخري، ثم يضيف البطل الراوي : «دفناها... بعد سبعة ايام ماتت امي... بعد سبعة ايام اخرى هربت زوجة ابي الثانية... بعد سبعة ايام اخرى دفنت زوجة ابي الثالثة»(الزلزال ص : 179).

ثم ان زوجة بوالارواح الثانية كانت تخونه مع ابن عمها، وعندما شعرت بالحمل هجرته الى فرنسا لانها كانت تعرف ان من في بطنها ليس ابنه هو انما ابن الاخر، فهو عاقر لا يلد.

ثم يأخذ من احد الخماسين زوجته وابنته معا، يعيش مع الزوجة مدة، ويتزوج البنت بعد ان يقتل امها بالطريقة نفسها التي قتل بها ابوه زوجته هو وغيرها. ولكنه يقتل ايضا ابنة الخماس بعدما يشك بانها تخونه مع غيره لتعطيه طفلا ... ومثلما تزوج ابوه يهودية، تزوج هو ايضا يهودية غنية عاقرا مثله تماما، عاشا سنوات من السعادة ثم افترقا بعد اختلافهما في موضوع التبني ومن يجب ان يتبنيا، مسلما أم يهوديا.

انها مجزرة اذن، تسعة ما بين الموتى والقتلى، اما عدد المرات التي تزوج فيها كل من بوالارواح وابيه فهي اكثر من ذلك، أليست هذه لعنة تلاحق عائلة بوالارواح، وتذكرنا بما نعثر عليه في بعض الحكايات والاساطير القديمة من تلك اللعنات التي تلاحق اسرا معينة او افرادا معينين، فلا مجال للهروب منها، وما على الافراد الذين تلاحقهم الا ان يتركوا يد القدر تنفذ فيهم حكمها دون مقاومة.

فاللعنة في هذه الرواية تسري في دم بوالارواح وابيه، انهما ليسا شخصين عاديين انهما نوع من الجنون، من القوة الجبارة اللعينة... «انا الشيخ بوالارواح زواجي هذا بكما هو الخامس، انا ربكما الاعلى ما ابيحه مباح، وما احرمه حرام، تعريا، امتثلتا.»

أنتما رغبة واحدة، انا صاحب الرغبة المطلقة، ناما. امتثلتا. انا بوالارواح، وانتما النقيضان المنسجمان بحكم ارادتي (الزلزال ص :20).

لقد عمل وطار على ان يجمع في بطله كل الصفات السيئة، وكما مر بنا سابقا فان من بين هذه الصفات ما هو وراثي ومنها ما هو مكتسب ومن ذلك مثلا صفة البخل الشديد لدى بوالارواح.

والبخل كما هو معروف صفة كثيرا ما يلجأ اليها الكتاب والمؤلفون منذ أقدم العصور حتى الان لكي يلصقوها باحدى شخصياتهم، وتكون هذه الشخصية عادة شخصية غنية، فمع وجود الغنى يصبح للبخل معنى، اما الذي لا يملك فلا لوم عليه في بخله.

ولقد قدم هؤلاء الادباء والكتاب نماذج غاية في الروعة، ومن بين ذلك مثلا، بخلاء الجاحظ في الادب العربي القديم، وبعض شخصيات رواية الارواح الميتة للكاتب الروسي المعروف غوغول، وكذلك بخيل موليير، وشخصية السيد غرانده في رواية بلزاك «او جيني غرانده» وغير هذه الشخصيات كثير وكثير الى درجة اننا لا نكاد نجد ادبا من الاداب، او عصرا من العصور الادبية يخلو من شخصية طريفة مضحكة في مجال البخل والتقتير.

وكثيرا ما يتعمق الادباء، وخاصة الروائيون النفسية الانسانية عن طريق تصوير صفة البخل لدى شخوصهم، فيتوصلون بذلك الى ابراز جوانب اغوار هذه النفسية المظلمة الى درجة ان البخل يتحول لديها احيانا الى نوع من المرض النفسي الذي لا يمكن ابدا التخلص منه.

وعلى كل فان تصوير البخل لدى بوالارواح جاء عبارة عن لقطات من هنا وهناك، وامثلة عن بخل هذا الرجل، الا انها جميعا منسجمة مع شخصيته تزيدها وضوحا ونمذجة.

فعندما اقتربت منه امرأة متسولة وهو يدخل المسجد للصلاة رد عليها: «اسحبي يدك يا امرأة لا حول ولا قوة الا بالله، المصيبة المصائب، من اين خرجوا. لماذا لا تعودون الى قراكم ودواويركم» (الزلزال ص: 16).

وعندما هزته مرة حمية السخاء والكرم، وقرر ان يتصدق على طفلة متسولة، اضطر ان يسرحها بعبارة «الله ينوب» وهو يعيد النقود الى جيبه، بعد ان بحث عن «دورو» بينها ولم يجد سوى قطعة العشرين والعشرة والأربعة» (الزلزال ص 20–21).

وعندما اراد ان يضع قائمة للاقارب الذين يجب الاتصال بهم لتسجيل الارض باسمائهم حتى لا تؤمم: «اخرج القلم وكناشة، قلب اكثر من ثلثي صفحاته الصغيرة، حتى عثر على نصف ورقة غير مسودة» (الزلزال ص 58).

وعندما ذهب مرة عند احد معارفه هو الشيخ ايدير يقترض منه مقدارا من المال بنسبة عشرة في المائة من الربح، وتساءل الشيخ ايدير عن مصير امواله رد بوالارواح: «الحق يا عمي ايدير، انني، قرضتها بعشرين في المائة» (الزلزال، ص: 76).

وعندما كان خارجا من زيارة سيدي راشد، وتساءلت العجوز التي فتحت له الباب عن «الزيارة» رد عليها: «وعدت، سأعود عندما يقضي سيدي راشد حاجتي» (الزلزال، ص: 134).

وعندما يحكي عن احد اقاربه وهو عيسى ابن خالته يقول : «ان امه ماتت عندي، وانني اقمت لها مأتما محترما، تلقيت بمناسبته عدة دبائح، وعشرات الارطال من السكر والزيت وغير ذلك» (الزلزال ص : 117).

وعندما يتذكر موقفه مع عمار الذي قصده قبل تسع عشرة سنة ليقترض منه عشرة الاف فرنك والذي طرده شر طرد يعود ليحدث نفسه بانه لو قصده الان لاعطاه خمسين دينارا هبة منه، وتكفيرا عن موقفه الاول معه.

هذه لقطات فقط من صور البخل لدى بوالارواح، والامثلة على ذلك كثيرة متعددة في هذه الرواية.

والبخل هنا ما هو سوى صفة من تلك الصفات السيئة التي تزيد صورة بطل الرواية تشوها.

وترتبط بصفة البخل هذه بشكل واضح طريقة تعامل بوالارواح مع اقاربه، وعلاقته بهم، هذه العلاقة التي تنبني قبل اي شيء اخر على المصلحية والانانية لدى بوالارواح، فهؤلاء، الأقارب جميعا نسيهم بوالارواح تماما لسنوات كثيرة، فقد كانوا هم من طبقة الشعب، بينما كان هو من طبقة الاعيان، كانوا اذا قصدوه انما يقصدونه للاستعانة به. ولذلك كان من جهته، اما يتهرب منهم، او يتعامل معهم بحسب استفادته منهم.

وها هو الان، وبعد تسع عشرة سنة من غيابه عنهم، بعد ثورة كبرى غيرت وجه الواقع، ها هو يحاول العودة الى اقاربه وهو لا يحاول العودة اليهم لمجرد زيارتهم وتجديد العلاقة بهم مع العلم ان هذه العلاقة – وكما ذكرنا سابقا – لم تكن حسنة من قبل، ولكنه يحاول هذه العودة بسبب مصلحته دائما. فالثورة الزراعية على ابواب التطبيق، وهي تهدد ثلاثة الاف هكتار من اراضيه، ولذلك فقد اوحت له عبقريته المصلحية التجارية بانه يمكن ان يستعين باقاربه، فيسجل اراضيه باسمائهم ريثما تمر حملة الثورة الزراعية هذه فيستردها منهم مجددا، فلا اهمية للاخرين اذن سواء أكانوا أقارب ام غير اقارب الا في استفادته منهم.

وتزداد صورة عبد المجيد بوالارواح وضوحا في عملية بحثة عن اقاربه، وتفكيره فيهم وفي التحولات التي طرأت عليهم، اللص الضائع الذي تحول الى مجاهد وضابط في الجيش، الحلاق الذي تحول الى استاذ في التعليم الثانوي،

الدرويش المنعزل الذي تحول الى نقابي، الخ.. الخ... كل هذه التحولات، والتطورات، تثير اعصاب عبد المجيد بوالارواح وتكاد تفقده عقله. مما يؤكد انه كان عبر السنوات الماضية كلها منعزلا على نفسه بعيدا عن الواقع وعن الناس كما يؤكد هذا كله بان ثقافته وكونه عالما في النحو وفي الدين، كل ذلك لم يسعفه أو يساعده لكي يراقب تطور التاريخ.

انه اذن حكم من الكاتب على انتهاء هذه الطبقة الاقطاعية فكريا كما انتهت ماديا وتجاوز الاحداث والزمان لها دون أن تشعر، ولعل عقم بوالارواح رمز لعقم هذه الطبقة كلها وانتهاء فاعليتها ودورها.

تحدثنا سابقا عن غنى بوالارواح، وعن وراثته للاقطاع مما جعله ينتمي الى الطبقة المتميزة في المجتمع، ونريد في الفقرات التالية ان نقف قليلا عند تفكيره الطبقي، كيف ينظر الى الطبقات ما هي الطبقة التي ينتصر لها بكل جوارحه، وما هي نظرته الى الطبقة الأخرى، طبقة البسطاء.. يقول بولارواح :"التجار بما فيهم الخونة والمفلسون معنا، مع السلف، الشعب الحقيقي هو هؤلاء، وليس العمال والخماسة والرعاة»، (الزلزال. ص : 26).

نلاحظ في هذه الفقرة الصغيرة بالذات موقفه المضاد للفئة التي جاءت الثورة الزراعية تنتصر لها ولافرادها، فموقفه واضح مباشر لا مراوغة فيه ولا سرية أو ما شابه ذلك، وهو في موضع آخر من الرواية يرى ضرورة الفصل بين الأحياء « هنا يجب ان يقام جدار كجدار برلين، ليؤكد شخصية كل جهة » (الزلزال . ص : 48)

وهو كما مر ذكره في احدى الفقرات السابقة لا يؤمن بالتطور ، فالفقير يجب ان يظل فقيرا، والغني يبقى غنيا، يعلق مرة على احد الحلاقين وقد لاحظ انه يشتغل في صالون جميل :« ربما كان يحلق في زقاق من الأزقة على صندوق، هنا في المدينة أو في أية قرية أخرى، واثر طرفة عين وجد نفسه في صالون حلاقة جاهز، كامل التأثيث » (الزلزال، ص : 87)

ويتحدث بوالارواح في نفسه عن صاحب المقهى وهو صهر الطاهر ابن أخيه : « ان كان تاجرا حرا، فلابد أنه يكره الحكومة. وما تحدثت قط مع تاجر الا ووجدته يحقد على الحكومة. التجار الحقيقيون طبعا، اصحاب رؤوس الأموال الكبيرة المحترمة، لا اولئك المفلسون من نوع بالباي ونينو » وهكذا يفكر بو الأرواح بأنه يجب ان يكون هناك اتفاق كامل بين الاقطاعيين اصحاب الأراضي الواسعة والتجار

اصحاب الأموال في المدينة ضد هؤلاء الرعاع من حثالة الشعب كالخماسين، والعمال والرعاة ومن قاربهم في الأهمية والطبقة وهو يتساءل في كثير من الغيظ « لماذا لا يتكاثر هذا الشعب ما دام يأكل ويشرب، ولا يعمل شيئا واذا ما مرض يعالج بثمن زهيد، يسرقون من الأغنياء ويبذرون على الحفاة العراة الرعاة » (الزلزال، ص : 74)

كما انه يستنكر الجمع في مؤسسة تعليمية واحدة بين ابناء الطبقتين : « ما سيكون دور من يتمكن من هذا الحي من دخول الثانوية او الجامعة، انهم بهذا يخربون الدين والاجيال، يجمعون بين ابناء الأغنياء والفقراء في ثانوية او جامعة واحدة ويعطونهم معلومات واحدة، انهم يناقضون ارادة الله ويقفون عرضة لها » (الزلزال، ص 157)

واذا كان بوالأرواح واضح الطبقية، وهو لذلك يشيد باستمرار بطبقة الأغنياء أصحاب التجارة والاموال والأراضي اي ببورجوازيي المدينة وبالإقطاعيين فإنه غير مطمئن كل الاطمئنان لبعض بورجوازيي المدينة الذين ربما يكونون قد اغتنوا مؤخرا فقط اي انهم ليسوا أصلاء في الغنى، كما انه دائم البكاء والتأسف والحزن على اصحاب الجاه من الأغنياء القدامى، وهؤلاء هم الذين يمثلون – في نظره – النقاء البرجوازي والصفوة الممتازة من اصحاب المكانة في المجتمع، وهؤلاء هم الذين يعتبر نفسه منتميا اليهم. في مقصورة مطعم بالباي : « قابلته صورة ضخمة في اطار مذهب، فتناهض وتقدم يتفحصها، بالباي في ايام عزته وعظمته محاطا بجماعة من كبار ولاية قسنطينة الكبرى، باشا غاوات واغاوات، وقياد، ونواب وموظفين سامين... أنوار ثرية ضخمة تتلألأ، منعكسة على ملاعق الفضة... كؤوس البلور.. ومزهريات النحاس » (الزلزال. ص : 27)

تغير الواقع اذن بشكل واضح فاعتلى الذين كانوا في الاسفل ونزل الاعلون، وهذا هو الزلزال الحقيقي، يقول بالباي : « يوم استغنيت عن العمال، وشمرت عن نراعي أوصل لقمة الى غيري، لأتمكن من بعد ذلك من ايصالها الى فمي، والى أفواه ابنائي واحفادي انتهى احساسي بالزلزال » (الزلزال، ص : 30)

ويعقب بوالارواح على قول صديقه القديم « أدركت شيئا من ذلك. فليس هناك تاجر، ولا صاحب مال راضيا عن نفسه أو عن غيره أو عن الوضع بصفة عامة، الناس في تبرم الشعب، الشعب الحقيقي في اختناق كبير » (الزلزال، ص 30)

الزلزال اذن تم وانتهى الامر، بل ان بالباي يعود بذاكرته الى الماضي زمان الثورة التحريرية ليؤكد ان الزلزال قد بدأ آنذاك : « انا ياسي عبد المجيد بوالارواح احسست بالزلزال يوم كان الرعاة والحفاة والعراة يدخلون من الريف والقرى ليقتلوا الاسياد هنا ويخرجوا... ايه كم آغا وكم باش آغا، وكم قائدا، وكم ضابطا مات على يد راعي اغنام أو خماس أو حطاب، وفحام اما المطعم». (الزلزال. ص : 26)

وهذا في الواقع ما هو الا حنين للعهد الفرنسي، وبوالارواح نفسه كثيرا ما يفكر بان زمان فرنسا كان افضل ثم « استغفر الله، اللعنة على ابليس، بدأت الهواجس تدخل قلبي، الكفاح كفاح، الاستقلال استقلال، الاستعمار استعمار، الحكم حكم، اما التخريب، والكفر والالحاد فمسائل أخرى » (الزلزال ص :42)

فهذه الطبقة خلقها الاستعمار، وكان من الطبيعي ان يظل حنينها اليه قويا.

فمثلما اصبح بوالارواح مهددا في املاكه الواسعة، فكذلك كانت قد تغيرت احوال صديقه بالباي الى اسوأ، كما مر ذكره. وكذلك تغيرت احوال نينو احد معارفه الذي كان يقصده اصحاب القضايا في عهد ازدهاره والتي كان يربحها دائما، اما اليوم فها هو المسكين « يدلل في السباط ببرنس قديم، وجبة ملبوسة ومذياع صغير وسلسلة ذهبية رقيقة » (الزلزال. ص : 89)

واضح مما سبق ان الطاهر وطار كان يريد ان يشير الى ان طبقة الاقطاع والبرجوازية القديمة قد انتهى زمانها وتفتتت اواصرها، وان كنت اعتقد ان في هذا بعض المبالغة، فاذا كان صحيحا القول بان اصحاب الاراضي قد تأثروا بمشروع الثورة الزواعية، فان برجوازيي المدينة، لم يمسهم، في الواقع، اي تغيير، ومنهم على العكس وبسبب التجربة التي كانوا يملكونها في مجال الخدمات والتجارة من قفز قفزات بعيدة في هذا المجال.

ولكن الكاتب ربما انساق، وبسبب طبيعة عبد المجيد بوالارواح ونفسيته المتذبذبة الى نوع من البكاء على الاطلال فصار يرى ان كل افراد الطبقة التي كان ينتمي اليها قد ساءت حالهم، ومما زاد في الام عبد المجيد بوالارواح انه بينما يرى ان هذه الطبقة قد ساءت حالها، فان افرادا من الطبقة الأخرى المغمورة وجدوا انفسهم بين عشية وضحاها ذوي مكانة هامة في المجتمع، فهذا ابن اخيه الطاهر النشال الذي يعرفه جيدا يتحول بقدرة قادر الى سي الطاهر، يقول عنه صهره صاحب المقهى بأنه دخل السجن عدة مرات، كانوا يقولون عنه نشالا ولكنه كان

مجاهدا مهربا للأسلحة. فمهما يكن امر الطاهر هذا فانه في نظر بوالارواح قد اعتدى على قانون الطبقية الصارم وانتقل من نشال تافه الى ضابط في الجيش ذي رتبة عالية وهذا لا يجوز، وهذا عبد القادر ابن عمه الذي كان يصنع الغرابيل ويبيعها قد صار استاذا في ثانوية الخ..الخ...

وهذا عيسى ابن خالته قد طرأ عليه بدوره تحول كبير، وان كان تحوله يختلف عن المثلين السابقين، فقد انتقل هذا الرجل الصالح التقي المتصوف المعتكف في زواية سيدي عبد المؤمن الى نقابي بعدما وقف عليه في المنام أبو ذر الغفاري داعيا اياه الى مساعدة العمال المظلومين الذين قصدوا اليه يشتكون له امرهم ، وان كنت اجد في هذا التحول بعض المبالغة، فالنقابيون يخرجون، عادة من صفوف العمال، هذا اولا، وثانيا فانني لا استسيغ فكرة اتصال مجموعة من العمال بهذا الرجل المتصوف المنعزل عن العالم لكي يدافع عن حقوقهم.

وبعد، فما هو الاتجاه الأدبي الذي يمكن ان تنضوي تحت لوائه رواية « الزلزال » للطاهر وطار ؟...

اعتقد انه صار واضحا، وبناء على ما سبق ان اتجاه هذه الرواية هو « الواقعية الاشتراكية ».

الا ان هنالك نقطة ذات اهمية في نظري، يجب التوقف عندها قليلا، فمن العادة ان الرواية ذات الاتجاه الواقعي الاشتراكي تركز على الشخصية ذات الاتجاه الاشتراكي وتعمل على تتبع حركتها ونشاطها في الواقع الاجتماعي وتعمل على ابرازها في عملها اليومي لتغيير الواقع والاتجاه به نحو الاشتراكية. والامثلة على ذلك كثيرة متعددة من بينها رواية الام لمكسيم غوركي، والمعلم الأول لجانكيز ايتماتوف الخ... الا ان وطار في روايته هذه اختار ان يتناول موضوعه من وجهة معاكسة، فالاشتراكية هنا اشتراكية السلطة ووجهة نظر الكاتب هي نفسها وجهة نظر السلطة، اما بطل الرواية فهو على العكس من ذلك نموذج من النماذج المحافظة التي تقف ضد السلطة اي ضد الاشتراكية، ومن ثم فان موقف البطل سيكون موقف السلبية والانهيار واليأس والسخط على الواقع، وعلى السلطة. ومن هنا أيضا تفهم نظرة التعاطف والحنين التي تربط بين البطل وبين الماضي، فالبطل لا يعمل للمستقبل ولكنه يعمل للماضي، وهو يحاول بالأحرى – وفي حالة يأس – ان يطيل ما امكن عمر الماضي.

ونشعر من خلال صفحات الرواية ان جانب « الايجابية » في الاتجاه نحو الاشتراكية، او ما يمكن ان نسميه بلغة اكثر مباشرة جانب « المنجزات الاشتراكية » قد كان يشغل باستمرار ذهن الكاتب، فلا بد من الاشارة الى هذا الجانب والاشادة به، ولكن كيف يتسنى له ذلك وهو قد اتخذ لروايته بطلا يقف بكل جوارحه في الصف المضاد للاشتراكية ؟... هنا يلتجئ وطار الى نوع من الحيلة وذلك بجعل بوالارواح يلتقط عن طريق السماع في المقاهي او الانهج والأزقة والساحات، جملا وعبارات واحاديث بين اثنين أو أكثر عن هذه المنجزات، فهؤلاء هم الذين استنجد بهم وطار لكي يزعجوا سماع بوالارواح بأحاديثهم عن مصنع الجرارات، وبناء العمارات الخ... وقد يلجأ الكاتب احيانا الى هؤلاء، ايضا لتسريب بعض الافكار الانتقادية التي لا يستطيع ان يجعلها على لسان بوالارواح يقول احدهم : « لست ادري ما الفرق بين اسرائيل وبين كثير من الدول العربية، اسرائيل رأسمالية، معظم الدول العربية رأسمالية، اسرائيل عميلة للامريكيين، معظم الحكام العرب عملاء للامريكان، اسرائيل تقتل الفلسطينيين، معظم الحكومات العربية ضد الفلسطينيين » (الزلزال . ص : 164). وبهذا فقد قصد الطاهر وطارقصدا الى تعدد الأصوات في روايته حتى يستطيع تمرير الافكار والآراء التي يقصد الى تمريرها.

وعادة فان تلك الافكار والآراء التي تنساب عبر تلك الحوارت المختلفة، وعلى مسمع من بوالارواح تهدف الى تحديه والتنغيص عليه والزيادة في اثارته، لاجل الوصول به الى تلك النهاية المأساوية « الجنون ».

واذا كان وطار يهدف من وراء تلك « الحوارات » التي تتحدث عن « الايجابي » الى اثارة عبد المجيد بوالارواح، فانه لم يكتف بذلك ولكنه اسمعه ايضا مجموعة من الحوارات التي تتحدث عن كثير من النقائص التي تعاني منها البلاد « حال يا الطاهر بن علي انهم يكدسون، يكدسون هكذا مع اقتراب كل رمضان، الزيت لا توجد منه قطرة في المتاجر، حولوه كله الى بيوتهم » (الزلزال، ص : 96).

واذا كان وطار يريد بتعدد الاصوات هذا ان يحيط بالواقع الجزائري انذاك من كل جوانبه، فانه اثر بذلك على الناحية الفنية لروايته، فالقارئ يحس بشكل واضح بان هذه « الحوارات » التي يسمعها عبد المجيد بوالارواح قد اقحمت اقحاما على النص الروائي الاصلي، وذلك بسبب جانبيتها بالنسبة الى مسار الرواية الرئيسي وبسبب مباشرتها. ولعل من بين اسباب التجاء وطار الى هذا الاسلوب، ان الرواية تجري في ذهن البطل، غير القابل للحديث مع الاخر.

على الرغم من أن الكاتب يريد لشخصية بوالارواح ان تكون شخصية رجعية في افكارها متخلفة سلبية، إلا أنه ينسى أحيانا كثيرة بأن شخصية بوالارواح هي التي تفكر وهي التي تتكلم، فيفكر هو (الكاتب) ويتكلم من خلالها وفي مكانها، وذلك عندما ينتقد اوضاعا معينة تدل على فوضى المجتمع وعلى التخلف كالبطالة والسوق السوداء واللهو بلعب الدومينو وما شابه ذلك... وهذا كثير في الرواية، فالكاتب يوفق عندما يجعل بوالارواح يفكر او ينطق بما يتفق مع شخصيته، ولكنه يخفق احيانا عندما يفعل العكس.

يراوح اسلوب هذه الرواية بين السرد العادي المعتمد على تتبع المفرد الغائب والحكاية عنه باستعمال الفعل الماضي: علق، تنهد، استدار. انطلق الخ... وبين المنلوج الداخلي الجاري في ذهن البطل والذي –عن طريقه – يناقش الماضي والحاضر. يتحدث عن نفسه وعن الاخر، يقلب الامور على كل مستوياتها ووجوهها. يحكي ويشتم وينتقد، وخاصة يلاحظ، فهو عين الكاميرا التي لا تكاد تترك شيئا دون ملاحظة.

اننا نشعر ان الكاتب من خلال تصويره للمكان في هذه المدينة يراجع ماضيه، لعله الحنين الى الطفولة او عهد الشباب الاول هو ما كان ينطقه بهذا الشكل على لسان البطل مع الفارق في الرؤية. اذ أن بوالارواح يثور على هذا الواقع الذي يتغير بسرعة وبهذا الشكل، يثور على وضع الناس الذي انقلب رأسا على عقب، هؤلاء الذين كانوا كل شيء في قسنطينة ثم صاروا لا شيئ، وهؤلاء، الذين كانوا – عكس ذلك– لا شيئ ثم صاروا كل شيئ، ثم المدينة نفسها تغيرت، تغيرت بسبب الرعاع الدين افسدوها بعد ما هاجروا اليها من الارياف والبوادي.

ولا بد ان من بين اسباب تكثيف الحدث في هذه الرواية والمتمثل خاصة في ملاحظات بطلها لمحيطه، وعدم تضييع اية لحظة في التعامل مع هذا المحيط، عامل الزمن المكثف بدوره، فالرواية كلها والتي تتجاوز مائتي صفحة لا يتجاوز زمنها يوما واحدا. او بالاحرى هي مجموعة ساعات في يوم واحد. فهذا الزمان المضغوط الضيق لا يدع اي مجال لتضييع الوقت او الاسترخاء.

أما المكان في رواية الزلزال فانه في الواقع يستحق لوحده وقفة مطولة ودراسة خاصة. فهو اساسي الى درجة شعورنا احيانا بانه هو البطل الحقيقي لهذه الرواية، ومهما يكن فان المكان في هذه الرواية يتقاسم وبجدارة بطولتها مع عبد المجيد بوالارواح.

اننا منذ بداية الرواية نشم رائحة المكان ونتلمسه ونراه بشكل واضح وقوي، منذ البداية يقحمنا الكاتب في عالم المدينة مع بطل الرواية نشم رائحتها معه ونتابع بكل تفصيل وتدقيق اماكنها.

ومن الملاحظ ان الكاتب قسم روايته الى سبعة فصول سماها جميعا بأسماء اماكن معينة ومعروفة في قسنطينة، وهذه الاسماء هي : باب القنطرة. سيدي مسيد، سيدي راشد، مجاز الغنم، جسر المصعد، جسر الشياطين، جسر الهواء.

والكاتب بعد هذا مغرم بتقديم كل ما هو شعبي في قسنطينة فهو يركز على الاسواق الشعبية، والحارات الشعبية، ووصف كتاب الحروز. والكتبة العموميين، والباعة المتجولين، وماسحي الأحذية، والجالسين في المقاهي من لاعبي الدومينو وغيرهم، وكذلك هو مغرم بوصف البيوت البسيطة الفقيرة التي تعلق انواع الغسيل على شرفاتها...

الكاتب مغرم بتصوير ووصف كل هذا وغيره، فهو بصفة عامة يركز على الجانب الشعبي الفقير حتى لنشعر كأننا في قرية ريفية باسواقها وحاراتها وحيواناتها الخ... ولعل من المشروعية ان نتساءل اليس في هذه المدينة اماكن اخرى ارقى... تستحق على الاقل ان تذكر.

وعلى العموم فان الوصف في هذه الرواية هو الطاغي، يصف الكاتب كل شيء بالتفصيل، فالبطل يتحرك في كامل الرواية عبر الأزقة والانهج والساحات ويلتقط مثل الكاميرا كل شيء الى درجة اننا نشعر اننا ازاء رواية من روايات بلزاك الواقعية، أو ازاء عمل من اعمال اميل زولا الغارق في الطبيعية.

فالوصف في هذه الرواية على العموم اقرب الى وصف بلزاك وغيره من كتاب الواقعية الكبار، الا انه يتجاوز احيانا مجرد الوصف الواقعي، الى تقديم لوحات هي ألصق باسلوب الطبيعية « واجهته قافلة من الروائح، استنشق رائحة ادمغة مشوية، ثم رائحة قشور ثمر الصبار، ثم رائحة بول، ثم رائحة عقاقير كيماوية، ثم رائحة عطر، ثم رائحة اباط، ثم رائحة اقدام نتنة » (الزلزال، ص : 70)

وبعد صفحتين فقط من هذا النص نجد نصا آخر مشابها . « قويت روائح المأكولات، عندما اقترب من شارع بالمهيدي منبعثة من اليمين الى جانب رائحة البول، ادمغة مشوية. فلفل مقلي، بيض مسلوق ، كباب ، ملوخية. بطاطس مسلوقة كفتة. بول شائط » (الزلزال، ص : 72)

ويصف ايضا احد الازقة بقوله : « النساء والرجال من جميع الاعمار، يجلسون وسط دخان فرن مخبزة، وامامهم رقاع نيلونية او ورقية، وقماشية، فوقها مفاتيح فاسدة ومسامير معوجة، وحنفيات مكسورة، اوثياب مهلهلة، واحذية متهرئة، واعقاب خبز متسخة وسميد مغلوث، قشور ثمر الصبا في كل شبر » (الزلزال ، ص : 134)

ان الكاتب يلجأ في صفحات كثيرة من الرواية الى تصوير مجتمع الحضيض : « قلت لك ان ابنها قتل في مزبلة بولفرايس، وانها جرحت في ثديها وفي دراعها. ظلت تتشبث بعلبة السردين، فما كان منهم الا ان قطعوا يدها بالساطور » (الزلزال، ص : 138)

وللخلاصة نقول : ان روح الاحساس بالمأساوية هي التي تسيطر على ذهن بطل هذه الرواية من بدايتها حتى نهايتها : الشعور بالزلزال، الدنيا التي تغيرت بشكل كبير، الكفر الذي انتشر بين الناس، الناس الذين نزلوا من طبقتهم ، والذين صعدوا الى طبقة غيرهم الخ...

ولا شك ان هذه المأساوية تجسدت بشكل اكثر عمقا ووضوحا في نهاية الرواية، او نهاية عبد المجيد بوالارواح عندما يجد نفسه وحيدا فوق جسر « الشياطين » وقدجن وصار يتحدث لوحده، ثم ينتبه اليه الناس وخاصة الاطفال، الذين اقبلوا عليه يتصايحون من كل انحاء المدينة الفقيرة، وكأنهم يحاكمونه، هؤلاء الاطفال الذين لم يستطع انجابهم، والذين ظل عبر كل صفحات الرواية يعبر عن كرهه لهم.

ورمز هذه النهاية واضح، ففي جنون عبد المجيد بوالارواح ومحاولته الانتحار تعبير عن تصدع طبقة الاقطاع وتزلزل كيان افرادها مع مجيء مشروع الثورة الزراعية.

الخنازير[1]

تكلف الصراع و تكلف اللغة

عبد المالك مرتاض

الخنازير هي التجربة الروائية الثالثة للدكتور عبد المالك مرتاض. واذا كان هذا الاديب الباحث باستمرار عن محاولة التطور والتجريب قد ذهب في محاولتيه السابقتين « دم ودموع » و « نارونور » مذهبا بعيدا في التقليدية، فإنه في روايته هذه « الخنازير » حاول ان يقفز قفزة بعيدة في مجال تطور شكله الروائي.

فالى اي مدى وفق الكاتب هذه المرة ؟ وما الجديد الذي قدمه في هذا العمل الذي قصد قصدا ان يقدم فيه الجديد.

بدءا وقبل ان ندخل في تفاصيل الرواية تجب الاشارة الى ان عبد المالك مرتاض حاول في عمله هذا ان ينحو نحو الرواية الجديدة في فرنسا لدى روب غرييه وناتاليه ساروت وغيرهما، وهذا ما سنعود اليه في القسم الاخير من هذه الدراسة، اما قبل ذلك فلا بد من التعرض الى المضامين والقضايا التي اقام عليها الكاتب فصول روايته.

لا شك ان اول ما يثير انتباهنا في هذه الرواية هو عنوانها : « الخنازير »، ولن يصعب علينا معرفة ما الذي يعنيه الكاتب بهذا العنوان، اذ اننا سنعثر عليه في كثير من صفحات الرواية بمعنى كل هؤلاء البيروقراطيين والانتهازيين والاستغلاليين والخونة من مديري مصالح وغيرهم، اي هؤلاء الذين لا يكفون عن امتصاص دم البسطاء والفقراء في كل فرصة تتاح لهم.

ولذلك ولكي يتسنى للكاتب ايصال فكرته ومشروعه فقد عمل على بناء عمله على الصراع.

---

1 – اعتمدت في دراسة هذه الراية على طبعة المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

فمن المعلوم ان العمل القصصي او المسرحي او الروائي لكي ينجح ويجلب انتباه الملتقي بشكل ناجح وقوي يجب ان يقوم على عنصر الصراع الدرامي. ولكي يكون هذا الصراع ناجحا وموفقا يجب ان يكون منطلقه الواقع اي ان عناصره الممثله له والمتناقضة فيما بينها يجب ان تكون في الوقت ذاته ممثلة للواقع، مستقاة منه. وكلما كانت هذه العناصر اكثر وضوحا، واكثر عمقا في الواقع اي اكثر تمثيلا له كلما كانت اعمق في تاثيرها في المتلقى.

فالى اي مدى نجح مرتاض في اختياره لعناصر الصراع ؟ والى اي مدى وفق في تصوير ادوارهم.

نجد بالنسبة الى عناصر الصراع ان مرتاض وزع هذا الصراع بين مجموعات او فئات ثلاث : وكل مجموعة او فئة يقوم فيها الصراع بين عنصريها الموجب والسالب.

المجموعة او الفئة الاولى هي التي تقوم وكما اشرنا الى ذلك في السابق – على البيروقراطيين والانتهازيين والاستغلاليين والخونة ومديري المصالح وغيرهم من جهة، وهؤلاء المظلومين والمضطهدين الخ... اي ضحاياهم من جهة اخرى.

بينما يمثل الفئة الثانية الشهداء، وأبناؤهم والمناضلون من جهة، « والحركة » وابناؤهم من جهة اخرى.

اما الثالثة فتقوم على الصراع بين المعربين والمفرنسين. وبطبيعة الحال فان الادوار تتداخل فقد تقوم احدى الشخصيات بتمثيل دورين أو حتى ثلاثة ادوار، وهذا ما سيأتي تفصيله فيما بعد.

بدءا نقول بأن هذه العناصر المختارة يمكن ان تقوم عليها رواية جيدة وناجحة مع التفاوت والاهمية التي يمكن ان تنسب الى كل فئة من الفئات المذكورة آنفا.

فاذا كان الكاتب يرتكز في روايته هذه على محاولته تصوير مرحلة السبعينيات وخاصة منها بداياتها معتمدا في ذلك على فضح الطبقية التي هي هنا طبقية بيروقراطية وانتهازية، اذا صح التعبير – اكثر منها طبقية اجتماعية، والتمييز بين من يعمل لصالح الوطن من المناضلين وابناء الشهداء، ومن يعمل ضده من الخونة وابناء « الحركة » وكذلك التمييز بين المخلص للغته الوطنية، وبين المفرنس الداعي الى الفرنسية، والعامل على نشرها على نطاق اوسع.

فالى اي مدى نجح الكاتب في تصوير دور كل مجموعة من هذه المجموعات ؟ تجدر الاشارة اولا الى ان الكاتب اختار لروايته ان تجري احداثها في أحد المخيمات وهو كما يبدو مخيم لابناء الشهداء.

واذا كان معظم الكتاب الجزائريين قد اختاروا لرواياتهم القرية التي كثيرا ما تكون مقر البلدية لكي تتوفر فيها جميع عناصر الصراع، فان مرتاض حاول في اختياره لمخيم ابناء الشهداء ان يجعل منه مجتمعا متكاملا تتوفر فيه هذه العناصر الضرورية لاقامة رواية ناجحة.

ففي هذا المجتمع الصغير « المخيم » هنالك اولا الصراع الطبقي أو بالاحرى الاستغلال الطبقي من طرف مدير المخيم الذي يسميه الكاتب : « الكبير » لاطفال المخيم، ابناء الشهداء.

وهنالك الصراع بين ابن الحركي الذي يسمى « الشطاح » ايضا وبين ابن الشهيد احد المدربين والذي يلقب « بالاحمر ».

ويدخل في هذا الصراع ايضا العنصر النسوي، الذي تمثله في الرواية « وردة »، وهي تلقب احيانا بلقب « شوك »، و« خيرة » مديرة مخيم البنات، الى جانب الدور الذي يقوم به الاطفال وخاصة « الطفل الرجل ». وبالاضافة الى هولاء، وغيرهم من سكان المخيم فان هنالك شخوصا اخرين في الرواية، ولكنهم يقومون بدورهم خارج المخيم ومن بين هولاء على الخصوص ثابت ابو وردة الذي يعمل في احدى الشركات، والذي يتهم ظلما بسرقة اموال كبيرة منها، وجمال مدير الشركة والسارق الحقيقي، وزبيدة عشيقته.

كما ذكرنا قبل قليل فان الصراع في الواقع غير موجود تقريبا في المخيم الا في نطاق ضيق بين المدير، احد « الخنازير » والمستغل لمنصبه الى ابعد الحدود، في نهب كل ما يمكن الوصول اليه من ممتلكات المخيم وامواله، ومن ذلك – مثلا – انه يسرق في كمية مشتريات المخيم من اللحم والخضر بالاتفاق مع الجزارين والخضارين، ويقدم للحسابات اوراقا مزورة غير حقيقية، قلنا ان الصراع تقريبا غير موجود بين هذا المدير وغيره من سكان المخيم الا في نطاق ضيق ولكن الموجود بالفعل هو الاستغلال، وخاصة استغلال الاطفال واضطهادهم حتى في طعامهم : « الان جئتم، الاكل. موائد متقابلة، تقتسمون الطعام. الحاجة بادية. الاطيب لكم! لكم فقط ! انتم رؤساء !... للأطفال ؟ أي شيء !

عدس ! حمص ! لوبيا...اي شيء ! » (الخنازير، ص : 41)

والكاتب يلقب هذا المدير بلقب « الكبير » ولعل هذه التسمية موفقة، او هي على الاقل مناسبة للاسلوب المباشر الذي كتبت به الرواية، فليس المهم ان يكون هذا الرجل المستغل غنيا، او مسؤولا ذا اهمية عالية، او مديرا، المهم انه واحد من هؤلاء، اي انه رجل ممثل للطبقة المستغلة، فهو « كبير » وكفى، بغض النظر عن الدخول في تحديد الصفات والتفاصيل : « الكبير ينزل، مائدته تنتظر .. مائدة الكبراء ! » (الخنازير، ص : 11)

فهو اذن لا يأكل مع الاخرين، ولكنه يميز نفسه عنهم بكل وضوح : « الكبير » لماذا لا يأكل مع الناس ؟ مائدته منعزلة... سمينة ! يختلف عن الموائد الاخرى ! (الخنازير، ص : 17)

ولكن استغلاله لمنصبه لا يتوقف عند هذا الحد، فمجالات نشاطاته متعددة كثيرة، و « فضائحه معروفة ! شرع في تشييد قصر .. غار من اخيه ! له معمل .. عمال يسحقهم.. يطحنهم.. لا يعطيهم شيئا، يأخذ كل شيء ! قصر بمسبحه ! ملاعب .. حدائق.. الشجر.. الماء.. الورد، الغلمان.. الجواري.. الجنة.. »(الخنازير، ص : 85)

والكبير بعد هذا ليس وحده في الميدان، فلابد ان يستعين بغيره وخاصة بعلي الطباخ. طباخ المخيم التابع المطيع له، الذي يقتصد فلا يقدم للاطفال سوى العدس والطعام الرخيص، وبينما يقدم لسيده كل ما لذ وطاب من الطعام : « حتى علي الطباخ يتمتع.. يختلس.. بعينيك رايته ! مرات ! مرات! الكبير يستخدمه » (الخنازير، ص : 86)

والفساد بعد هذا منتشر في كل مكان، فاذا كانت الرواية وهي صورة للتعفن البيروقراطي، ولاستغلال المنصب الاداري، ترتكز في جلها على تصوير الفساد المستشري في هذا المخيم. واستغلال « الكبير » له فانها أي الرواية لا تخلو من اشارات من حين لآخر الى الفساد في بعض المجالات الاخري، ومن ذلك مثلا، مجال الفلاحة، يقول احد الفلاحين البسطاء : « في المزرعة عندنا عشرة فلاحين... عشرة مسؤولين » (الخنازير، ص : 138)

ولعل الكاتب هنا لم يكن يشير الى الثورة الزراعية او فشلها فعلى الرغم من ان زمن الرواية غير معروف، وعلى الرغم من ان الكاتب انتهى من صياغتها سنة 1978، فاننا نرجح انه انما اراد تصوير مرحلة بدايات الثورة الزراعية، خاصة وان الرواية تبدأ هكذا : « أمامية ! الثورة الزراعية...

اصواتكم تتعالى .. المرح يغمركم، قوافلكم تتوالى...

تمضي نحو الحقول... الحقول تنتظركم... بعرقكم تخضر...

تنضر، واصواتكم تغني.. تغني.. » (الخنازير، ص 5)

اما اشارته السابقة الى التعفن في المجال الفلاحي فانه يعني بها بدون شك ما كانت تعانيه مزاريع التسيير الذاتي من سوء في التسيير ، ومن بيروقراطية الخ...

ومن هذا، ومن الرواية كلها يتضح ان تلك الاشارات من حين لآخر الى الثورة الزراعية، والى التطوع ظلت مجرد اشارات لا اكثر، فالرواية لا تقوم على موضوع الثورة الزراعية، ولكنها، وكما سبقت الاشارة الى ذلك تقوم على تصوير الاستغلال والتعفن البيروقراطي.

ولعل الكاتب بالتفاته من حين لآخر لموضوع الثورة الزراعية كان يريد ان يشير الى الجانب الاخر، الجانب المخالف والمعاكس للتعفن والاستغلال وبشاعة الواقع، اي انه كان يريد ان يشير الى الامل، الى المستقبل الخ...

ومن بين اهم شخصيات هذه الرواية شخصية ابن الحركي، ويسميه الكاتب احيانا « الشطاح ».

فعلى الرغم من ان ابن الحركي هذا مجرد تابع للمدير، او معاون له كما يتضح ذلك منذ بدايات الرواية، الا ان دوره في الواقع يظل ينمو باستمرار، ويزداد اهمية كلما تقدمنا في صفحات الرواية في الوقت الذي يضمحل فيه دور المدير، الى ان يستولي على مكانه تماما، وبطبيعة الحال فان ابن الحركي في آخر الامر ما هو سوى صورة اخرى لهذا المدير، فلقد ظل يحلم باستمرار بالوصول الى منصبه لكي يتمكن بعد ذلك من ممارسة هواياته ونزواته بكل حرية.

والكاتب يقدم في صورة ابن الحركي بشاعة الجانب الانتهازي والشرير بصفة عامة في الانسان.

ينمو دور شخصية ابن الحركي ويبرز للوجود بشكل اكثر وضوحا عندما يصطدم مع « الاحمر » في موضوع زميلتهما في المخيم « وردة » اذ كان ابن الحركي يتقرب اليها باستمرار، ويسعى الى استمالتها اليه، الا ان « الاحمر » افسد عليه خطته بمجيئه، مما جعل وردة تفضله عليه، ومما دفعه بفعل الغيرة الى التعارك معه بالايدي.

والرواية بعد هذا لا تجمع بين وردة والاحمر في اطار حب متبادل صريح وواضح، ولكنها تترك تخمين ذلك للقارئ، الا ان هذا الحب لا يخفي على احد، وذلك بسبب طبيعة شخصية كل منهما وبسبب الهم المشترك.

« فالاحمر » شاب اشتراكي مثقف هادئ، يقرأ ماركس، ويتعاطف مع الفقراء والمضطهدين، ويكره البيروقراطيين والانتهازيين الخ...

ووردة فتاة رقيقة جميلة تعيش كثيرا من القلق بسبب ابيها الذي سجن ظلما بتهمة سرقة مقدار كبير من المال.

سنعود فيما بعد الى مزيد من التفاصيل عن هاتين الشخصيتين، اما ما ذكرناه عنهما هنا فاننا لم نأت به الا لكي نضعهما في مقابل شخصية ابن الحركي.

الا ان الصورة لا يمكن ان تتضح اكثر الا بتقديم مزيد من الضوء عن شخصية ابن الحركي هذا،

يمكن القول بايجاز كبير، وقبل الدخول في اية تفاصيل بأن الرواية تقدم في كل من « ابن الحركي الشطاح »، و« ابن الشهيد » شخصيتين مختلفتين كل الاختلاف، متناقضتين كل التناقض، بعيدتين كل البعد احداهما عن الاخرى، احداهما تمثل كل الشر وفي ابشع مظاهره، والاخرى تمثل كل الخير وفي احسن صفاته واجملها.

وعلى العموم فان الشخصيات الهامة في هذه الرواية تظل على حال واحدة من بداية الرواية حتى نهايتها.

فلقد اختار لها الكاتب اطارها، وحدد صفاتها بكل صرامة، ولم يترك لها ابدا اية فرصة لكي تحيد عما حدده، وقد بالغ في ذلك كثيرا الى درجة تجميد هذه الشخصيات على حال واحدة لا تتغير ومما خلق نوعا من الجمود في الحدث الروائي ايضا، فالانسان مهما كان لا يمكن ان يعيش على حال واحدة، ولكنه مجموعة من المشاعر والاحاسيس التي يمكن ان تتبدل في بعض الاحيان حتى بين لحظة واخرى.

بل لقد تجاوز الكاتب احيانا حد المبالغة، عندما لم يكتف بالصاق صفات معينة سواء كانت خيرة ام شريرة بشخصية ما، دون السماح لهذه الشخصية بان تحيد عنها، بل تجاوز ذلك كله لكي يجعل هذه الصفات وراثية اي حكما قدريا، او لعنة متوارثة، مثلما نجد في كثير من الاساطير القديمة « اسطورة اوديب » الاغريقية مثلا.

ولا شك ان افضل مثال عن موضوع الوراثة هذا، والذي يذكرنا ببعض كتابات الطبيعيين المعروفيين مثل اميل زولا، وفلوبير وغيرهما. شخصية « ابن الحركي »، فالشطاح يمثل الشر لانه ابن الحركي، ولانه رضع حليب دردورة الاسرائيلية الخ...

اذن لا تبرير ولا تعليل ولا وجود للواقع، وللظروف المؤثرة في مسار الشخصية، ولكنها الوراثة، اللعنة : « انت ابن حركي... المجتمع يرفضك انت تتحداه، تتجاوزه، ابدا تلعنه، تنتقم عند الضرورة، اي مانع ؟ قتلت الجبهة اباك، كان حركيا »(الخنازير، ص : 43)

وبهذا، فهو اذن سجين الماضي الذي يبتلعه، ويسيطر عليه باستمرار، ويضغط عليه : « اللعنة...ابدا تتابعك، تضاجعك.. تجالسك.. في كل مكان اللعنة ! اللعنة ! لعنة الماضي » (الخنازير، ص : 44)

وابن « الحركي » يرث اباه في كل شيء. فحتى المغارة التي اكتشف فيها الاب « الحركي » مجموعة من المجاهدين زمان ثورة التحرير فاخبرعنهم السلطات العسكرية الفرنسية، حتى هذه المغارة نفسها، – ولأن الابن يعرفها وراثة عن ابيه – يستعملها الابن ليخبئ فيها المرأة التي اختطفها ليلا من المخيم وهي خيرة مديرة جناح البنات : « انت ابوك اخبرك بموقعها... سر من اسرار الحركة ! مغارة رائعة.. ! سرية! آمنة » (الخنازير، ص : 83)

من هذا كله اذن يتضح بان الكاتب قصد قصدا الى بناء هذه الشخصية على اساس ان الخيانة فيها ليست امرا مكتسبا، ولكنها قدر يجري في دمها : « لو يعرفون .. ! النار اشعلتها انا ! المرأة اختطفتها انا ! الفتنة اثرتها انا ! انا كل شيء ! انا التاريخ الخلفي ! انا الثورة المضادة... انا الرجعية المعرقلة.. انا ... انا »(الخنازير، ص : 131)

ولا ندري لماذا حكم الكاتب على هذه الشخصية بهذه القسوة كلها. واذا كان مرتاض يعتقد اعتقادا راسخا بامر الوراثة هذه، فهي كارثة كبرى بدون شك، ونعتقد انه وقع في خطأ آخر عندما جعل ابن الحركي يفكر هكذا : « آه.. ! لو اولد من جديد ...! صبي في قماط... لو كان لي حق الاختيار...! ارفض ابي.. نفسي.. مكاني ايضا...! ارفض كل شيء » (الخنازير، ص : 133)

فمرتاض بهذا يؤكد ان لا أمل في عودة هذا الرجل الى الخير، ما دام مستحيلا عليه ان يختار أبويه، اي ان يولد من جديد، وفي هذا اغلاق كامل لباب الخير امام الانسان.

ومن جهة أخرى فقد وقع الكاتب في تناقض اخر، فاذا كان ابن الحركي صادقا في كلامه السابق الذكر، وكان من الممكن ان يجعله الكاتب صادقا في ذلك باعادة بناء شخصيته بشكل اخر يجعلها تتطور نحو الخير، فلماذا لا يتبرأ من أعمال أبيه الحركي، ويبرهن هو على العكس، وهذا امر جائز وممكن جدا لولا ان الكاتب كما مر ذكره وكما هو واضح غارق حتى اذنيه في الايمان بمفهوم الوراثة، او باللعنة الابدية بالنسبة الى هذه الاسرة، ومن ثم بالنسبة الى هذا الرجل. « يستحيل احراق الماضي، اللعنة لا تحرق »(الخنازير، ص : 134)

الكاتب اذن مصر على وراثة هذا الشخص لكل الصفات السيئة عن ابيه، ومثلما كان الأب خائنا للوطن خيانة واضحة في تعامله وتعاونه مع المستعمر الفرنسي، فان ابنه خائن ايضا في انتهازيته وفي سعيه للوصول الى مناصب المسؤولية بكل الطرق والوسائل التي من بينها حتى استخدام زوجته الفرنسية التي اخرجها من احد المواخير لكي يتزوجها، ولكي يستخدمها بعد ذلك طعما للوصول، الا ان هنالك بعض التناقضات في شخصية هذا الرجل التي قد تؤدي –احيانا– الى نوع من سوء الفهم لدى القارئ وذلك في تفكير ابن الحركي. فهل يجوز –مثلا – ان هذا الانتهازي، الاناني الذي يصل به الامر الى درجة العراك باستعمال الايدي مع رجل آخر لاجل امرأة ويختطف امرأة اخرى لمجرد اشباع رغبته الجنسية ثم يحرق خيمتها، ويتصل بعد ذلك برجال الدرك ومحاظة الحزب، ليعلمهم بالاختلاسات التي تجري في المخيم من طرف المدير، وهو بعد هذا يفعل ذلك لا لانه مخلص لوطنه، ولكن لانه يطمع في الاستيلاء على ادارة المخيم، هذا الرجل، الذي هذه بعض صفاته السيئة وليست كلها، وهذه بعض تصرفاته، هل يجوز – وهو ينتظر الدخول على المحافظ، وبجانبه ينتظر فلاح كان قد تحدث معه قليلا – هل يجوز ان يفكر هكذا : « انما لماذا ؟ هو ايضا ؟ كيف افاتحه ؟ يبدو غير عادي... يحمل الهم... عندهم خنازير..؟ » (الخنازير، ص : 138)

ومهما يكن فان الطريقة التي استخدمها الكاتب لكي يجعل ابن الحركي يتسبب عن طريق الوشاية في الزج بالمدير في السجن، ويستولي على منصبه، طريقة غير مقنعة، ولا موفقة، وكان الاجدى به والانسب ان يجعله يتولى هذا المنصب عن طريق معارفه، اما كونه يتولاه بمجرد انه وشى بالمدير السابق وعمل على فضحه امام السلطات وتنصيبه هو في هذا المنصب دون اي رجوع لهذه السلطات لملفه هو ، والنظر فيما اذا كان سيصلح لهذا المنصب ام لا، فان هذا غير معقول، ولا يمكن

تبريره الا في كون الكاتب قد استغبى السلطات الى حد بعيد، مثلما استغباها في موضع آخر من الرواية سيأتي الحديث عنه في وقته.

وتزداد صورة هذا الرجل بشاعة وتشوها في علاقته بالمرأة وفي نظرته اليها، وهو في ذلك ايضا يرث اباه : « ابوك يغاقصهن... كان يستخدم الرشاشة.. يضاجعهن كرها، ثم يهرب عندهم »(الخنازير، ص : 48)

لا انسانية اذن في هذه العلاقة، التي تصبح بهذا المفهوم علاقة وحشية حيوانيه، علاقة بين المعتدي والمعتدى عليه، فكما كان الاب مثلما مر بنا في هذا النص القصير يستعمل رشاشه ليعتدي على حرمة النساء وشرفهن، ثم يلوذ بالمستعمر ليحميه، فان ابنه بدوره يلجأ الى خطف امرأة هي خيرة ويخبئها مربوطة في احدى المغارات لكي يمارس معها الجنس.

ومثلما ان هذا الشخص مشوه في جوانب اخرى من شخصيته، فانه مشوه ايضا في هذا الجانب، جانب العلاقة بالمرأة، فهو عندما يتزوج لا يتزوج امرأة عادية، بل ياتي بامرأة أجنبية من الماخور، وهو دائما معقد من هذه الناحية، يفكر بأنه لا يمكن ان يقيم علاقة صحية وجميلة مع امرأة : « انت تكره فقط...! محرم عليك الحب..! اي جزائرية لا تحبك » (الخنازير، ص : 44)

ويصل به الامر في علاقته بالمرأة ونظرته اليها حد المرض : « الشبق يلذغ غريزتك.. انت شبق ..! بالنظرة فقط.. كل واحدة تراها... تركب معها في حافلة... في قطار... في اي مكان... تجردها من ملابسها تضاجعها... الف مرة » (الخنازير. ص: 172) .

عمل مرتاض في روايته على ان يبني شخوص روايته بناء محددا مضبوطا من البداية. فالخير خير، والشرير شرير، ولا مجال للامر الوسط، ومن ثم كان هنالك ضعف واضح في جانب التصوير، بحيث كاد التحليل، تحليل الشخوص داخليا يغيب تماما عن الوجود وهذا ما أدى من ناحية أخرى الى تسطح واضح في الرواية كلها، وقد ساعد على هذا التسطح ايضا اختلاق بعض المواقف المتكلفة مثل تلك الخصومة التي وصلت درجة العراك الجسدي بين ابن الحركي والاحمر، وكذلك قضية ضرب « الطفل الرجل » من طرف ابن الحركي، بالاضافة الى عملية اختطاف ابن الحركي لخيرة مديرة مخيم البنات ليلا، بحيث كتفها، واغلق فاها وحملها على ظهره وخرج بها من المخيم متجها نحو المغارة التي كان قد هيأها بالنهار، كل هذا

دون ان يشعر به أو ينتبه له احد، ثم لا ننسى بعد هذا كله الاشارة الى تجاوز بعض الشخصيات لادوارها المنوطة بها، مثل تجاوز وردة المتعاطفة مع « الاحمر » لدورها كمدربة في المخيم لتتحول الى محققة، في قضية ضرب « الطفل الرجل » التي اتهم فيها « الاحمر » ودخل بسببها الى السجن، وهي لذلك – اي وردة– تبحث في تبرئة « الاحمر » بطريقة لا يمكن ان يعرفها او يتبعها سوى مفتشي الشرطة الخبراء في الميدان او من هم في مستواهم، وذلك عندما تلجأ الى البحث في تلك الامور الصغيرة والدقيقة والاستعانة بها كقشور « الكاوكاو » او قياس الخطوات او العثور في مكان الحادث على مفتاح احدى الحقائب. او ما شابه ذلك، من الامور التي ستفضح عن طريقها وبواسطتها الفاعل الحقيقي الذي هو ابن الحركي.

وبطبيعة الحال فان هذه الاشياء الصغيرة عادة ما يلجأ اليها المحققون في مجال الشرطة والقضاء فذلك عملهم، وتلك مهمتهم. اما ان تلجأ اليها فتاة لا علاقة لها بالموضوع، موضوع البحث والتحقيق – وهي هنا تعوض رجال الدرك، الذين لم يشر الكاتب الى اية محاولة منهم للبحث عن القضية بهذه الطريقة او بطريقة مشابهة، فامر مبالغ فيه كثيرا. والاكثر من هذا مبالغة قيام « الاحمر » بالتحقيق في قضية اختلاس الاموال التي تمت في المؤسسة التي يعمل بها ثابت ابو وردة، هذا الاختلاس الذي اتهم به ثابت ظلما، مما يؤدي « الاحمر » وهو المتعاطف مع وردة والمنسجم معها، والواقف ضد الظلم باستمرار للقيام من جديد بتحقيق مضاد للتحقيق الذي كانت السلطة قد قامت به، والذي كانت نتيجته ادخال ثابت الى السجن.

وبهذا يبدأ الأحمر عملية التحقيق من جديد، فيتصل بالحارس الذي يحرس المؤسسة ليلا – وهو مجاهد قديم – فيكتشف اولا ان الحارس قد نام في تلك الليلة التي تمت فيها السرقة، مع العلم انه لم يكن من قبل ينام ابدا اثناء حراسته الليلية، ويصرح « للاحمر» بانه في تلك الليلة قد دعي الى تناول شراب من طرف جمال مدير الشركة، قبل ان يغلبه النوم.

ويكتشف ثانيا ان هذا الحارس، وهو أبو اولاد كان يخاف على فقدان عمله، مما الجأه الى السكوت تفضيلا لسلامة العاقبة.

كما يتصل الاحمر « بزبيدة » عشيقة جمال، مدير المؤسسة، والسارق الحقيقي للاموال، ليعرف من خلالها ومن خلال علاقتها بجمال ومن خلال الرفاهية التي

تعيش فيها، هذه الرفاهية البادية للعيان في المنزل الذي تسكنه زبيدة، وفي اثاثه الجميل الغالي والمتنوع، يعرف « الاحمر » من خلال هذا كله، ومن خلال حديثه غير المباشر معها، ان جمال هو السارق الحقيقي، وهو اضافة الى هذا كله يسجل سريا كل ما دار بينه وبين زبيدة من حديث. لكي يقدمه – مع ما توصل اليه من حقائق واعترافات لدى عيسى الحارس الليلي – للمحامي « المبتدئ » الذي غابت عنه كل هذه الأشياء.

لا ادري بعد هذا، ومهما كانت تجربة هذا المحامي قصيرة وناقصة، ما اذا كان « الاحمر » – وهو البعيد عن مجال المحاماة، والتحقيق في امور الاختلاسات والجرائم أو ما شابه ذلك – اشطر من المحامي واقدر منه واعرف الى درجة انه يعيد التحقيق مكانه وياتيه بالبراهين القاطعة التي تجعل هذا المحامي يقبلها ببساطة مصرحا ومؤكدا، ان موكله عن طريقها لا محالة سيغادر السجن. ومما سبق يتضح ان ضعف هذه الرواية يأتي من ضعف بناء الحدث فيها وبناء الشخصية، مما جعل كثيرا من الاحداث والمواقف فيها، غيرمقنعة، بل ضعيفة، ومن بينها على العموم استغباء رجال القضاء والحزب والسلطة، فقد جعل الكاتب هذه الاجهزة كلها غبية الى حد بعيد، مما سمح لاشخاص ليسوا خبراء كبارا، او اذكياء الى حد بعيد، يعوضونها، بل ويتلاعبون بها.

فهذا ابن الحركي الخائن، المجرم الانتهازي، يتولى منصب مدير المخيم لمجرد انه وشى بالمدير السابق وشاية صدق الجميع – بما فيهم رجال الدرك والحزب– انها تعني انه هو المخلص وان المدير السابق هو الخائن.

وهذه وردة تتوصل بسهولة الى الدلائل والقرائن التي تبرئ « الاحمر » وتخرجه من السجن.

وهذا – من جهته – « الاحمر » يعوض المحامي والمحققين ليتوصل الى ما يبرئ ساحة « ثابت » الخ...

فاذا اضفنا الى هذا كله تلك اللغة التي كتبت بها الرواية، والتي لجأ اليها الكاتب قصدا، والتي سنعود الى تناولها ببعض التوسع فيما بعد – تبينت لنا بشكل اكثر وضوحا اسباب ضعف هذه الرواية.

قبل التطرق الى ما يتعلق بالجوانب الفنية في هذه الرواية، نريد ان نقف مزيدا من الوقت مع : « الاحمر »، فقد اشرنا في بعض الفقرات السابقة الى جوانب من هذه الشخصية، الا اننا لم نوفها بعد حقها، فاذا كنا فيما سبق قد تعرضنا لبعض جوانب شخصية « ابن الحركي » وعرفنا اهمية هذه الشخصية ودورها. فان شخصية « الاحمر » تاتي في المقابل لها تماما. وتقف في مواجهتها، اذ يمكن القول وفي ايجاز شديد ان شخصية ابن الحركي اذا كانت كلها شرا فان شخصية « الاحمر » كلها خير.

من البداية يحدد الكاتب هذه الشخصية في مستواها المادي والمعنوي، فالاحمر لا يملك سيارة كي تحمله مجانا الى المخيم « مرغم انت تشحذ الان، تتودد اليه »(الخنازير، ص : 6)

ومن البداية يتحدد موقفه الطبقي، فهو ضد الخنازير : « بورجوازيين ! كلاب ! هم فقط ! خنازير » (الخنازير، ص : 7)

وهو فقير حتى من ناحية عدد افراد عائلته : « ابي قتلته فرنسا امي ماتت حزنا عليه ! مالي اخوة...! بدون اعمام.. بدون اخوال » ! (الخنازير، ص: 16).

والكاتب بعد هذا، وفي روايته كلها لا يلجأ الى الرمز، او التلميح، ولكنه يجعل شخوصه ينطقون بما يحسون مباشرة، او كما يمكن ان يقال : « ان كل ما في اذهانهم على افواههم » بورجوازيين ! كلاب كيف قدروا يملكون السيارات الضخمة ؟ المعامل ... لست وحدك كثير سواك... الاف وملايين، انت بنية تحتية... عامل بسيط (الخنازير، ص : 7).

أما من الناحية المعنوية او الروحية فان هنالك فرقا واضحا بين كل من ابن الحركي، والاحمر، فالاحمر –على خلاف الشطاح، مثقف واع، ويتضح ذلك في سيرته، وتصرفاته، ثم هو متزن كل الاتزان، وغير متطرف : « السياسة...! لا...العقائدية...! لا ... القرآن ؟ لم لا ؟ الدين والشيوعية... ماركس والقرآن ! كل شيء يجوز... المتناقضات ايجاب... الاتفاق سلب، الخلاف وعي. المسلمات مرفوضة، كل شيء يخضع للمحك... للنقاش ... للحوار... الاتباعية العمياء غباوة » (الخنازير، ص : 155).

شخصية هذا الرجل اذن واضحة، هو احمر،وحقيبته حمراء، لذلك يتعرض الى استقبال غير حسن عند قدومه الى المخيم، ومثال على ذلك انه اعطي في البداية

سريرا عاريا بدون فراش، وبعد ذلك حصل على فراش قديم جدا، وعلى مخدة قديمة قدم هذا السرير نفسه الذي لا يكاد يتوقف عن احداث صوت مزعج، يستغله الكاتب فنيا عندما يحوله الى خطاب متواصل يتحدث به السرير الى صاحبه « الاحمر » ويخبره عن كثير من الاشياء التي يمكن ان تخفى عنه، وبذلك يتحول السرير بدوره الى شخصية من شخصيات الرواية التي لا يقل دورها واهميتها عن بعض الشخصيات الاخرى.

لقد اراد الكاتب اذن لشخصية « الاحمر » ان تكون – الى جانب شخصية « وردة » – شخصية ايجابية تمثل الوعي بالواقع، والضمير الحي، وتنتصر للخير ضد الشر، وتعمل لتحقيقه، فالعدو اللدود بالنسبة الى « الاحمر » هو المدير، وابن الحركي، وكل البورجوازيين والانتهازيين والبيروقراطيين، والسراق الخ... الى درجة انه يهجم لا شعوريا على « الطفل الرجل » ويعاقبه بشدة ضربا عندما يتأكد بأنه سرق تفاحة احد الاطفال، وغير مصدق – في الوقت ذاته – بأن هذا الطفل يمكن ان يكون ابن شهيد: « الطفل الرجل » ابن شهيد ؟ يقال: انما مستحيل ! لماذا ؟ شعور... حاسة سادسة ! حركي صغير .. ابن حركي كبير الحركة انتهت... لا لم تنته...! كل رجعي حركي...! كل مختلس حركي...(الخنازير. ص : 8–1).

وعن طريق « الاحمر » ايضا نعرف الفارق الكبير في مستوى المعيشة بين عيسى المجاهد القديم، والحارس الليلي، وبين زبيدة، خليلة جمال مدير المؤسسة.

هنالك اذن خلل في الواقع، تناقض واضح، نتعرف عليه اولا من خلال حياة بعض الشخوص البيروقراطيين والانتهازيين، والمنحرفين، وتصرفاتهم، كما نتعرف عليه من خلال شخصية الاحمر في مواقفه الواضحة ازاء هؤلاء الشخوص، ومن خلال مواقفه كلها ونظرته الى الحياة.

لا بد قبل ان ننتهي من دراسة هذه الرواية ان نتطرق الى بعض جوانبها الفنيةالتي لم نتناولها فيما سبق، خاصة وان ما يلفت الانتباه بالنسبة اليها ان الكاتب قصد قصدا الى كتابتها بشكل اراده ان يكون مغايرا تماما للشكل الذي استعمله في روايتيه السابقتين « دم ودخان » و « نار ونور » ، ونظرا الى الاسلوب واللغة غير العاديين اللذين كتب بهما هذه الرواية، ونظرا الى انها جاء ت متأخرة بسنوات كثيرة عن روايتيه الاخريين، نظرا الى هذا كله، فان مرتاض كان بدون شك عندما كتب بهذا الشكل يريد التجديد.

فالى اي مدى يعتبر مرتاض مجددا في هذه الرواية ؟ من المعروف ان مرتاض في « دم ودخان » و« نار ونور » كان تقليديا الى حد بعيد في اللغة والسرد الخ... فهل خرج عن ذلك في « الخنازير » ؟ من المعروف والمتفق عليه ان التجديد في الشكل اي في جانب اللغة والاسلوب والبناء وما الى ذلك لا يمكن ان يكون له معنى او مبرر او ان يكتب له النجاح المطلوب الا اذا كان متماشيا مع التطور الفكري والاجتماعي والحضاري بصفة عامة، وان يكون ذلك نابعا من مستوى تفكير الكاتب نفسه.

فالتجديد – مثلا – لدى الان روب غرييه وغيره من كتاب الرواية الجديدة في فرنسا، وتركيز هولاء الكتاب على وصف الاشياء، والارتفاع بها مهما كانت صغيرة او تافهة الى مستوى الشخوص البشريين، وكذلك النزول بهؤلاءالشخوص إلى مستوى الاشياء، اي اعتبار الشخوص والاشياء في مستوى واحد، وانهم جميعا يكونون هذا العالم الذي نعيش فيه، ان هذا التجديد نابع من واقع المجتمع، والذي بفعل التطور العلمي والتكنولوجي وبفعل التجمعات السكانية الضخمة داخل المدن العظيمة، وبفعل فلسفات العصر المختلفة وخاصة منها الوجودية التي جعلت انسان هذا العصر يضع علامة استفهام كبيرة امام كل شيء، وحتى امام الامور التي كانت تعتبر مسلمات لا نقاش فيها، بفعل هذا كله وغيره جعل من الانسان مجرد رقم من الارقام في هذا الوجود، وفقد بذلك قيمته الكبرى، وزعامته التي كانت تجعل منه سيدا لهذا الكون وملكا عليه.

فمثلما فقد الانسان اذن زعامته في الكون وبطولته، فكذلك فقدهما في الاعمال الروائية لدى هؤلاء الكتاب.

هذا مثال فقط عن التطور الادبي، وان هذا التطور لا بد ان يكون منسجما مع عصره، ونابعا من اسباب ودواع موضوعية لا مفر منها.

فما هي الدواعي التي دعت مرتاض الى تلك اللغة وذلك الاسلوب ؟

نشير اولا الى ان موضوع هذه الرواية موضوع مألوف، وان المضمون ايضا الذي طرحه الكاتب عادي تماما، مخيم يحكمه مدير، وبعض المساعدين والمساعدات، ويسكنه مجموعة من ابناء الشهداء.

المدير وبعض مساعديه بيروقراطيون ولصوص وانتهازيون، اي بكلمة موجزة خونة، يقف في المقابل لهم مجموعة من المخلصين الذين يمثلون النقاء، الضمير

الحي، على رأسهم « الاحمر » وبجانب هذه القصة، هناك قصة اخرى موازية نجد فيها ايضا ان الخائن هو مدير الموسسة، جمال والمخلص الذي يعمل معه، هو ثابت.

الكاتب اذن في هذه الرواية التي كتبت في نهايات السبعينيات يريد ادانة الخيانة والبيروقراطية والانتهازية الخ... أي كل التصرفات السلبية التي كانت اثناء مرحلة السبعينيات تعمل على تخريب الاقتصاد الوطني، والبناء الوطني بصفة عامة.

فالموضوع كما لاحظنا موضوع مألوف وعادي، وبناء الرواية بدوره كان عاديا تماما. بل اكثر من عادي، حيث عاد بنا الكاتب الى نوع من الكتابات الرومانسية، او ما يشبه، تلك المسلسلات المصرية التي نعرف نهاياتها في حلقاتها الاولى، هذه النهايات التي تفكر في المتلقي وارضائه اكثر مما تعتمد على الاخلاص للواقع.

ففي هذه الرواية يعاقب كل الخونة والمجرمين قبل نهاية الرواية، المدير، وابن الحركي، وجمال، او يوحي لنا الكاتب بناء على الوقائع الملموسة أنهم سيعاقبون، بينما بنفس الطريقة ينال المخلصون جزاءهم.

هو اذن موضوع مألوف ومضمون مألوف، وبناء مألوف تقليدي إلى حد بعيد.

لذلك كله نعتقد أن مثل هذا الموضوع بالذات كان سيعالج بشكل أجمل وأكثر توفيقا ونجاحا ببناء أكثر واقعية، وكذلك بأسلوب ولغة واقعيين، مما كان سيتيح المجال للكاتب لكي يعيش مع شخوصه ويتعمق نفسياتهم، ويقدمهم في صراعهم اليومي الاكثر واقعية ووضوحا وإقناعا.

ولكن الذي نعتقده ان الكاتب قصد قصدا الى تغليف محتواه العادي بلغة اكثر ابهارا، والفاتا للانتباه، وقد تعمد في معظم الرواية كثيرا من المبالغة في تكديس المفردات اللغوية، والجمل وتتابعها، وتكديس الاوصاف، وتتبع الاشياء، الصغيرة دون ان يمنحنا أي إحساس بأن لذلك كله معنى ما. وقد حاول عن طريق التنويع في الاستعمال اللغوي، المفردات المفصول بعضها عن بعض بالنقاط، وعلامات الاستفهام، والتعجب، قلب الجمل، بدايات الجمل على خلاف الاسلوب العربي المألوف، عن طريق هذا كله وغيره حاول خلق جو خاص، الا ان مسار أحداث الرواية، وطبيعتها تكذب كل محاولة للتجديد، مما جعل الرواية تظل سطحية عادية مع مبالغة في اختلاق الاحداث وتكلفها كما مر بنا سابقا، عن طريق هذه الجمل المتقطعة والتي يتراوح حجمها ما بين كلمة واحدة واربع كلمات في الغالب، لا يقدم

الكاتب سردا قصصيا، كما هو مألوف، ولكنه يحاول ان يقدم واقعا معينا، حالة ما، ويركز على هذا الواقع، او هذه الحالة عن طريق الاكثار من الدوران حول الموضوع، مثلا « قعقعة الصحون، رنين الملاعق، نحاسها... صياح الاطفال.. احتجاجات الطباخين.. صراخ رئيسهم علي الطباخ... تكسر الموج بعضه فوق بعض... أصوات في اصوات »، (الخنازير، ص : 9)

وهكذا فالامر متروك للقارئ، كي يربط بين الجمل، ويسلسل الاحداث في ذهنه، وبطبيعة الحال فان هذه الجمل القصيرة او الفقرات المكونة من كلمة واحدة الى اربع كلمات عادة، تغلب عليها احيانا الاسمية، واحيانا اخرى الفعلية، وربما الحرفية.. نعتقد ان هذه الرواية كان يمكن كتابتها في شكل قصة قصيرة لا تتجاوز عشرين صفحة لولا ان الكاتب يبالغ في التفاصيل التي لا تكاد في كثير من الاحيان تضيف شيئا، خاصة وانه يأتي في كثير من الاحيان بهذه التفاصيل بعد تقديم المطلوب، فمثلا عندما يرى « الاحمر » سريره عاريا من الفراش، يدور في نفسه حديث عن هذا الظلم : اذ كيف ينام على سرير عار من اي فراش بينما ينام الاخرون جميعا على الفراش، هذا الحديث مع النفس لا يضيف شيئا وقد بلغ احد عشر سطرا، والامثلة على ذلك كثيرة في الرواية (انظر، مثلا ، ص : 21–22)

كما انه كثيرا ما يلجأ الى أسلوب الاستطراد، وهو في هذا يلتقي مع رشيد بوجدرة، مع الفارق في الطريقة والاسلوب ومنهج التفكير لدى كل من الكاتبين.

فعندما ذكر « الاحمر » – مثلا – بطانية السرير راح يحكي قصتها الطويلة، حاول تخيل تاريخها والمراحل التي مرت بها، مستطردا للحكاية عن صوفها، والكبش الفحل الذي جز منه الصوف، والمجزة، الخ....

ثم تطرق الى الوسادة واين عاشت الخ (انظر، ص : 24–26) ثم يحكي بعد ذلك حكاية السرير القديم بتوسع ايضا، مع العلم انه يجعل دائما هذه الاشياء قديمة، البطانية، والوسادة والسرير، والمحفظة الحمراء حتى تتاح له فرصة الحكاية عنها.

والكاتب يصطنع احيانا بعض التلوين في الاسلوب والاستعمال اللغوي كما نجد في الصفحة: 66–68–68 حيث يبدأ تقريبا جميع الجمل المتتابعة المتتالية ، والمتشابهة بحرف « و» العطف، 93 مرة وهو يعود الى هذه الاستعمالات في صفحات تالية، وهو هنا كأنما كان يحاول خلق نوع من الجو الاسطوري، خاصة وان الامر كان يتعلق بتصوير عملية اختطاف خيرة ليلا من طرف ابن الحركي، الا ان جو الحدث يظل عاديا تماما.

ولنلاحظ ايضا هذه الفقرة، واسلوبها: « فتشنا كل مكان... في الخيام لا ... تحت الاشجار لا ... على الشاطئ لا ... في المطعم لا.... في المستوصف لا... الخ »(الخنازير. ص: 73–74)

أي ان خيرة لم يجدوها في اي مكان من هذه الامكنة، ولكن ما هذا الاسلوب، وما الداعي اليه، وماذا افاد فنيا غير تكسير مشوه للجملة العربية.

سبب واحد كان سيجعل هذا الاسلوب مقبولا هو الايجاز او بمعنى آخر الاقتصاد اللغوي الذي يقدم معاني كثيرة في مفردات وعبارات قليلة، الا أن الكاتب، واعتمادا على صفحات روايته كلها لم يكن يهدف إلى هذا، فهو كثيرا ما يخدعنا بجمل موجزة بخيلة في مفرداتها، وكأنما هو بصدد كتابة برقية، فهو لذلك يخشى ان يدفع في مقابلها كثيرا، من المال، الا انه يعود مباشرة بعد تلك الجمل التي يكون المعنى قد فهم منها كاملا، على رغم إيجازها، ليأتي بسلسلة من الجمل المتتالية ليزيد الموضوع المشروح شرحا، ويطرح من خلالها كل التفاصيل، وكل الاحتمالات، فهذا الايجاز المتبع في الجمل اذن ايجاز خادع. وعلى العموم فاننا نشعر في معظم فقرات الرواية، وبسبب تكرار الجمل المتتابعة المتتالية. المتشابهة والمتساوية من حيث الحجم بأن جو أسلوب طه حسين يخيم على الكاتب، وخاصة في روايته « دعاء الكروان »

ومما تقدم يتضح لنا بأن الكاتب لم يكن في حاجة الى كل هذه « التنويعات » الاسلوبية لكي يصل الى كتابة رواية ناجحة، وان هذه التنويعات لا طائل من ورائها، وانها – في نظرنا – لم تؤد الى النتيجة التي نعتقد أن الكاتب كان يهدف اليها. وأن الموضوع بالذات الذي تناوله الكاتب كان في حاجة إلى مجرد لغة واقعية بسيطة، لكن بعد فهم اكثر عمقا للواقع وتناقضاته ومسار هذه التناقضات وحقيقتها واتجاهاتها.

عين الحجر(*)

برجوازية القرية

علاوة بوجادي

مازالت حتى الآن القرية أو البلدة أو البلدية هي المكان المفضل للرواية الجزائرية.

وفي هذه الرواية فان « عين الحجر» وهي كما يتضح من خلال صفحاتها مدينة صغيرة، أو هي قرية تجري بها معظم الأحداث.

ولعل الامكنة بالضبط التي تجري فيها الاحداث إذا أردنا تحديدا أكثر دقة هي، منزل مصطفى في حي « ليزانديجان » الذي يسكنه مع جدته فطومة واخته الزهرة، وفيلا سميرة في حي الاغنياء التي تسكنها مع والديها سي بلقاسم والسيدة نفيسة، وأختها ناديا.

وسوق الخضر حيث يشتغل مصطفى مع الحسين الخضار، وحيث يسكن الشيخ عبة حارس السوق، ومزرعة سي سليماني حيث تقضي السيدة نفيسة وابنتها ناديا أياما مع أسرة هذا الفلاح الاقطاعي الريفي المتكونة منه ومن زوجته السيدة خيرة وابنهما جعفر، وكذلك من بين الامكنة في هذه الرواية مقر الوالي سيدي مرزوق الذي يحمل اليه الخثير المريض وهو ابن الجارة السيدة كلثوم في حي « ليزانديجان »، وهنالك امكنة اخرى ثانوية، من بينها بعض طرقات القرية، ومنازل الاصدقاء.

---

* – نشرت هذه الرواية مسلسلة في مجلة المجاهد الاسبوعية سنة 1979، في الاعداد (968–976) بعنوان : قبل الزلزال. وقد اعتمدنا في دراستها هنا على طبعة المؤسسة الوطنية للكتاب سنة، 1988 وبهذا العنوان درسها د/ الاعرج واسيني، في كتابه : اتجاهات الرواية العربية في الجزائر. انظر طبعة المؤسسة الوطنية للكتاب. ص : 448

وقبل الدخول في تفاصيل الرواية نشير الى ان الاهتمام بالمكان ووصفه في هذه الرواية قليل، فقلما يتوقف الكاتب امام المكان لكي يعطيه حقه من الوصف، وحتى عندما يحاول فعل ذلك فانه ينسى الاهتمام بالمكان، لكي يتتبع حركة الشخوص مثلما فعل عندما حاول وصف حي « ليزانديجان » فراح يركز حديثه على السكان الفقراء لهذا الحي، متحدثا عن اصلهم وفئاتهم، ونزوحهم الى هذا الحي قادمين من الارياف، وامالهم الخ ...

فهو لا يزيد في وصفه لهذا الحي الفقير عن قوله عنه بأنه « منكفئ على نفسه، نبت في عفوية فوق قطعة ارض مهجورة بطرف المدينة، عاش على هامش عين الحجر »[1]...

ومع عمومية هذا الوصف، كما يبدو واضحا، فانه ما يلبث ان يتخلى عنه لكي ينتقل للحديث عن سكان الحي : « وعاش ساكنوه يطوون الامهم بين ضلوعهم، يسعون الى اللقمة بالف سبيل وسبيل، فيهم المتسولون وسواق عربات الحمير وباعة الفول المغلى والحمالون، وفيهم اللصوص والعاهرات والخادمات لدى الاسر المرفهة و... »[2] وحتى ضريح سيدي مرزوق، وعلى الرغم من اهميته الكبيرة لدى سكان عين الحجر فان وصفه ياتي موجزا جدا :« فوق التلة المقابلة المشرفة على المدينة تنتصب قبة ضريح سيدي مرزوق »[3] ثم « الضريح موغل في القدم لا احد يلم بتاريخه ولا احد يعرف عن صاحبه شيئا... »[4]

فالاهتمام اذن في هذه الرواية مركز اكثر على الحدث وعلى حركة الشخوص.

تقوم هذه الرواية على موضوع رئيسي، هو قضية الطبقية، طبقية انماط العيش واساليب الحياة، وطبقية الفارق المادي بين افراد المجتمع.

ومنذ البداية يتضح كأن الرواية تشير– مع العلم أن احداثها تدور زمانيا في المرحلة الأولى لاستقلال الجزائر – الى أن الوضع الاجتماعي ومن ثم الطبقي ظل على الحالة نفسها التي كان عليها زمان الاستعمار.

---

1 – عين الحجر، ص، 55

2 – المصدر نفسه، الصفحة نفسها

3 – عين الحجر، ص، 56

4 – المصدر نفسه، ص، 56–57

فالرواية تبدأ بالحديث عن مصطفى بطلها بعد خروجه من فيللا سميرة متجها الى بيته المتواضع في حي « ليزانديجان ».

وطبعا لا يخفى هنا ايحاء هذه التسمية « ليزانديجان » التي كانت تطلق في عهد الاستعمار على فقراء الجزائر، لم يتغير شيء اذن.

وعلى الرغم من ان مصطفى كان قد قضى ليلته مع سميرة في غرفتها فان لا شعوره يعود به، وبسبب هذا اللقاء بالذات الى سوزي التي كان يلعب معها طفلا، ليتذكر حنانها وبراءتها وهي طفلة صغيرة، ولكن ليتذكر ايضا امها العنصرية التي تنتمي الى عنصر « الاقدام السود » والتي كانت تمنعه من اللعب معها، الى درجة انها ضربت ابنتها مرة وامرت جدته التي كانت تعمل عند السيد والسيدة جول بمنعه من « اللعب مع سوزي، فضربته الجدة ضربا شديدا، وأخافته برشاش المسيو جول »[1]

فما الفارق اذن بين الماضي والحاضر ؟

من قبل كان يمارس عليه العنصرية المستعمر، فكان يمنع من اللعب مع سوزي الطفلة، وقد كان طفلا وكانت جدته تشتغل لدى اسرة هذه الطفلة، واليوم يشتغل هو وجدته معا لدى اسرة سميرة. لقد ظل الكاتب منذ البداية يعمل على ابراز هذا الجانب، جانب الطبقية في كل فصول الرواية، وسيتضح ذلك اكثر من خلال تتبع الشخصيتين الرئيسيتين في الرواية وبقية افراد الجماعة التي ينتمي اليها كل منهما.

فما هي صورة سميرة ومصطفى في هذه الرواية ؟

ما هي طبيعة شخصية كل منهما ؟ ما هي طريقة تفكيرهما، وعيشهما الخ...

ان تذكر سوزي من قبل مصطفى بعد لقائه بسميرة لا يدل على انهما متشابهتان، فالتشابه بينهما يتمثل – فقط – في كونهما تنتميان الى العالم الاخر الذي لا ينتمي اليه مصطفى، بل ينتمي الى عكسه تماما.

وعلى العكس من ذلك فانهما – وحسبما يتضح من صفحات الرواية تختلفان كل الاختلاف، فاذا استنتجنا من خلال صورة سوزي التي ظلت عالقة بذهن مصطفى منذ عهد الطفولة، كل معاني الجمال والبراءة، على العكس من بقية افراد اسرتها، فان العكس تماما هو ما سنستنتجه بالنسبة الى صورة سميرة.

---

1 – عين الحجر، ص، 14

فاذا كان مع سوزي لا يشعر باي فارق بينه وبينهما لانهما كانا طفلين يلعبان معا، فان مصطفى مع سميرة يشعر بكل الفوارق منذ البداية.

فهي اولا تناديه : « مستافا » عوض مصطفى، وهي عندما ينام معها تخاطبه بقولها : « تو، ايه مانيفيك » عوض : انت رائع.

وهي بعد هذا فتاة جسور، تحدد معه موعدا، وعندما ياتي الى غرفتها وتراه مترددا تقدم هي على الخطوة التالية فتشجعه على نزع ملابسه... دون أن نجد في النص الروائي اية اشارة الى اي احساس بالخوف او التردد، فكأنما الامر عادي تماما بالنسبة اليها، وكأنما الاحداث تجري في عاصمة اوروبية متحررة كل التحرر.

وهنا تجب الاشارة الى أن قارئ الرواية لا يمكن ان يقبل شخصية سميرة على علاتها.

فكل شيئ في هذه المدينة الصغيرة، او بالاحرى القرية يدل على طابعها الريفي ... البسيط، فهل يعقل – مهما كان تطور اسرة سميرة في أساليب الحياة وطرق العيش، ومهما كان تحررها ان توجد فيها فتاة بهذا الشكل بالذات الذي صوره بها الكاتب ؟

فحتى اذا استسغنا « غربيتها » في كثير من مظاهرها : في لباسها، ومشيتها، وحركاتها، وحديثها المفرنس فهل يقبل تصرفها في دعوتها للشاب الذي يعمل لدى اسرتها ويحمل الخضر والفواكه للاسرة كل يوم للمبيت معها ؟ دون حتى اي شعور بالخوف ؟

ولعل مبالغة الكاتب لا تتمثل في هذه الدعوة وهذا اللقاء بالذات، ولكنها متأتية من عدم التمهيد لهذه الدعوة وهذا اللقاء.

فلو ان هذا اللقاء كان يمثل – مثلا – قمة الحب، او حتى الانسجام بين الطرفين لكان مقبولا ومعقولا ولكنه لم يكن كذلك.

فسميرة كما يتضح من صفحات الرواية تختلف في طبيعة شخصيتها كل الاختلاف عن مصطفى، فحتى في التعليم فان سميرة تدرس الفرنسية، بينما مصطفى يدرس العربية، وبينما « كان يحبها في صمت، يطوي لواعجه وآلامه بين ضلوعه »[1] كانت هي تعبث به، وتقضي معه بعض وقت فراغها لا غير.

---

1 – عين الحجر. ص، 24

فمنذ صار مصطفى يشتغل عند حسين الخضار، وصار يحمل الخضر والفواكه الى فيللا سميرة بدأ يعجب بسميرة وجمالها، وبدأ يحبها بصمت، ويعيش في كثير من الاحيان في أجواء من الخيال الرومانتيكي العذب مع حبيبته وهو يتخيل نفسه في كثير من صور البطولة الرائعة التي ترفعه الى مستوى، وطبقة سميرة.

وبينما مصطفى يعيش في حبه الصامت، نظرا الى طبيعته الريفية المحافظة، والطبقة الفقيرة التي ينتمي اليها، فان سميرة على العكس من ذلك تعيش في جو من المظاهر البرجوازية البراقة حتى « لكأن شيء بلقاسم يعلن عن وجوده بعين الحجر بواسطة ابنته »[1]

وعلى العموم فان شخصية سميرة في هذه الرواية، على الرغم من حسن اختيار الكاتب لها ينقصها كثير من العمق الذي يتتبع نفسيتها ويعرفنا باللحظات الحاسمة في تطورها حتى تكون أكثر اقناعا، وحتى لا تبقى عائمة على السطح.

ان ما ينقص شخصية سميرة، هو الصراع، الصراع الحقيقي المعبر عن واقع نفسيتها الداخلية، ففي القسم الاول من الرواية قدمها الكاتب في صورة فتاة لاهية، عابثة، بحثت عن شاب تقضي معه بعض الوقت فوجدته في شخص مصطفى فكانت حياتها معه لعدة ليال حياة لهو وعبث لا غير دون صراع او طرح لاية اسئلة من قبلها، لماذا اختارت مصطفى بالذات ؟ لماذا تفعل هذا ؟ الخ...

وفي القسم الثاني من الرواية، فقط بدأ الكاتب يحاول خلق بعض الصراع عندما جعل سميرة تناقش مع نفسها قضية علاقتها بمراد، وتتساءل عن طبيعة علاقتها بمصطفى. إلا أن هذا الصراع جاء متكلفا لأنه طرح في غير وقته، اي بعد فوات الاوان، اذ كان من المفروض، وهي ذات علاقة سابقة مع مراد، ان تطرح هذه العلاقة للتساؤل مع بداية علاقتها الجديدة، اي عقالتها مع مصطفى وليس العكس مثلما نجد في الرواية، ومما ادى الى تكلف واضح وضعف في مسار الحدث...

تحاول الرواية في الفصل الثاني من القسم الثاني ان تزيد شخصية سميرة وضوحا، وذلك بتقديم صورة عن الحفلات الراقصة المختلطة التي يقيمها أبناء وبنات هذه الطبقة البرجوازية، أي تصوير جو الأصدقاء الذين تنتمي إليهم سميرة، وهو جو الرقص، والغناء، والنكت الخ...

---

1 – عين الحجر، ص، 63

ويشير هذا الفصل إلى أن سميرة في الواقع لا تحب مراد الذي كانت أخته تحاول فرضه عليها ولكنها تميل أكثر إلى رشيد.

وبهذا يزداد الاقتناع بأن شخصية سميرة ينقصها كثير من التحليل المقنع، والا فما معنى هذا الارتماء الكامل في أحضان مصطفى، ثم التخلي عنه والعودة الى مراد الذي لم يعد يقنعها. ولكنها تترك هذا أيضا لتختار رشيد، الذي تتخلى عنه بدوره فجأة لكي تنعزل عن جميع الاصدقاء والصديقات، وكل هذا دون تبرير واضح، أو تحليل مقنع على الرغم من أن الكاتب يعلمنا بأنها مازالت تفكر داخليا بأن فارس أحلامها لابد أن يأتي فى صورة مصطفى.

الفارق بين شخصية سميرة، وشخصية مصطفى أو بين البرجوازية المستهترة، والطبقة الفقيرة البسيطة المنكفئة على نفسها واضح من البداية... وإذا كان جانب منه قد اتضح من خلال تتبعنا لبعض جوانب شخصية سميرة، فان تتبعنا لشخصية مصطفى سيزيده وضوحا بدون شك.

لقد أشرنا في السابق الى وجود عنصر الصدق في حب مصطفى لسميرة، وكل التفاصيل التي تأتي بعد ذلك تشير الى هذا، الا ان هذا الصدق العاطفي كان مشوبا بنظرة الشك والريب التي ظل مصطفى ينظر بها لسميرة منذ البداية، الى درجة احساسنا ببعض التسرع من طرف مصطفى في حكمه على سميرة، فهو الذي يموت في حبها يصرح للشيخ عبة بعد أول لقاء له معها بأنها « كانت تبتسم ابتسامة لا أدري كيف أصفها، وكأنها كانت تتساءل هل ان هذا المخلوق الواقف امامها سيؤدي المهمة »[1].

فهل تكفي عبارة « انت رائع » التي قالتها له لكي يغير نظرته اليها من شاب غارق في الحب، الى متشكك في نواياها ؟...

كان على الكاتب – على الاقل – ان يترك الزمن هو الذي يفعل فعله في الاحداث، ويؤثر في مسارها، فيجعل نظرة مصطفى الى سميرة تتغير بعد تكرار اللقاءات، وخاصة ان اللقاءات تكررت فعلا.

ومن الواضح بعد هذا أن صورة مصطفى بعد تكرار اللقاءات صارت اكثر وضوحا، وان تصوير صراعه النفسي صار اكثر واقعية وصدقا وتعبيرا عن اضطراب مشاعره الداخلية.

---

1 – عين الحجر، ص، 32

فلقد حاول مصطفى اكثر من مرة مقاومة رغبته في الذهاب الى موعده مع سميرة، بسبب انها لا تحبه « لن اذهب ... انها ليست رشيدة ولا انا عبة، انها تستغل عواطفي لتجعل مني (ديكي) [1] آخر ينقلب بالليل الى شاب فحل عاهر »[2].

والاجدر بنا هنا أن نتوقف قليلا عند قصة الشيخ عبة هذا، ونظرا الى انه كان اقرب المقربين إلى مصطفى فان شخصيته بدون شك ستزيدنا وضوحا بشخصية مصطفى.

لقد كان الشيخ عبة أول من اعترف له مصطفى بعلاقته بسميرة وبعد ساعات قليلة من لقائه الأول معها. كان مصطفى يرتاح كل الارتياح للشيخ عبة ويبثه كل اسرار نفسه فمن يكون الشيخ عبة هذا ؟

لقد عرف الكاتب كيف يقدم هذه الشخصية الجذابة، بتقديمه لكثير من جوانبها وأسرارها، وبتغليفها بجوانب وأسرار أخرى ظلت في طي الكتمان حتى بعد أن انتهت الرواية.

يقول الشيخ عبة في احدى الفقرات : « لقد فقدت الرغبة في الحياة، عملت حينا حاجبا بالبلدية، ثم في مزرعة للتسيير الذاتي، وأخيرا حارس سوق » [3]

وفي حوالي ثماني صفحات تقريبا [4] يحكي الشيخ عبة قصة حياته الماضية كاملة.

جرب هذا الرجل كل انواع الحياة وهمومها ومشاكلها، سجن، وعذب، وعاش بطولات مختلفة في حياته، دخل صفوف الثورة التحريرية، وللشيخ عبة بعد هذا قصة حب رائعة.

هذه القصة هي سبب الجرح الموجود في ساقه اليسرى، فقد امر قاضي المدينة في ذلك العهد، وهو في الوقت ذاته ابو حبيبته رشيدة بسجنه، عندما علم بعلاقته بابنته مع أنه خطبها، وفي السجن أراد القاضي خصيه لولا أن عبة هدده بالقتل لو فعل ذلك، وقد كان شابا قويا، فاكتفى القاضي باحداث هذا الجرح في ساقه.

---

1 – كلب سميرة

2 – عين الحجر، ص، 63

3 – المصدر نفسه، ص، 47

4 – انظر، عين الحجر، ص، 40 وما بعدها

ثم يتوسع عبة فيحكي عن زواج رشيدة او بالاحرى تزويجها بالقوة من قبل أبيها لشيخ ظلت معه عامين ثم طلقت، وتزوجت بعد ذلك مرتين وطلقت أيضا، وهو الآن لا يعرف اين هي مع شوقه الشديد إليها.

وعلى الرغم من الطريقة البطولية التي تعرف بها عبة على رشيدة، عندما رأته يتغلب على أحد «هزية» عين الحجر كان يعتبر نفسه اقوى واحد في البلدة، فتعرفت به بعد ذلك واحبا بعضهما، وصارا يلتقيان في الخفاء، على الرغم من هذا كله فاننا نجد ان هذه العلاقة بين عبة الفقير الفتوة، ورشيدة الجميلة، ابنة القاضي اكثر صدقا وواقعية من العلاقة بين مصطفى وسميرة، وذلك لان العلاقة الاولى قامت على الحب والاخلاص بين الطرفين ، ولذلك كان معقولا ان تجمع بين طرفين ينتمي احدهما الى الطبقة الشعبية الفقيرة، بينما ينتمي الثاني الى الطبقة الغنية.

اما هذه العلاقة الثانية، التي نعلم فيها ان مصطفى كان مخلصا في حبه وهو الفقير الذي لا يملك القرار، بينما سميرة تتخذ هذه العلاقة لمجرد اللهو، فيبدو انها علاقة واهية غير واقعية، وخاصة ان مسار الرواية لم يقنعنا حتى بوجود جوانب معينة في شخصية مصطفى تكون قد أدت إلى إعجاب سميرة به. وهي التي – وحسبما جاء في نص الرواية – ليست محرومة من أي شيء، ويمكنها الحصول على كل انواع اللهو مع الاصدقاء وقتما أرادت.. ان الامر الوحيد، اذن، الذي كان ممكنا ان يجمع بين مصطفى وسميرة في هذه الرواية وبالنظر الى الوضعية والطبقة التي ينتمي اليها كل من الطرفين هو الحب، اما ما عدا ذلك فهو في رأينا غير مقبول.

وحتى اذا افترضنا ان الكاتب كان يسعى من وراء تصوير هذه العلاقة الى الكشف عن طبيعة انحلال البرجوازية الجزائرية الغنية لفترة ما بعد الاستقلال. فان طبيعة هذا الانحلال لن تتم بهذه الطريقة التي تجعل هذه الطبقة تفتضح امام الملأ، ولكن لهذه الطبقة طرقها الكثيرة المتنوعة والغنية في الانحلال.

تحاول هذه الرواية تصوير ذلك التحالف الطبيعي بين برجوازية المدينة واقطاعية الريف، وذلك لان مصالحهما مصالح مشتركة.

ولقد حالف الكاتب التوفيق بصفة عامة عندما جعل اسرة سي بلقاسم تعمل على التقرب من اسرة سي سليماني، وربط علاقة مصاهرة معها عن طريق ابنتها ناديا التي كانت تتمنى تزويجها من جعفر ابن سي سليماني، الا اننا سنكتشف بعض الخلل عندما نعود الى التفاصيل.

نشير أولا فيما يتعلق بهاتين الاسرتين الممثلتين للبرجوازية والاقطاعية الى وجود تشابه كبير بين كل من سي بلقاسم « البرجوازي » وسي سليماني « الاقطاعي »

وذلك في طبيعة شخصيتهما وتاريخهما، وان كان الكاتب لم يركز عليهما التركيز الكافي وخاصة سي سليماني. فاذا كنا نعلم ان سي بلقاسم كان من قبل من المتعاونين مع السلطات الفرنسية، وان هذا الامر كان باستمرار ينغص عليه حياته بعد الاستقلال، وهو لذلك يسعى اما الى توطيد علاقاته بالأسر الكبيرة في عين الحجر، وفي هذا الاطار تندرج قضية محاولته التقرب من اسرة سي سليماني والعمل على مصاهرتها، او الرحيل عن عين الحجر الى مدينة اخرى كبيرة مثل قسنطينة او العاصمة.

واذا كنا نعلم أيضا بأن سي بلقاسم هذا تدور حوله بعض الشبهات تتعلق باختلاسات مالية في الادارة التي يعمل بها الخ...

اذا كان هذا هو الامر بالنسبة الى سي بلقاسم فان سي سليماني بدوره لا يختلف عن صاحبه كثيرا:

« ثم انني مجاهد قديم ».

تدت عنها (زوجة سي سليماني) ضحكة ساخرة وقالت متهكمة:

– مجاهد قديم ...

لم يأبه لتهكمها واردف:

– هذا ما اقوله للناس وهم يصدقونني... مجاهد قديم لا يمكن ان يصاهر: « حركيا » قديما [1].

ولا شك بعد هذا ان هنالك بعض المبالغة في تصوير اقطاعية سي سليماني.

وفي هذا المجال نشير اولا الى ان الكاتب يقدم جو ضيعة سي سليماني بشكل يجعله يشبه الى حد بعيد جو « العزبة » في المسلسلات المصرية، وذلك في وصف جمال الطبيعة وتمتع ناديا بها وكذلك انفرادها بجعفر، واعتراف هذا بحبه لها، على الرغم مما بدا عليه من حياء وتردد، وهنالك خاصة مبالغة واضحة في وصف العلاقة بين سي سليماني وزوجته السيدة خيرة من جهة وفلاحي الضيعة من جهة

1 – عين الحجر، ص، 179

اخرى، الى درجة شعورنا احيانا بان الرواية لا تتحدث عن جزائر ثورة المليون ونصف المليون شهيد، وجزائر التسيير الذاتي الخ...

ولكنها تتحدث عن الاقطاع في روسيا مثلما تحدث عنه غوغول في « الارواح الميتة » أو غيره من كتاب روسيا الكبار في القرن التاسع عشر.

فعندما تبدي ناديا – التي قضت اياما مع امها في زيارة ضيعة سي سليماني – اعجابها بنشاط الفلاحات وادبهن، ترد عليها السيدة خيرة :

« لا تنخدعي بذلك يا عزيزتي... إنه سوط عمك سليماني هو النشيط »[1]. فما هي صورة سي سليماني هذا ؟

« يتفقد المزرعة. وجهه ناقم. عيناه ساخطتان

لا يرد على تحيات الفلاحين والفلاحات يكلم الجميع في ازدراء. يطوف بالاصطبلات، بالمخازن، يسأل عن الدرس، ينتقل الى المرج لتفقد المواشي، يجد دوما سببا للزجر والتقريع والشتم، وعند الضرورة الصفع والركل »[2].

وما سليماني سوى صورة عن الاقطاعين الاخرين في الريف، فالفلاحون العبيد « يجب ان يعاملوا بكل الشدة وكل التحقير حتى يضلون (كذا) شاعرين بقيمتهم الحقيقية وانهم لا يختلفون عن البهائم سوى في انهم اقدر على نكران الجميل وعلى الخداع والكذب والمماطلة »[3].

لا ينكر احد وجود الفوارق الطبقية، التي قد تكون كبيرة احيانا بين سكان الريف، وجود فقراء لا يملكون شيئا واغنياء يملكون كل شيء، الا ان الصورة التي صور بها الكاتب العلاقة بين الاقطاعيين وفلاحيهم العبيد لا تتناسب بهذا الشكل مع الريف الجزائري لما بعد الاستقلال.

فاذا لم يكن من الواقعية في شيئ الادعاء، بان الثورة التحريرية الجزائرية الكبرى قد حررت الانسان الجزائري من كل ظواهر التخلف، وقضت على كل رواسب الفروق الطبقية لديه، فليس من الواقعية في شيئ أيضا الادعاء بأن الاقطاع

---

1 – عين الحجر، ص، 168

2 – المصدر نفسه، ص، 172

3 – المصدر نفسه، ص، 173

في الجزائر ظل قائما بالشكل نفسه الذي كان عليه زمان الاستعمار او مثلما كان موجودا في روسيا القرن التاسع عشر.

لقد اختار الكاتب ان يكون زمان احداث روايته السنوات الاولى للاستقلال، ولذلك لم يشر ولو إشارة خفيفة الى الثورة الزراعية التي جاءت ثورة على الاقطاع، ولكنه فضل الحديث عنه على هامش الحدث الرئيسي للرواية بصفته وضعا قائما وامرا واقعا، ولم يفعل الشيئ نفسه مع البرجوازية التي ركز عليها اكثر والتي عمل على تحديد مصيرها تحديدا واضحا. فمن البداية، ومن المقدمات توحي لنا الرواية بان هذه الاسرة البرجوازية، اسرة سي بلقاسم، هي اسرة مزيفة ومنخورة من الداخل، وهي لذلك لابد ستسير نحو الانهيار. لقد سبق ان تعرفنا على شخصية سميرة المذبذبة غير المستقرة على شيئ، وغير الواقعية، فهي باستمرار تعيش جوا من الزيف...

وتعرفنا على بعض جوانب شخصية ناديا – وهي على كل حال شخصية ثانوية –، وعلى الرغم من ان هذه الشخصية تبدو اكثر وضوحا واكثر واقعية مع ذاتها، وتائرة على الواقع المزيف المحيط بها في كثير من الاحيان، الى درجة تفكيرها في صفع امها التي حاولت تقديمها طعما للتقرب من اسرة سي سليماني، على الرغم من هذا فانها ترغم في كثير من الاحيان من طرف المحيطين بها على ممارسة الزيف، وان كانت ستنتصر في الأخير عندما تقرر بعد عودتها من ضيعة سي سليماني ، ان ترفض رفضا قاطعا ذلك الزواج المصلحي كما تقرر بناء حياتها بنفسها وتحمل مسؤوليتها كاملة ببداية العمل في التعليم.

ولقد قصد الكاتب قصدا الى ابراز العناصر الخيرة والايجابية في هذه الاسرة، فهذه سميرة ايضا تلتقي في الاخير مع مصطفى الذي يعلمها بانه سيواصل الدراسة، فيجري بينهما هذا الحوار القصير والمعبر :

« صحيح ؟ كم أنا مسرورة لأجلك.. اتركك الآن.

لست ادري هل أقول وداعا أم إلى اللقاء.

– لا تقولي شيئا ...

شدت على يده. ضغط عليها. لبثا هنيهة يرنوان الى بعضهما البعض، انصرفت، تابعها لغاية ان غيبتها عطفة الشارع »[1].

1 – عين الحجر، ص، 215

وتنتهي الرواية بقرار عودة سميرة الى الثانوية، وسفر الاب الى قسنطينة للاشتغال هناك وتأزم الامر بينه وبين زوجته التي تمثل الزيف في اقصى مظاهره، فهي ذات علاقة جنسية سابقة مع الشيخ الذوادي خادم سيدي مرزوق، وهي تصرح لزوجها بان سميرة وناديا ليستا بنتيه، وعندما يشتد النقاش بين افراد الأسرة في موضوع ناديا، وتهجم هي على ناديا لتضربها يصفعها زوجها. فتأتي بزجاجة من الكحول وتهم بالانتحار.

للشعوذة ايضا مكانتها في هذه الرواية، فالمجتمع الجزائري وخاصة الريفي منه ما زال يؤمن بكثير من مظاهر السحر والشعوذة والخرافات التي يمثلها عادة مشعوذون محترفون، كما يمثلها ما يتكون من مظاهر الخرافة والادعاءات المختلفة عن « اولياء الله الصالحين »

وفي هذه الرواية فان من يمثل هذا الجانب هما سيدي مرزوق وخادمه الشيخ الذوادي، فكثيرا ما يتردد في صفحات الرواية وخاصة لدى سكان حي « ليزنديجان » عبارة « يا سيدي مرزوق فرجها علينا » ومع ذلك فان الايمان بسيدي مرزوق لا يقتصر على الفقراء ولكنه يتعداه الى طبقة الاغنياء، الذين « لا يتاخرون عن التبرع بالاموال والدقيق والسمن لتنظيم الزردة، واجدين في ذلك تكريسا لجاههم ونفوذهم » [19]

وعلى الرغم من ان هذا الفصل الذي خصصه الكاتب للحديث عن اقامة زردة سيدي مرزوق تبركا به وطلبا لشفاء « الخثير » المريض، قد يبدو جانبيا بالنسبة الى المسار الرئيسي للرواية، او زائدا ، فان اهميته لا تخفى على أحد بسبب انه يضفي مزيدا من الضوء على جوانب من المعتقدات الشعبية وعلى انتشار الشعوذة والخرافة لدى هذه الفئات واستغلالها من قبل هؤلاء المشعوذين ومدعي السحر واشفاء المرضى والمجانين. ولقد وفق الكاتب الى درجة لا بأس بها في اعطاء صورة جيدة عن هؤلاء من خلال صورة الشيخ الذوادي صاحب النزوات الكثيرة الذي يقبض المال ويعبث بالنساء الجميلات.

عندما تشكو الزهرة – مثلا – لجدتها من عبثه معها ترد هذه قائلة : « الشيخ صاحب نزوة... في السابق كان اذا اعجبته بنت اجلسها في حجره... هذا معروف عن المشايخ والمرابطين منذ القديم.. الناس تتقبل نزواتهم.. فليس فيها ما يضر » [2]

---

1 – عين الحجر، ص، 57

1 – عين الحجر، ص، 78

ثم عندما تزوره الزهرة قبل زفافها، وكانت العادة ان كل فتاة لابد ان تزوره قبل الزفاف – فانه يلعب معها فصلا عجيبا عندما يعريها من كل ملابسها داخل مقر الوالي ويبدأ في تقبيلها ولحس جسمها في حمى من الجنس، وعندما تفيق الى وعيها تسرع في ارتداء ملابسها وتبصق في اتجاهه وهي خارجة.

ثم ان سلطة الشيخ الذوادي هذا لا تقتصر على الفئات الفقيرة، ولكنها، تتعداها الى افراد من الطبقة الغنية، فهذه الطبقة المرفهة لا تختلف عن الاخرى الا بمظاهرها المادية، اما من حيث التفكير فانه هو نفسه تقريبا، فها هي نفيسة – مثلا – زوجة سي بلقاسم تبعث بمائة دينار للشيخ الذوادي، وتعد بزيارة قادمة معتذرة عن تقصيرها سابقا في الزيارة.

وسيتضح من ثنايا احداث الرواية بأن هنالك علاقة جنسية بين الشيخ الذوادي والسيدة نفيسة، وان احدى بنتيها « ناديا » على الاقل من صلبه. لان سي بلقاسم زوج نفيسة كان عاقرا.

ما تبقى من سيرة لخضر حمروش [1]

الواقعية الاشتراكية، القرار والواقع

الاعرج واسيني

اذا كانت رواية الزلزال للطاهر وطار قد كتبت لكي تصور بداية مشروع الثورة الزراعية، فان رواية واسيني الاعرج « ما تبقى من سيرة لخضر حمروش » كتبت في عام 1980 اي بعد مرور مرحلة كاملة، هي مرحلة تطبيق الثورة الزراعية.

واذا كانت رواية وطار تصور خوف الاقطاعية من الثورة الزراعية الزاحفة بقوة، حتى قبل البداية الفعلية لهذه الثورة فان رواية واسيني تصور هذه الاقطاعية والى جانبها البيروقراطية المعارضة، في وقوفها ضد الثورة الزراعية دفاعا عن مواقعها ومصالحها اي اننا اذا كنا مع رواية وطار ما زلنا في اطار التخوف والحذر ومحاولة الاحتياط للامر قبل وقوعه، فاننا مع رواية واسيني في قلب المعركة في قلب الصراع بين الاقطاعية وحلفائها من البيروقراطيين الرجعيين من جهة، والقوى التقدمية من فلاحين صغار وطلبة وغيرهم من جهة أخرى.

مع الاشارة بعد هذا الى أن كلتا الروايتين تنطلق من موقف السلطة ومؤيدة لها، فقرار الثورة الزراعية هو قرار السلطة وبالذات قرار الرئيس الراحل هواري بومدين الذي كان يتهم احيانا – وبسبب اخلاصه في الاتجاه الاشتراكي – حتى بالشيوعية.

وتجدر الاشارة هنا الى أن احدى الروايتين « الزلزال » كتبت لكي تصور مرحلة ازدهار الاتجاه نحو الاشتركية في الجزائر، وهي مرحلة الشروع في الثورة الزراعية، وهي بدون شك مرحلة ازدهار الفترة البومدينية، بينما كتبت الرواية الثانية « ما

---

1 – اعتمدت في دراسة هذه الرواية على طبعة دار الجرمق، سوريا.

تبقى من سيرة لخضر حمروش » لكي تصور بداية التراجع عن تطبيق الثورة الزراعية، مع العلم ان كتابتها انتهت بعد حوالي سنة وبعض الشهور من وفاة هواري بومدين.

ومع ذلك فان كلتا الروايتين تنتصر للثورة الزراعية، وتصور انهزام الاقطاع، أو شبه الاقطاع وانهياره أمام قوى التقدم، والفارق بين الروايتين بعد هذا يكمن أولا في التفاصيل والجزئيات، وطريقة كل كاتب في تناول موضوعه، ويكمن ثانيا في اختلاف طبيعة المرحلتين اللتين صورها كل منهما.

واذا كنا في رواية « الزلزال » نعيش الصراع مع الآخر من وجهة نظر بطل الرواية الاقطاعي عبد المجيد بوالارواح، فمن خلال المنولوج الداخلي، ومن خلال تعبير هذا الرجل عن أحاسيسه ومواقفه، ومن خلال تصرفاته وأحاديثه مع الاخرين الخ... نتعرف على رأيه في الثورة الزراعية وغيرها.

فاننا في رواية « ما تبقى من سيرة لخضر حمروش » نعيش هذا الصراع من وجهة نظر مخالفة تماما، وذلك من خلال شخصية عيسى المجاهد القديم، والمناضل البسيط والفلاح الصغير حاليا، ونحن بعد هذا، ومنذ الصفحات الأولى لرواية واسيني ندخل في اطار الصراع الفعلي، والمجابهة مع الآخر، فالمرحلة حاسمة وكل طرف من طرفي الصراع يدافع عن موقفه بكل حزم، وبكل ما يملك من قوة : « افرح او مارس حزنك بشهية، فغدا في مثل هذا الوقت بالذات، في مكان ما وفي زمان ما، لا استطيع تحديده ستعود البنادق التي يلوح بها في الهواء الى صدروكم، أو الى صدورنا.. من يدري ؟ الامر يحتمل احتمالين لا أكثر» (ما تبقى... ص : 12)

الأمر اذن واضح، وهناك امران فقط، او احتمالان كما جاء في النص : النصر، بنجاح الثورة الزراعية، ومن تم الاشتراكية، او الهزيمة هزيمة الثورة الزراعية والاشتركية معا، والقضية ليست قضية مصادفة او قدر، ولكنها قضية عمل وحركة، ووعي بالظروف ولذلك فان كلا من الطرفين في هذه الرواية يتحرك من جانبه لكي يفرض وجوده، ولكي ينتصر على الاخر : « اذا لم نقف في وجهها (الظروف) الان ستأكلنا كفراخ الطير، ووقتها علينا ان ننتظر الازمنة القادمة حتى تحبل لنخرج رؤوسنا المدسوسة داخل الحفر، وقد تقطع هذه الرؤوس لانها تحمل عيونا ترى اكثر مما ينبغي لها ان ترى، وتحلم بتيجان القمح والشعير » (ما تبقى... ص : 13)

هذه الرواية اذن تتناول الموضوع بجدية واضحة، وهي تصور مرحلة حاسمة للغاية في تاريخ الجزائر، مرحلة استطاع الكاتب ان يتحسسها بكثير من الوعي، هي نهاية المرحلة البومدينية، وبداية مرحلة جديدة بما تحمله هذه المرحلة الجديدة من التساؤلات المشروعة عن الاتجاه الذي تسير فيه الجزائر ابتداء من الثمانينيات ونحن نشعر ان موت أحد عمال الثورة الزراعية مخروقا، كان يرمز بالذات الى « بومدين » : « قبل ايام فقط دفناه... كان طيب القلب... حملناه في القلب... الله يرحمك يا عبد القادر... كنت سيد الرجال... » (ما تبقى.... ص : 15– 16)

مع الاشارة الى أن النص السابق يتواصل بالشكل التالي : « بسرعة نسوا كل شيء... وتسارعوا الى المكاتب الانيقة يبحثون عن قرارات يمكنهم بموجبها استرداد اراضيهم المؤممة » (ما تبقى ... ص : 16)

فبعد مرحلة بومدين مباشرة بدأ التشكك في مسار الثورة الزراعية وبدأت كثير من التراجعات عن الاتجاه الاشتراكي في الجزائر.

المهم ان هذه الرواية تقوم على الصراع، الواضح الذي يصل احيانا درجة العنف، ومن ذلك مثلا موت عبد القادر مقتولا بالنار، وكذلك مقتل احدالطلبة المتطوعين في ظروف غامضة قرب الاصنام وحرق المحصول الزراعي في مزرعة بزمضان الخ... فللثورة الزراعية معارضوها المتمثلون أولا في الاقطاعيين، وثانيا في البروقراطيين المتحالفين معهم، والذين لا يمكنهم السكوت وهم يرون مصالحهم مهددة...

والممثل الواضح والقوي في الرواية لجانب الاقطاع، والواقف في وجه الثورة الزراعية، هو الحاج المختار « الشارية »، الذي يقف الى جانبه رئيس البلدية ومدير التعاونية المتعددة الخدمات، وجلول الدركي.

فهذا الاقطاعي اممت اراضيه، وهو لذلك يسعى الى استرجاعها بمختلف الوسائل والحيل، بينما يقف في المعسكر المقابل له مجموعة الفلاحين المستفيدين من الثورة الزراعية، والذين وزعت عليهم بالذات اراضي الحاج المختار، واهم عنصر ينتمي الى هؤلاء الفلاحين ويمثله هو عيسى.

في القسم الاول من الرواية نلتقي مع اخبار عن الصراع بين المعسكرين وامثلة من نماذج هذا الصراع، بينما نلتقي في القسم الاخير منها مع هذا الصراع وقد تطور وتجسد فعليا في لحظة المجابهة والصدام بين طرفيه الاساسيين الحاج المختار الشارية وعيسى القط ولد موح لمباصي.

يستخدم الحاج المختار جميع الوسائل الممكنة لكي يصل الى غرضه، ومن ذلك مثلا استغلاله لرجال الدين المزيفين والمشعوذين واستخدامه لخرافاتهم وشعوذاتهم، مثل استخدامه لتلك « الحكاية الغريبة التي اصبح يروج لها. شجرة الدم، شجرة ؟؟؟ وتصرخ عندما يأتي الليل... نبتت بقدرة الهية وسط اراضيه المؤممة »، (ما تبقى... ص : 30).

وقد نشر الحاج المختار بين اهل القرية، حكاية هذه الشجرة الخرافية حتى صاروا يعتقدون ان « هذا الجذع حين يسقط... ستذوب هذه القرية كقطعة سكر فوق النار، وقد تختفي فجأة وتبتلعها الارض » (ما تبقي... ص : 32).

لقد صار امرا مألوفا في كثير من الروايات الجزائرية اللجوء، الى مثل هذا الاستخدام، ونعني الاشارة الى ذلك التحالف الواضح الذي يقوم عادة بين الاقطاعيين وشبه الاقطاعيين، من جهة، ورجال الدين المزيفين والمشعوذين وامثالهم من جهة أخري، والقصد من هذا كله كما هو واضح العمل للحفاظ على سيطرة الذهنيات الخرافية ومن ثم الابقاء على فقدان الوعي لدى الاغلبية الكبيرة من الشعب، مع بقاء سلطة الاقطاعية وشبه الاقطاعية ومن في درجتها ومستواها ودوام هذه السلطة.

ومما سبق كله يتبين ان رواية واسيني الاعرج « ما تبقى من سيرة لخضر حمروش » تقع ضمن تلك الكتابات التي تطرح وتؤيد مشروع السلطة ورؤيتها مع الافتراض ان ما تطرحه السلطة تقدمي لا شك في تقدميته، فالثورة الزراعية كلها خير، وقد جاءت لصالح الفقراء ولصالح اغلبية الشعب، لذلك نجد ذلك الانسجام الكامل بين من يمثل السلطة في جانبها التقدمي وهم الطلبة، وهولاء الفلاحين البسطاء المخلصين، ثم نجد من ناحية اخرى ذلك الانسجام الكامل بين الجانب الاقطاعي وممثله في الرواية الحاج المختار، والجانب البيروقراطي المعارض في السلطة وجهاز الحكم، ويمثله احسن تمثيل رئيس البلدية موسى ولد القايد طايب الشنافة، ومن ثم فان هذه الرواية، وبعض الاعمال الادبية الاخرى تطرح اشكالية السلطة او ازمة السلطة في الجزائر في هذه المرحلة في ارتباطها بالجوانب البيروقراطية، او بالأحرى دور البيروقراطية في التأثير في قرار السلطة، ومن ثم التسبب في تأخير مسيرة الاشتراكية، اذ كيف يمكن تطبيق مشروع اشتراكي كالثورة الزراعية من طرف سلطة هي في معظم افرادها غير اشتراكية، بل هم اكثر من ذلك متحالفون مع الرجعية والاقطاعية.

في هذه الرواية – كما مر بنا سابقا – هنالك معسكران واضحان متقابلان معسكر الخونة والانتهازيين والمعارضين للثورة الزراعية ، واهم من يمثله : الحاج المختار الشارية، ورئيس البلدية موسى ولد القايد طايب الشنافة، ورابح مدير التعاونية المتعددة الخدمات، وجلول الدركي الذي يطمع في الزواج من بنت الحاج المختار.

ومعسكر المخلصين والمتحمسين للثورة الزراعية والمدافعين عنها، وافضل من يمثله : عيسى ولد موح لمباصي، ورمز لخضر حمروش، والمتطوعون وميلود الشمايمي الخ..

هنالك اذن عالمان اثنان ينتمي اليهما الشخوص، عالم كله خير وعالم كله شر، ونحن لا نكاد نجد شخصا واحدا من الشخوص ينتمي الى غير هدين العالمين، باستثناء ميمون الشمايمي الذي تطور من معسكر الشر الى معسكر الخير في نهاية الرواية. ولكي تتضح صورة الشخوص اكثر، ويتحدد دور كل واحد منهم، فانه من الضروري ان نتوقف عند كل شخصية محاولين اعطاءها حقها من التحليل بناء على أهمية دورها، وقيمة هذا الدور في الرواية. ولا شك ان الشخصية الرئيسية في المعكسر المعارض للثورة الزراعية هي شخصية الحاج المختار الشارية.

والسؤال الذي يطرح نفسه في البداية بالنسبة الى هذه الشخصية هو ما مدى اقطاعيتها ؟

اذ من الواضح ان الكاتب اراد ان يجعل من المختار الشارية رجلا اقطاعيا، فهل اكتملت صورة الحاج المختار فعلا لكي تمثل رجلا اقطاعيا ؟

للجواب عن هذا السؤال لابد من استعراض صفات هذه الشخصية حسبما جاءت في نص الرواية.

وقبل استعراض بعض النصوص المساعدة على تحديد هذه الصفات نريد ان نشير الى ان هذه الكنية « الشارية » انما تعني السمنة، وصفة السمنة تستعمل عادة في عالم القصة والرواية او الادب بصفة عامة لتدل على الشبع، اي الغني وكثرة الاموال، وذلك لان « الشارية » هي نوع من الاوعية او الاكياس العريضة الواسعة المصنوعة بطريقة تقليدية من الدوم او الحلفاء لكي يخزن فيها الفلاحون الحبوب الزراعية اليابسة مثل القمح والشعير الخ ... تشبيه الحاج المختار بالشارية اذن يعني انه سمين، وهذه الصفة تطلق عادة على الاغنياء الذين شوههم الغنى.

اما اذا عدنا الى الرواية، فاننا نجد من بين النصوص المتعلقة بهذه الشخصية ما يلي: « ايه يا سيدي المختار « الشارية »... الزردات والافراح، وتهريب كل ذهب مكة. المتاجرة وراء الحدود المجاورة في الحمير والبغال، ورؤوس الاغنام والابقار والـ...» (ما تبقى .... ص: 95).

ثم نجد في موضع آخر من الرواية ان الحاج المختار مجاهد مزيف، فهو من الناحية الدينية ليس حاجا حقيقيا، ولكنه حاج مزيف كما انه من ناحية الجهاد مجاهد مزيف، زور اوراق الجهاد دون ان يشترك في الجهاد يوما، بل لقد كان اقطاعيا متحكما في الرقاب زمان الاستعمار، وهو اقطاعي متحكم في الرقاب في عهد الاستقلال.

وهذه مريم الروخا تحكي عنه عندما زارها في الماخور بمدينة سيدي بلعباس « تمددت على السرير... ذابت كل قناعاته... الدين والحج... والبخور» (ما تبقى ... ص: 169).

فمن يكون هذا الرجل الذي يزور مكة، ويدعي التدين، ويحاول باستمرار خلق الهيبة حول شخصيته، ولكنه في الحقيقة لا يزور مكة الا للمتاجرة، مثلما يتاجر في كل امور التهريب، ومثلما يزور الماخور من حين لاخر، وهو لا يكتفي بهذا ولكنه يحاول ايضا الاعتداء على شرف زوجة عيسى ولد المباهي احد عماله.

ثم هو بعد هذا كله يعلم مريم الروخا في الماخور، وفي حالة ضعفه او تبجحه، انه هو الذي امر ميمون الشمايمي باحراق المحصول الزراعي في مزرعة برمضان. الحاج المختار اذن شخصية مشوهة، انتهازية مصلحية وربما لا يجوز لنا ان ندعي بانها شخصية اقطاعية، ولكن يمكن وصفها بانها شخصية شبه اقطاعية، تملك المال، والارض مع العلم ان بعض اراضيها قد اممت، كما انها تعمل لمصلحتها فقط بسبب الانانية، والرغبة في التحكم في الاخرين.

ولكنها مع هذا كله ليست اقطاعية بالمفهوم المعروف للاقطاعية، او على الاقل فان الكاتب قصر بعض التقصير في الاحاطة بمختلف جوانب هذه الشخصية مما جعلها لا تستكمل صورتها الواضحة التي يمكن ان تؤهلها لان تتبوأ مكانتها الواضحة بين الشخصيات الاقطاعية في الروايات الجزائرية الاخرى.

فالحاج المختار الشارية كما جاء في الرواية، يملك المال، ويملك السلطة بسبب معارفة الكثيرين من رجال السلطة الخ.. ولكنه لم يصور في الرواية تصويرا كافيا في علاقته بالعمال والفلاحين الصغار المشتغلين عنده بالشكل الكافي الذي نجده عادة في الرواية الواقعية التي تركز على تصوير الاقطاع، وعيوبه الخ...

نعم هنالك بدون شك جوانب سيئة من شخصية هذا الرجل كالانتهازية والنفاق، والجري وراء جمع المال بكل وسيلة، وكوقوفه في وجه الفلاحين المستفيدين من ارضه في اطار الثورة الزراعية، وان كان هذا الوقوف – تقريبا – غير علني، الا ان هذه الامور جميعا وغيرها ظلت مجرد اشارات الى مساوئ هذا الرجل، ولكن شخصيته لم تقدم في الرواية بصفتها شخصية متكاملة لرجل اقطاعي.

ولا ندري لماذا اختار الاعرج واسيني شخصية رجل اقطاعي اخر عندما اراد ان يقدم صورة بشعة لهذا الاقطاعي في علاقته بالمرأة والجنس، وذلك باستقدامه من الماخور امرأتين كانت احداهما هي مريم الروخا، التي روت هذه الحادثة والتي اختارها الاقطاعي لتنام معها، بينما كانت الاخرى زميلة لها، وقد اختارها لكي تنام مع كلبه الكبير، ومما ادى الى وفاتها بسبب هذه العملية البشعة.

لا ندري لماذا لم ينسب هذه الفعلة البشعة للحاج المختار نفسه حتى تستكمل صورته.

مهما يكن فان هذه الاشارات المختلفة لاقطاعيين اخرين، والتي ترد في الرواية من حين لاخر لها دلالتها بدون شك في تدعيم صورة الحاج المختار، ومن ثم صورة الطبقة الاقطاعية بصفة عامة، فمما لا شك فيه أن هذه الطبقة متكاتفة، منسجمة فيما بينها، فهذا الحاج المختار يقول عن واحد اخر ينتمي الى الطبقة نفسها : « والحاج خليفة تحرك... وغيره... وعندما يقاوم الجميع الحكومة سترضخ... » (ما تبقى...، ص : 232).

بالاضافة الى هذه الطبقة الغنية المتكونة من أصحاب الاموال والاراضي، وذات المصلحة الخاصة والمباشرة في عرقلة الثورة الزراعية والوقف في وجهها، تشير الرواية الى المتحالفين مع هذه الطبقة من الاداريين والبيروقراطيين ورجال السلطة، الذين يمثلهم افضل تمثيل رئيس البلدية موسى ولد القايد طايب الشنافة، الذي ورث الخيانة عن ابيه القايد، والذي نستغرب وجوده على رأس البلدية، بينما كان ابوه « القايد » متعاونا مع الاستعمار والذي برهن على خيانته بتواطئه مع الحاج المختار في احراق محصول المزرعة.

والى جانبه يقف أيضا كل من رابح « لاكابس » رئيس التعاونية المتعددة الخدمات، والدركي جلول الذي يتقرب من الحاج المختار طمعا في الزواج من ابنته « نبية ».

ثم هنالك بعد هذا كله اشارة الى تحالف رجال الدين المتخلفين والمزيفين مع هذه الطبقة الرجعية، وتتمثل هذه الاشارة في شخصية الشيخ عبد الوهاب الطانجاوي، امام القرية، وصاحب الفتوى التي تقضي بعدم جواز « الصلاة على الاراضي المؤممة » (ما تبقى... ص :).

هذه هي الشخصيات التي تمثل في الرواية جانب الرجعية والتخلف والبيروقراطية وكل الجوانب السيئة والسلبية، والمهم بالنسبة الى هذه المجموعة من الشخصيات انه يوجد بينها اناس ينتمون الى السلطة، والى مشروع الثورة الزراعية بالذات مثل رابح « لاكابس »، اي هؤلاء الذين كان ينتظر منهم اكثر من غيرهم الانتصار للثورة الزراعية، والعمل على انجاحها، فاذا بهم يفعلون العكس.

هو اذن تصوير لمرحلة صعبة جدا، ومتناقضة في تاريخ الجزائر، والاشكالية المطروحة هنا هي اشكالية تطبيق الثورة الزراعية التي هي جزء من الاشتراكية من طرف اناس لا يؤمنون – أصلا – بالاشتراكية.

ولذلك فإن الرواية تتنبأ في بعض المواضع منها بفشل الثورة الزراعية، واحتمال التراجع عنها، على الرغم من النهاية الايجابية التي تفضح الشخصية الرئيسية في المعسكر المعارض والتي هي شخصية الحاج المختار الشارية.

كما أشرنا في السابق، فقد اختار الكاتب ان يبني روايته من حيث الشخصيات على معسكرين متقابلين، معسكر الرافضين للثورة الزراعية، ومعسكر المؤيدين لها.

ولعل لفظة « معسكر » التي استعملناها مناسبة تماما، وذلك بسبب، اولا ان كل طرف في القضية يضم مجموعة من الشخصيات، اي فريقا كاملا من المنسجمين فيما بينهم والمتفقين على المبدأ الذي يجمعهم، وثانيا بسبب ان الصراع بينهم حاد وحاسم، فهم في معركة حقيقية وجادة.

واذا كنا في الصفحات السابقة قد تحدثنا عن معسكر الرافضين، وعلى رأسهم الحاج المختار الشارية، فاننا في الصفحات القادمة سنتحدث عن معسكر المؤيدين، والذين ياتي على رأسهم عيسى، راوي الرواية والشخصية الرئيسية فيها.

فهذا الرجل الذي يسميه الكاتب احيانا عيسى المجنون، واحيانا عيسى القط، او عيسى ولد موح المباصي وولد فطومة بنت الولي سيدي عبد الله بونخلات، هذا الرجل هو كما اشرنا – راوي الرواية، او على الاقل راوي معظمها، اذ ان الكاتب في

الواقع – يراوح بين سرد الحدث بشكل عادي عن طريق الفعل الماضي المنسوب الى ضمير الغائب مفردا او جمعا، وبين ما يجري في ذهن عيسى من احداث الرواية من بدايتها حتى نهايتها وهو الغالب.

لقد اراد الكاتب لشخصية بطل الرواية عيسى. ان تكون شخصية غنية، وذات جوانب متعددة، فهو مجاهد قديم، وسجين قديم وهو مضطهد دائما، ومناضل ورث النضال ابا عن جد، ويكفي ان تعرف ان اباه كان من بين المنفيين الى كاليدونيا، ولذلك يسمى عيسى في الرواية احيانا ولد موح لمباصي الكاليدوني، وهو بالاضافة الى ذلك فقير، ويحمل في ذاته كثيرا من المأساوية، فقد قتل صديقه المقرب اليه لخضر حمروش اثناء الثورة عندما امر بذلك. وهو الى جانب هذا كله يحمل في ذاته كثيرا من الحيوية والنشاط، الى درجة اننا نلاحظ كثيرا من الشبه بينه وبين شخصية زوربا في رواية الكاتب اليوناني الشهير كازانتزاكيس، فمن صفات عيسى الحيوية الزائدة، والبداوة :« لو كنت هنا لاتيت عليهم واحدا واحدا بذكاء يفوق رعونتي البدوية »(ما تبقى... ص : 13). هذا ما يقوله عيسى في مخاطبة لخضرصديقه، وهو يتصف بالقوة والحيوية الجنسية، والتلقائية، وحب المغامرة والرقص، والشرب، الخ... وعلى العموم فان عيسى يمثل بجانب لخضر حمروش، دور زوربا في رواية كازانتزاكيس بجانب الاستاذ الفيلسوف، ففي كل رواية من الروايتين نجد هاتين الشخصيتين المتناقضتين، احداهما : « الاستاذ الفيلسوف ولخضر حمروش »، تمثل جانب الهدوء والتعقل والتفكير والاتزان الخ... بينما تمثل الاخرى :« زوربا وعيسى » جانب التلقائية والحيوية، والنشاط الزائد، والعفوية الخ... ولكن عيسى، وعلى الرغم من رعونته البدوية، يتصرف احيانا تصرفات أناس عقلاء الى حد بعيد، وربما تصرفات أناس يملكون على الاقل قدرا لا بأس به من الثقافة. ولا شك أن ذلك يرجع الى تجربته ومخالطته للاخرين وخاصة للخضر حمروش، بالاضافة الى ذكائه وحسه الصادق، ومن بين مواقفه التي تتسم بالاتزان والرزانة – موقفه من الشيخ الهبري الذي ذبح – زمانا – ابنته، على سبيل الخطأ ولمجرد الشك في سلوكها وتصرفاتها، فهو يدين، تصرف الشيخ الهبري هذا ويعلق على ذلك بقوله : « لم اذبح راشدة، لاني لست مثلهم، ولن اكون كذلك أبدا... لكل زمن رجاله » (ما تبقى... ص : 186).

فبالاضافة الى ما ذكرناه من صفاته السابقة، فاننا نلاحظ هنا انه مؤمن بالتطور، وان الزمن يسير الى الامام، وان تقديس كل ما هو ماض، كما يفعل العامة – خطأ.

اما العلاقة بين عيسى والحاج المختار، فقد بناها الكاتب منذ البداية بشكل واضح، فهي العلاقة بين طبقتين، الطبقة الضعيفة المضطهدة، والطبقة الاقطاعية او شبه الاقطاعية، اي الطبقة المسيطرة: « جزءا من املاكه كنت... فلاحا بائسا يشتغل في الضيعة وينام في الاصطبل مع الحيوانات » (ما تبقى... ص: 205).

وبين الرجلين اضافة الى هذا ثأر قديم، فقد سبق - وذلك في زمان الاستعمار - ان ضرب عيسى الحاج المختار ضربا كاد يقتله عندما وجده يريد اغتصاب زوجته رويشدة، مما ادى الى دخوله السجن والقضاء سنوات فيه.

وهكذا اذن فالصراع بين الرجلين قائم منذ زمان، وما يزال، وهو صراع على الارض والمرأة، ولقد بنيت الرواية بشكل جيد تماما، في جعل هذا الصراع القديم يتأجج في نفسي الرجلين، ويعود الى الظهور على السطح بشكل قوي وواضح مع نهاية الرواية، مما سيؤدي الى تأجج الموقف في صدام الرجلين من جديد.

فالحاج المختار الذي يعرف جيدا، علاقة عيسى المجنون بالرقص يرشو عمدا الضارب على البندير، لكي يتوقف عن ضرب بندير في اللحظات الحاسمة للرقصة، مما سيؤدي بعيسى الى افراغ بندقيته في حالة لا شعورية، في مراقصته مريم الروخا. ومما سيؤدي بعد ذلك الى تفرق الحاضرين جميعا، والى اتخاذ ميمون الشمايمي، وهو ابن اخ الحاج المختار، والذي كان قد امره باحراق المحصول الزراعي - اتخاذه الموقف الحاسم بالقائه القبض على عمه، وقيادته الى مقر الدرك على الرغم من توسلات العم، ودموعه التمساحية.

وهكذا يتضح من خلال ما تقدم وغيره ان الخلاف بين الرجلين عميق، فبالرغم من ان الاختلاف بينهما كان في بداية الرواية عن المرأة بمحاولة اغتصاب الحاج المختار لزوجة عيسى، وانه كان في نهايتها ايضا عن المرأة بمحاولة افساد الحاج المختار للجو الجميل والمنسجم الذي كان يجمع بين عيسى ومريم الروخا في رقصتهما، حسدا وبغضا بالرغم من هذا، فان أسباب الاختلاف بينهما أعمق من ذلك، فهي تعود - كما اشرنا الى ذلك في السابق - الى الانتماء الطبقي لكل منهما ومن ثم الى الاختلاف الحسي والشعوري والاخلاقي لدى الرجلين، فحتى علاقتهما بالمرأة تختلف اختلافا جذريا.

فاذا كان الحاج المختار ينظر الى المرأة بصفتها جنسا لا غير، وهو لذلك يحاول اغتصاب زوجة عيسى بالقوة، ويذهب الى الماخور لشراء اللذة الجنسية بالمال، اي

انه لا يختلف عن ذلك الاقطاعي الاخر الذي كان يمارس الجنس مع مريم الروخا في الوقت نفسه الذي كان الى جانبه كلبه الالماني يمارس نفس الشيء مع زميلة لها.

أي اذا كانت المرأة بالنسبة الى الحاج المختار جنسا مجردا خاليا تماما من اي حس، ومن أية انسانية، فالامر يختلف تماما بالنسبة الى عيسى.

فهو ممتاز اولا في علاقته بزوجته رويشدة، وهو في علاقته ايضا بمريم الروخا لا يقل امتيازا، وذلك لان هذه المرأة لا تمثل بالنسبة اليه – مثلما تمثل بالنسبة الى غيره – مجرد امرأة ماخور، ولكنها، قبل كل شيء امرأة لها مشاعرها، ولها احاسيسها، ولها بعد ذلك كله قصتها المأساوية، وظروفها، التي أدت بها للوصول الى هذه الحياة التي صارت تمارسها مرغمة، وهكذا فالاختلاف بين نظرة الرجلين الى المرأة اختلاف جذري هو الاختلاف بين النظرة الاقطاعية والنظرة الانسانية.

مما لا شك فيه ان العلاقة الاكثر اثارة للانتباه في هذه الرواية هي علاقة عيسى ولخضر حمروش.

فمثلما نحن نعيش مع راوي الرواية والشخصية الرئيسية فيها وهو عيسى، منذ بداية الرواية، فكذلك الامر مع شخصية لخضر حمروش الذي يعيش بدوره باستمرار في ذاكرة عيسى، بل وفي وجدانه، ويسري في دمه.

ان لخضر حمروش حاضر مع عيسى في كل لحظة، هو حي موجود يفكر مع عيسى، بل يفكر له، ويقوده عند الضرورة، وينير له الطريق، على الرغم من انه – في الواقع – مات من زمان، وسنعرف بعد قليل ماذا يمثل لخضر حمروش بالنسبة الى البطل، وماذا يمثل في الرواية.

اما علاقته بالبطل، فهي اولا علاقة معلم بتلميذ، فعيسى يذكر دائما لخضر حمروش بصفته معلمه، وهو لذلك يستحضره، او بالاحرى يستحضر روحه في كل مرة يحتاج فيها الى مشورته او رأيه، وذلك لان لخضر كما يقول « كان معلمنا جميعا » (ما تبقى.... ص : 74). ومثلما ان بطل رواية « وقائع من اوجاع رجل غامر صوب البحر » ايضا يلتقي بالشيوعية ويتعرف عليها وسط العمال في فرنسا، فكذلك يتعرف عيسى بطل هذه الرواية على لخضر حمروش الشيوعي في مدينة مرسيليا، وهو الذي يقترح عليه الانضمام الى الحزب. ولابد ان تبرير هذا الالتقاء، بالشيوعية في بلد راسمالي غربي لا يحتاج الى كثير من المناقشة والبحث،

فالتجمعات العمالية من جهة، ووجود الاحزاب المختلفة، ومن بينها الحزب الشيوعي من جهة اخرى، هو بدون شك – ما اتاح مثل هذا الالتقاء بشكل عادي وبسيط، بشكل ربما لم يكن متاحا مثله داخل الجزائر، ونحن كثيرا ما نجد هذه البيئات الغربية تتخذ – في الرواية الجزائرية او غيرها من الروايات العربية – مجالا لممارسة الحرية السياسية، او غيرها.

الالتقاء بين عيسى ولخضر، كان عن طريق التلمذة، وكان عن طريق القتل ايضا، فلقد شاءت الظروف، ظروف الثورة التحريرية ان يحكم على لخضر حمروش بالقتل من طرف الجبهة، وان يكون المأمور بقتله هو بالذات عيسى صديقه والمؤمن بأفكاره، ومن هنا –ايضا– جاءت اشكالية البطل عيسى، كما ان في حكم الثورة بالاعدام على لخضر حمروش صورة اخرى، للحكم على زيدان « اللاز » لوطار، فالموقف واحد، كلاهما شيوعي، كلاهما انضم الى صفوف الثورة بصفته الفردية، كلاهما لاقي المصير نفسه : الاعدام وكلاهما لم يغير مبادئه ومات عليها، ولنلاحظ هذه الفقرات من رواية واسيني، والتي تمثل حوارا بين عيسى، ولخضر حمروش :

« ستذبحني يا عيسي ...

– لا... ولكن...ارجوك دعني احررك من هذا الحبل... وفر .... اهرب يا أخي اينما شئت... ارض الله واسعة.

– ها قد عدنا لخرافاتك القديمة... وقتها لن يلصقوا التهمة بي، لي انا وحدي، ولكن سيدفع ثمنها تنظيم بكامله، وانت نفسك ستصبح خائنا » (ما تبقى.... ص : 130).

يلوم عيسى صديقه لخضر بعد ذلك بقوله له :« يا لخضر افهمني.. هذا جمود.. جمود... »(ما تبقى.... ص : 130).

ويؤكد لخضر بأنه هو والحزب الذي ينتمي اليه كانوا دائما وحتى الآن مخلصين للثورة :« لتعلم يا عيسى بأننا لم نرتكب اخطاء في حق هذه الثورة حتى الان... ولكننا سنجبر على ارتكابها اذا فعلت ما اقترحته علي »(ما تبقى... ص : 131). ويعني بما اقترحه عليه الفرار.

ولا يجد عيسي بعد ذلك مفرا من ذبح صديقه : « تراءى لي احد أبنائي تحت رحمة قبضة يدي... كانت اصابعي تضغط عليه من الرقبة... ذبحته بسرعة... تساقطت

الجثة والرأس... كل واحد على حدة... انزلقت يدي على حزامي... تحسست السكين اللامع » (ما تبقى... ص : 131).

ويعلق عيسى نفسه بعد ذلك بأن كلام لخضر حمروش : « كان نفس كلام زيدان » (ما تبقى... ص : 132). مما يدل على ان صورة زيدان كانت في ذهن الكاتب، وهو يصور عملية الذبح هذه.

ويعود عيسى نفسه – بعد ذلك– ليؤكد ان ظروف المرحلة كانت « اعقد مما يتصور اي واحد ... ولخضر الله يرحمه كان ضحية هذه الظروف.. وصمد الى آخر لحظة مع انه تشمم الخطر قبل وقوعه » (ما تبقى.... ص : 132).

وكما اشرنا سابقا « فمثلما ان زيدان التحق بالثورة بمحض ارادته، فكذلك لخضر حمروش ... دخل كأي مواطن يهمه استقلال بلاده وكفى... لم ينشر اي دعوى خطيرة، ولم يثر اي شغب... ليس خائنا أبدا، بل ولم يفكر للحظة واحدة في خيانة عيون هذا الوطن الذي يسجل كافة تحركاته » (ما تبقى... ص : 133).

ويعود عيسى ليؤكد سلامة موقف لخضر حمروش من رفضه للفرار، مثلما كان موقف زيدان ايضا :« ايه يا لخضر... من الصعب على الرجل ان يكون نذلا، وأظن بأني سأعنر زيدان وليد عمي الطاهر على جموده العقائدي » (ما تبقى.... ص : 146).

ثم يصرح عيسى بعد ذلك بموقفه الواضح ازاء لخضر وغيره من امثاله « ولو عاد لخضر، واي لخضر ؟؟؟ الطيب، بنت الروخا، ابن علي بوقور.. واقترحوا علي ان اكون، واحدهم، لن اتراجع لحظة واحدة... واذا أمرت بذبحهم لن أذبحهم ، سأذبح نفسي اولا » (ما تبقى.... ص : 143).

ولخضر حمروش بعد هذا شخصيتان، شخصية ماتت من زمان حكمت عليها الثورة بالاعدام، ونفذ فيها هذا الاعدام عيسى نفسه وشخصية، ما تزال حية هي روحه التي لا تموت هي تعاليمه، وأفكاره الحية دائما، او بالاحرى فان لخضر حمروش شخصية ممتدة في الماضي وممتدة في الحاضر، والمستقبل.

فلخضر حمروش يتحول عند عيسى الى رمز عظيم، رمز لكل ما هو جميل، كل ما هو رائع في هذا الوجود، وعيسى بعد هذا يخاطبه كأنه حي يعيش معه باستمرار : « يا الرب العالي... يتعرسون... يطوون الملفات، والميت ما زال ما برد دمه، اقسم براسك يالخضر... اقسم بلقبك المخيف « حموش » ان اللعبة قديمة قدم هذا العالم، وانت تعرف هذا جيدا اكثر منهم كلهم » (ما تبقى... ص : 11).

ويتحول لخضر حمروش احيانا كثيرة الى مهدي منتظر، فلا بد انه سيأتي ليحق الحق، ويقضي على الباطل :« آه يا ولد طايب الشناقة. سيأتي زمن لخضر حمروش، وسترى كم سيكون قاسيا ابتلاع ارغفة الاطفال الفقراء » (ما تبقى.... ص : 23).

فلخضر حمروش سيأتي مع الفقراء مع الاطفال مع الفجر الجميل... « وغدا مع الفجر سأعود الى ممارسة اتعابي وافراحي واترقب مع غيري الطفلة ذات الاشرطة الحمر، والرجل الاصهب الذي يتوسط الموكب الكبير » (ما تبقى.... ص : 46).

وهو لابد « سيعود مع الاطفال الذين يولدون في اليوم بالالاف، وسيعرفون مطالبهم بدون تلقين » (ما تبقى... ص : 178).

ولا شك ان سؤالا سيلح علينا هنا، ونحن نتحدث عن لخضر حمروش الرمز، والسؤال هو :ما دام هنالك في هذه الرواية مجموعة كاملة من الشخوص، يعملون من اجل الثورة الزراعية، ومن اجل الاشتراكية التي يؤمنون بها ايمانا حقيقيا وصادقا، ومن بينهم عيسى، وبنت الروخا، والمتطوعون وغيرهم، وهم ينطلقون في الايمان بالاشتراكية وفي العمل لانجاحها من الواقع، فلماذا يركز الكاتب كثيرا على شخصية لخضر حمروش، ويحلم بعودة هذه الشخصية في يوم ما لكي تنتصر للاشتراكية.

نعتقد ان الاجابة عن هذا السؤال تحتمل وجهين اثنين الوجه الاول ان الكاتب يريد ان يقدم لنا في شخصية لخضر حمروش مثالا للانسان الحزبي الكامل المتفاني في اخلاصه لحزبه ولمبادئه، ولذلك فان كل من يحلم بتحقق الاشتراكية في البلاد يجب ان يحلم بان يوجد ذات يوم من يحققها، اي امثال لخضر حمروش.

اما الوجه الثاني، ولعله اضعف الوجهين، ان لخضر حمروش في الرواية انما يرمز للمرحوم هواري بومدين، وخاصة ان هذه الرواية كتبت بعد وفاته بسنة وبعض الاشهر، مع العلم انه كان معروفا باتجاهه الاشتراكي.

ومهما يكن فانه من الاصوب في مثل هذا الوضع ان نغلب الجانب الرمزي في العمل الروائي لا جانبه الذي يمكن ان يقبل بالتفسيرات الحقيقية التي يمكن الرجوع فيها الى تاريخ الاشخاص وحقائقهم.

ومن بين الشخصيات الثانوية في الرواية عبد الواحد منسق الحزب الذي ربما يرمز الى الحزب نفسه، فهو مرة ايجابي ومرة سلبي، مرة حاضر ومرة غائب، وعلى

العموم فان حضوره اقل، وكانما يعيش على الهامش ينتظر منه باستمرار موقف جاد واضح، ولكن هذا الموقف لا يتضح الا في القسم الاخير من الرواية، والكاتب يلجأ احيانا الى الحكم على الاشخاص عن طريق بعض تصرفاتهم الصغيرة، فعندما يأتي طفل بالماء والمنشفة لكي يغسل كبراء البلدة ايديهم فان عبد الواحد يكتفي بتضميخ المنشفة في قليل من الماء، ويمسح بها يديه، اي انه لا يترك الطفل اليتيم الفقير يفرغ الماء على يديه وكانه احد عبيده، وهنا يخاطبه عيسى في نفسه : « جيد يا بعد الواحد... كان عليك ان تفعل هذا من زمان... ثقتنا فيك ما تزال قائمة » (ما تبقى... ص : 162).

وعيسى اكثر من مرة يخاطب عبد الواحد، ليس صراحة، ولكنه يخاطبه في نفسه، بانه انسان طيب، وهو ينتمي الى مجموعة البسطاء والفقراء، ومن المفروض فيه ان يكون الى جانبهم لا الى جانب الحاج المختار ورئيس البلدية، وغيرهم من الخونة والانتهازيين.

ومهما يكن فان موقف عبد الواحد منسق الحزب سيتضح اكثر، ويصبح اكثر صرامة قبل نهاية الرواية بحوالي خمس صفحات عندما يركب سيارة رجال الدرك لكي يشهد ما رآه في العرس وبدون شك على اشياء اخرى : « داخل السيارة... فرت ابتسامة حزينة من فم بوحلاسة :

– شكرا لك يا سي عبد الواحد

– بلا مزية... نفعل ما كان يجب فعله من زمان

تمتم بوحلاسة مع نفسه :

– ايه انها لحظة الصدق التى استيقظت فيه... لقد رفض ان يكون احد الاتباع البيادق » (ما تبقى... ص : 266).

اذا جاز لنا ان نعتبر هذا تطورا في شخصية منسق الحزب عبد الواحد، فان هنالك شخصية اخرى في الرواية يظهر لديها هذا التطور بشكل اكثر وضوحا، وهي شخصية ميمون الشمايمي.

ونحن نعثر في الرواية منذ البداية على ما يدل بان لميمون الشمايمي قابلية للتطور : « أنا متأكد يا الشمايمي... يا ميمون ولد سلالة مجنونة انك ستفرقعها في آخر لحظة » (ما تبقى... ص : 37).

فميمون الشمايمي يستغل من طرف عمه الحاج المختار بسبب ضعفه وقوة عمه، يستغل في احراق المحصول الزراعي ليلا عن طريق الترغيب والترهيب، يقبل فعل ذلك اضطرارا وخوفا، ولكنه يعود بعد ذلك ، وفي القسم الاخير من الرواية (ص : 226–244) ليحكي مع نفسه، ومن خلال ذاكرته كل تفاصيل احراق المحصول وهو في ذلك يراجع نفسه، ويعترف بغلطته ايضا، لقد استغل اذن من طرف عمه هذا الاستغلال السيء، وهو في تذكره هذا يتذكر ايضا ما قاله له عيسى ذات يوم : « اسمع يا ميمون، قد تصل حدود الخيانة، لكنك بالرغم منك ستبقى ابدا مرتبطا بالذين صنعوك...ابوك كان خماسا جدتك كانت زاهدة فقيرة... وانت (حالتك حالة) لا تستطيع ان تكون منهم حتى ولو اشفقت عليهم... حين تستيقظ يا ميمون تدرك كم كنت غبيا طيلة المدة الفائتة »(ما تبقى... ص : 241).

ونحن نجد الكاتب يلجأ الى مفهوم الوراثة في بعض الاحيان لتقرير مصائر الشخوص، مثلما فعل هنا بالنسبة الى ميمون الشمايمي، الذي حاول ان يقدمه في صراعه النفسي الداخلي، وان يصوره في حالة ضعفه المادي والمعنوي امام عمه، مما ادى به الى احراق المحصول، الا ان عنصره الاصلي النقي هو الذي ينتصر في الاخير، فهو لن يجد نفسه، وهو المجاهد القديم وبواب البلدية – الا مع عيسى ولخضر حمروش وامثالهما، هؤلاء، الذين تعذبوا مثلما تعذب واحسوا بمثلما احس... وهكذا وعلى الرغم من ضعفه السابق فانه يجب عليه في الاخير ان يكفر عن الخطأ الذي ارتكبه، وان يعود الى اصله النقي، فيقود عمه الحاج المختار الشارية بالقوة الى رجال الدرك.

ومثلما فعل – الكاتب – ايضا بالنسبة الى بعض الشخوص الاخرين، مثل عيسى الذي ورث النضال والاخلاص عن ابيه موح لمباصي، ورئيس البلدية الذي ورث الخيانة عن ابيه القايد طايب الشنافة، وضابط الثورة الزراعية الذي يعرف الجميع « ان اباه كان مناضلا اكلته الحرب الوطنية العظمى... »(ما تبقى، ص : 184).

هنالك ايضا من بين الشخوص الثانويين، المتطوعون، ولعله يمكننا اعتبار جماعة الطلبة المتطوعين شخصية واحدة، فهم الممثلون للوعي، للمستقبل، للعدالة الاجتماعية، للاشتراكية، الخ... هم العين التي تلاحظ، وتفضح العيوب، وتمثل السلطة العليا ذات الاتجاه الاشتراكي، (او المفترض فيها ان تكون كذلك)، فالمتطوعون من فمهم لفم الحكومة (ما تبقى، ص : 56).

وعلى الرغم من ان كثيرا من عناصر الشخوص في الرواية مؤمنون بالثورة الزراعية وبالاشتراكية، وهم لذلك يعملون لاجل نصرتها ونجاحها، فان هذه الثورة الزراعية في بداية الامر جاءت بقرار من السلطة هي اذن اشتراكية السلطة، والرواية بعد هذا تصور رد الفعل ازاء هذا القرار، او بالاحرى ردود الفعل المختلفة، والطلبة المتطوعون هنا يمثلون قوة مؤيدة لا يستهان بها، الى درجة انهم يعتبرون حركة ضد التخلف والاقطاع، « لكن اولاد الرومية يريدون قنصهم (اي الطلبة) وقنص هذه الحركة »(ما تبقى، ص : 76).

« ما تبقى من سيرة لخضر حمروش » اذن تمثل وجهة نظر، السلطة، مثل رواية « الزلزال » لوطار، وغيرها من بعض الروايات، الجزائرية الاخرى، ونعني بالسلطة هنا، السلطة العليا، صاحبة القرار، ويفترض دائما ان هذه السلطة ذات اتجاه اشتراكي، كما يفترض ان معارضة قرار هذه السلطة تأتي من اصحاب المصالح الخاصة اي البرجوازيين الكبار عادة، والاقطاعيين وشبه الاقطاعيين، ومن حالفهم وساندهم من الرجعيين البيروقراطيين الخ...

لابد قبل ان ننهي الحديث عن الشخوص في هذه الرواية ان نتحدث قليلا عن دور المرأة، واهمية هذا الدور فيها.

تستوقفنا في هذه الرواية –على الخصوص – ثلاث شخصيات نسوية، الاولى شخصية رويشدة، والثانية الطالبة المتطوعة ميلودة بنت الروخا، والثالثة، مريم الروخا نفسها.

لن نطيل الوقوف عند كل من رويشدة زوجة عيسى، او ميلودة بنت الروخا، فهما شخصيتان ثانويتان عاديتان على الرغم من بعض اهميتهما، فالاولى هي المرأة التي ترافق عيسى في مسار حياته والتي يعزها، ويتحدث عنها دائما بتقدير كبير، وهي الزوجة التي دخل بسببها السجن وقضى فيه سنوات عندما ضرب الحاج المختار الذي كان يريد اغتصابها، ومع ما يحاول الكاتب احاطتها به من جو شاعري الخ... فانها تظل امرأة تقليدية عادية.

والثانية هي الطالبة الجامعية المتطوعة التي شاء قدرها ان تولد داخل جدران السجن، الذي دخلته امها مريم الروخا بعد قتلها لزوجها، الذي كان يهينها، الى درجة انه كان يأتي بامرأة اخرى الى بيت الزوجية نفسه.

ولعل ما تجدر الاشارة اليه هنا، اي بالنسبة الى ميلودة المتطوعة، انها استطاعت، وعلى الرغم من وجود امها في الماخور، منذ طفولتها هي – ان تجد طريقها في الحياة، تعيش مع جدتها، ثم تواصل دراستها من الابتدائي حتى الجامعي، ثم ها هي تخرج للتطوع مع زملائها الطلبة. قد يتبادر الى الذهن هنا ايضا موضوع الوراثة، وقد يطرح السؤال التالي بالنسبة الى ميلودة : كيف استطاعت هذه الفتاة ان تشق دروب حياتها بكل نجاح، وبكل ايجابية مع انها وليدة سجن، وابنة امرأة ماخور ؟

ونعتقد ان الجواب على هذا السؤال يكمن في جانبين، الاول ان البنت ظلت تعيش منذ طفولتها بعيدا عن الجو الذي كانت تعيش فيه الام، مما جنبها التأثر بحياتها تلك، والثاني ان الام نفسها لم يكن في طبع شخصيتها ان تكون امرأة ماخور، ولكن الظروف هي التي فرضت عليها تلك الحياة.

وعلى ذكر الام مريم الروخا، والشخصية النسوية الثالثة في هذه المجموعة، نشير – وقبل الدخول في تفاصيل حياتها، وطبيعة شخصيتها – الى انها تعتبر من بين اهم الشخصيات الاشكالية في هذه الرواية.

فهي – صحيح– امرأة ماخور، ولكنها انسانة، تكرر باستمرار ان حياتها بالشكل الذي تعيشه خطأ، كما تظل تحلم بحياة مستقرة سعيدة كجميع الناس تقول مرة لعيسى :« تمنيت ان اكون مثلك ... امرأة بيت... اولاد... وقد تكون وقتها انت زوجي.. لم لا... الست ابنة البلدة الطيبة...» (ما تبقى، ص : 112).

وهي لا تفكر فقط في نفسها، وتتألم للمسار الذي سارت فيه حياتها، وتبكي على ايامها التي قضتها في الماخور، ولكنها تتألم اشد الالم لابنتها، خاصة ان هذه البنت لم تسر في طريقها ولا هي تشبهها في شيء« البنت متعلمة وتفهم احسن مني وطيبة القلب و (نية) ومع ذلك، ان اخر تهمة يمكن ان توجه لها انها ابنة امرأة قتلت زوجها لتدخل الماخور وتمارس الدعارة بشكل رسمي وحر » (ما تبقى، ص : 113).

وهي في اكثر من موضع تعبر عن ندمها، وعن اسفها، عدم رضاها عن الحياة التي تحياها :« لا يا السي عيسى انا اصبحت مريضة، وهم سبب مرضي... الحاج المختار الشارية، وجماعته... كلهم ساهموا في قتلي » (ما تبقى، ص : 118).

تمثل الروخا اذن المرأة الساقطة الضائعة تحت الضغط الاجتماعي او بسبب الاوضاع الاجتماعية.

ولقد صار هذا النموذج النسوي مألوفا، وشائع الاستعمال في الادب العربي الحديث، وخاصة منه القصة والرواية، وهو شائع ايضا في الاداب غير العربية منذ فترة بعيدة، فالمجتمع الرجالي هو الذي يستغل المرأة عادة اسوأ استغلال، وبما انها تمثل الجانب الضعيف فانه بعد اسغلالها يرمي بها جانبا لتمثل مرحلة السقوط النهائي والضياع، اي لتمثل الضحية.

والكاتب في هذه الرواية، وبالنسبة الى مريم الروخا وعلى الرغم من بيعها جسدها، فانه يبرز فيها جانبها الانساني الذي لم يمت بعد : « فهي اذا كانت قد خانت جسدها تحت الضغط القاسي، لم تخنا يا لخضر... ما تزال في صفنا » (ما تبقى، ص : 175).

ولا ندري ما مدى صحة هذا على كل حال، وما مدى امكانية محافظة مريم الروخا على صفائها الذهني، وعلى جانبها الجميل، ونعتقد ان في تصوير الكاتب لايجابية صورة هذه المرأة في هذا الجانب بعض المبالغة.

فهي بدون شك وعلى الرغم من كل شيء ستظل تحمل في ذاتها كثيرا من الجوانب الانسانية الجميلة، ولكن هذه الجوانب لن تبرز الا من حين لآخر عندما تجد الظروف المناسبة لذلك، وعلى العكس من ذلك، فان الجوانب السيئة هي التي – وبسبب الظروف، والجو اللذين صارت تعيش فيهما مريم الروخا – ستؤثر فيها اكثر فليس من السهل، ان تحافظ امرأة تعيش في الماخور على اتزانها، ونقاوتها الخ... مهما كان الامر....

ومهما يكن فان الكاتب انساق وراء التركيز علىانسانية مريم الروخا، وارتفع بشخصيتها الى مستوى عال، مما جعلها تنتقل من مستوى الحضيض الذي تعيش فيه بالفعل الى جو من الشاعرية المتخيلة « رائعة انت يا الروخا... فراشة... والوصول الى قلبك محفوف بالمخاطر » (ما تبقى، ص : 211).

هذا – مثلا – من بين ما يقوله لها عيسى خلال رقصته معها، وهي بعد هذا تشبهه في كثير من الامور، في الشقاء والمأساة، فكلاهما ينتميان الى فقراء بلدة واحدة، وكلاهما انتقما لشرفهما عيسى انتقم بالضرب من الحاج المختار الذي

وجده يحاول اغتصاب زوجته، فدخل السجن وقضى فيه سنوات، والروخا انتقمت من زوجها، – الذي كان يأتي معه الى البيت بامرأة اخرى على مراي منها – بالقتل فدخلت السجن، وقضت فيه ايضا سنوات، هو شخصية اشكالية غنية بالمآسي ومن بين ذلك قتله اثناء الثورة لصديقه مما يظل يتألم له، ومما جعله يلتجئ الى اغراق نفسه في الخمر واحيانا في جو النساء بالاضافة الى الرقص الذي يشبه الجنون. وهي من ناحيتها شخصية اشكالية عانت من مآسي الحياة فبالاضافة الى ما سبق ذكره فانها صارت تعيش في الماخور، تتألم من حياتها هذه، وتتألم خاصة لمصير ابنتها الطالبة الجامعية مقارنة بين حياتها وحياة ابنتها وهي بدورها تغرق نفسها في جو الخمرة والرقص.

وعلى العموم فقد عرف الاعرج واسيني كيف يخلق شخوصه، وكيف يخلق جمالهم في نظر القارئ، فما الروخا – مثلا – في حقيقتها وكما مر بنا سابقا سوى عاهر في ماخور، ومع ذلك ارتفع بها الى مستوى انسانة تحس مثل الاخرين، بل واكثر بكثير من الناس العاديين الاخرين، لانها تختلف عنهم في كونها تحمل تجربة غنية في الحياة هي على سبيل المثال تعرف قيمة الاغنية والرقصة وتندمج فيهما اندماجا صوفيا، وتفرق بحسها الانساني القوي بين الانسان الجيد والانسان السيئ، وتتعاطف بهذا الحس نفسه مع المظلوم ضد الظالم الخ... انها اذن ليست مجرد امرأة عاهر، تبيع جسدها في ماخور، ولكنها انسانة ايضا.

وقبل ان ننهي حديثنا عن مريم الروخا لابد ان نلاحظ ملاحظة صغيرة لعل لها اهميتها، اذ كنا نتمنى لو لم يجعلها الكاتب من البلدة نفسها التي تجري فيها احداث الرواية، واحداث العرس، فمن الصعب قبول اهل القرى والارياف وجود امرأة عاهر من قريتهم تشرب الخمرة. وتغني مع الشيوخ، وترقص، وتلثم مراقصها ايضا، وكانوا سيتساهلون في قبول ذلك لو كانت هذه المرأة قادمة من بعيد.

عزوز الكابران[1]

محاولة الرمز

بقطاش مرزاق

يعتبر بقطاش مرزاق من بين أهم أدباء الجيل الثاني في مسار القصة والرواية المكتوبتين بالعربية في الجزائر، أو ما سمي بجيل السبعينيات، وهو الجيل الذي فرض وجوده بشكل واضح بعد الادباء الرواد الذين اكتمل على ايديهم فن القصة والرواية، والذين نذكر من بينهم على الخصوص، أبو العيد دودو، وعبد الحميد بن هدوقة، والطاهر وطار.

ومن الواضح أن جيل السبعينيات، وبسبب ما اتيح له من الاطلاع الواسع على ادب القصة والرواية، قد وجد الفرصة امامه مواتية لكي يفتح باب التجريب، ومن ثم راح أدباء هذا الجيل يبحثون كل من جهته، وبحسب امكانياته الثقافية وتجربته، ومدى اطلاعه على مختلف التجارب الروائية والقصصية في الادبين العربي والعالمي، راح هؤلاء الادباء، ونعني أكثرهم جدية - بطبيعة الحال - يبحثون في أساليب تطوير فنهم القصصي والروائي.

ويأتي على رأس هؤلاء الذين جعلوا سبيلهم التجديد والبحث في الطرق والأساليب كل من جيلالي خلاص، والاعرج واسيني، وبقطاش مرزاق، مع الاشارة إلى أن اهتمام هؤلاء بالتجديد انصب بالذات على مجال فن الرواية، فكان أن كتب جيلالي خلاص رائحة الكلب، وحمائم الشفق، وغيرهما، وكتب الاعرج واسيني، نوار اللوز، ومصرع أحلام مريم الوديعة، ورمل الماية، وغيرها، كما كتب بقطاش مرزاق، عزوز الكابران، التي سنخصص لها هذه الدراسة، مع ملاحظة أن كل واحد من هؤلاء قد اتجه اتجاها خاصا ونهج نهجا متميزا في البحث عن التجديد.

---

1 – اعتمدت في دراسة هذه الرواية على طبعة لافوميك، الجزائر.

فبينما اهتم جيلالي خلاص بكتابة نص روائي يقدم اللغة بشكل في إطار من الاهتمام الخاص بها مفردة، وجملة، ونصا كاملا، لم يسبق له مثيل تقريبا، عدا إذا استثنينا روايات رشيد بوجدرة مع بعض الاختلاف ليس هذا مجال التوقف عنده، كما قدم الزمان الروائي بشكل خاص ومتميز، راح الاعرج واسيني يحاول معايشة الفن القصصي العربي القديم، ومنه بالذات فن القصة الشعبية المطولة مثل السيرة الهلالية، وألف ليلة وليلة، محاولا أن يبني على طرقهما وأساليبهما فنا روائيا جديدا، وذلك على الخصوص في روايتيه، نوار اللوز، ورمل الماية.

حاول بقطاش مرزاق بإسلوبه الهادئ ولغته المتزنة أن يجوب عالم الرمز في روايته عزوز الكابران، فما هو عالم بقطاش مرزاق في هذه الرواية ؟ وإلى أي مدى وفق في اتخاذه مجال الرمز طريقا وأسلوبا لتقديم هذا العالم ؟

نشير في البداية إلى أن المرحلة الزمانية التي تتناولها (عزوز الكابران) هي مرحلة ما بعد استقلال الجزئر، ولكن مع التركيز خاصة على مرحلة الثمانينيات وذلك ما سنوضحه بالإعتماد على أمثلة من النص في الصفحات التالية.

تركيز الكاتب في هذه الرواية ينصب بالذات على ذلك الإنفصام الكبير والواضح بين السلطة والشعب، مع العلم إن السلطة هنا هي سلطة عسكرية، فقد عمل الكاتب على تقسيم شخصيات روايته إلى فئتين واضحتين متميزتين ومتنافرتين، هما فئة المجموعة الحاكمة، ويأتي على رأسها عزوز الكابران، الذي يقف بجانبه كل من (سعيد زوج نجوم) و (رابح سيكس بانس)، وعبد الواحد، بالإضافة إلى مجموعة من الأتباع والمتعاونين، ثم فئة بقية الشعب، وإذا كانت هذه الفئة الثانية تبدو باهتة غير واضحة المعالم، فإن مجموع الأفراد الذين يمثلونها ويتحدثون باسمها، وينتمون إليها، وهم على الخصوص، شيخ الجامع، والمعلم والطبيب، والصحفي المطرود من الجريدة، والأرملة، وعمر الزواوي، إن هؤلاء واضحون غاية الوضوح في طبيعتهم، ومواقفهم إلخ... وذلك ما سنعود إليه فيما بعد.

ولا بد لكي نتعمق أكثر عوالم هذه الرواية أن نعود إلى استعراض شخصياتها واحدا، واحدا كل حسب قيمته وأهميته، ودوره في الرواية...

وبما أن شخصيات الرواية مقسمون كما ذكرنا سابقا إلي فئتين متميزتين بشكل واضح فإننا سنستعرض هاتين الفئتين متبعين الترتيب نفسه الذي مر بنا سابقا، وبما أن بطل الرواية الذي عنونت باسمه (عزوز الكابران) هو الذي يأتي على رأس الفئة الأولى فإننا سنقف الوقفة الأولى معه.

فمن هو عزوز الكابران ؟ وكيف بنى الكاتب شخصيته هذه ؟ وإلى أي مدى نجحت هذه الشخصية في تمثيل دورها ؟

نشير منذ البداية إلى أن عزوز الكابران يشترك في بعض الصفات مع أفراد مجموعته المقربين، وخاصة منهم سعيد زوج نجوم ورابح سيكس بانس، إلا أن شخصيته هي الأكثر وضوحا، والأكثر غنى، ومن ثم الأكثر تمثيلا للمجموعة كلها أو هي بعبارة أخرى النموذج الأكثر تعبيرا عن ملامح وصفات هذه المجموعة. فمن هو عزوز الكابران ؟ (عزوز الكابران، هذا هو اسمه، يقال أنه اكتسبه خلال مشاركته في حرب دارت رحاها في بلد ناء يقع فيما وراء البحار الدافئة، كان يومها جنديا في إحدى جيوش اللفيف الأجنبي) [1]، نلاحظ منذ البداية أن الكاتب يلجأ إلى الأسلوب الساخر في تقديم صورة عزوز الكابران، وهي الطريقة نفسها التي سيتبعها في تقديم جميع الشخصيات الأخرى المنتمية لهذه المجموعة ولذلك فإننا ونحن نتابع صورة عزوز الكابران نشعر أنها قريبة جدا من صور أبطال الرواية المركيزية من حيث اتخاذها مجالا للسخرية، ومن حيث التشابه في بعض جوانبها، مع الفارق الواضح في بناء الشخصية و بناء العالم الروائي لدى الكاتبين.

عزوز إذن هو حاكم البلدة، وهو برتبة (كابران) عريف، وهي رتبة عسكرية متواضعة جدا، وحتى هذه الرتبة منحها إياه الآخرون، أي الأجانب الذين كان يخدمهم طائعا، سخرية الأقدار إذن هي التي جعلت من عزوز حاكما للبلدة، ومن الواضح أن البلدة رمز للوطن، وعلى العموم فإن شخصية عزوز الكابران بنيت بشكل جعلها منسجمة مع نفسها إلى حد بعيد، ومعبرة عن المكانة التي أعطيت لها في هذه الرواية، وعن الدور المنوط بها، فعزوز ما زال يشكو بين الحين و الآخر من ألم حاد في جمجمته) [2]، ورمز الجمجمة هنا واضح لا يحتاج إلى شرح، وهو في البلدة يحتفظ بالشارع كما هو بدون اسفلت (حتى يقتنع حقا وصدقا أنه لا يزال في العصور الوسطى) [3]. وهو (يلبس منامة بلون معين لذلك يشترط أن تكون الصينية والأطباق المهفهفة وفناجين القهوة بنفس اللون) [4]. وهو غالبا ما يلبس البزة العسكرية، كما أنه غالبا ما يلجأ إلى استخدام الجيش لحل المشاكل العويصة، كما

---

1 – عزوز الكابران ص، 12

2 – المصدر نفسه ص، 13

3 – م. ن. ص، 9

4 – م. ن. ص، 12

أنه مهتم حاليا ببناء مرصد في أعلى المدينة مع أنه لجأ إلى الاقتراض من الخارج لأجل إنجاز هذا المشروع، (حقا كان عزوز الكابران وعدد من أعوانه من الأبطال في الدفاع عن بلدتنا وحمايتها من سطوة الغزاة، لكنهم لم يقدروا نفوسهم حق قدرها..) [1]، وهو عندما يزعجه أحد مقربيه مهما كان قريبا منه يلجأ إلى تنحيته كما فعل مع سعيد زوج نجوم، وهو نراعه اليمنى (ولعله ظن أن تقليب الصفحة عملية يسيرة مرتبطة به هو في المقام الأول وليس بأهل البلدة) [2]

والواقع أن أزمة الثقة بينه وبين أهل البلدة هي التي أدت به لأن يضحي بسعيد زوج نجوم.

إن تاريخ عزوز الكابران كله تاريخ سيء، ولذلك فإن شخصيته مهزوزة وضعيفة فهو زمانا كان يعمل لصالح دولة أجنبية، ومنحوه تلك الرتبة التي (لم تكن تمنح إلا للذين يركعون أمام أسيادهم) [3]، وقد كان يحارب أعداء دون أن يعرف من هم ولا لماذا يحاربهم، وهو انتظر مدة طويلة أن يمنحه هؤلاء الأجانب منحة مالية تعويضا للخدمات الجليلة التي قدمها لهم، ولكنه (لم ينل شيئا في آخر المطاف) [4]، وهو منذ زمان أي منذ محاربة الأعداء الأجانب لاخراجهم من البلدة كان خائنا غير مخلص، فعندما كان المجاهدون يحاربون دفاعا عن الجسر القديم (كان عزوز الكابران، يحاول منع أولئك الشباب من تلك الإقتحامات بحجة أنهم غير مدربين وأن العدو قد يلقي القبض عليهم، فيعذبهم فيقدمون له المعلومات العسكرية التي يريدها) [5]، وبتخليه عن واجبه في معركة الجسر القديم يكون عزوز الكابران قد أثبت خيانته، لأنه تخلى عن تدعيم المجاهدين المدافعين عن الجسر، والذين استشهدوا في هذه المعركة، وقد كان من بينهم المجاهد قدور الأطلسي زوج (الأرملة) التي سيأتي الحديث عنها فيما بعد، مع العلم أن عزوز الكابران (لم تكن له أدنى معرفة بما رمز إليه ذلك الجسر في حياة بلدتنا) [6].

---

1 – م. ن. ص، 81
2 – م. ن. ص، 204
3 – م. ن. ص، 13
4 – م. ن. ص، 220
5 – م. ن. ص، 222
6 – م. ن. ص، 220

لقد كانت معارضة شيخ الجامع له قوية منذ معركة الجسر تلك، ولذلك فإن عزوز الكابران، وبسبب اهتزاز شخصيته، وقوة شخصية شيخ الجامع ظل يصاب بالارتباك والرهبة كلما وقف أمام هذا الشيخ.

إن صورة عزوز الكابران ظلت من بداية الرواية حتى نهايتها صورة مشوهة تدعو للرثاء والسخرية، فسيطرة الجهل بصفة عامة، وجهل السياسة بصفة خاصة، إضافة إلى التخلف الذهني واللجوء إلى استخدام القوة في كل لحظة و التصوير الكاريكاتوري لكل ذلك، أي لطبيعة هذه الشخصية، إن كل ذلك قرب بين عزوز الكابران وأبطال ماركيز، وعلى سبيل المثال فإن بيت عزوز فيه مئات المخطوطات إلا أنه لم يقرأها، (لأنه عاجز عن فك خطوطها الفحمية الجميلة، ورموزها، كل ما يفعله معها هو أنه يشمها بين الفينة والأخرى ويبتسم ثم يغمض عينيه ويقول لمن يكون بجانبه أنها رائحة أجدادي) [1] ولقد استطاع بهذه الطريقة أن يوهم أعوانه أن حاسة الشم فيه من القوة بحيث تنزلق الحروف من تجاويفه الأنفية وتنتقل إلى دماغه ثم تتحول إلى علم نافع) [2]

إن رجلا مثل هذا يعامل زوجته بدون شك معاملة الإقطاعي المتخلف، مع ملاحظة أننا لا نكاد نعرف من هذه الزوجة سوى كونها (تبادر إلى غسل قدميه والتربيت على كتفيه) [3]، بمجرد عودته إلى البيت، ومع ذلك كله فإن عزوز لا يخلو من ذوق، ففي مكتبه صورة لامرأة ريفية جميلة تساعده، دائما على التفكير السليم، فهو يحب هذه المخلوقات الجميلة، كما أن عبد الواحد مدير الجريدة كثيرا ما ينتهز فرصة انشغال عزوز الكابران بالنظر إلى كاتبته الجميلة لكي يجعله يقوم بإمضاء القرارات التي يريدها، كثيرة هي مواقف السخرية التي تقدمها الرواية عن هذه الشخصية الطريفة، فمثلا أثناء إعلان التحقيق المتعلق بانتهاك عرض إبنة الحلاق، وبحضور لجنة التحقيق المكونة من شيخ الجامع،والمعلم والطبيب، وبحضور غيرهم (هم بالوقوف لكي يضرب سي عبد الواحد، فهرب هذا واحتمى بالشيخ، وعندئذ دهمته نوبة عنيفة فراح يفرك ندوب رأسه بكلتا يديه) [4].

---

1 – م. ن. ص، 16–17

2 – م. ن. ص، 227

3 – م. ن. ص، 53

4 – م. ن. ص، 175

إن مشاكله هذه مع ندوب رأسه لا تكاد تنتهي، فالأزمة تعاوده كلما كان يمر بمشكل عويص، وقد جعله الغضب ذات مرة (يرفع كلتا يديه في تشنج ظاهر ثم يركزها على أطراف رأسه بكل قوة، لعل بقايا الشظايا التي خلفتها الحرب في دماغه استيقظت في تلك اللحظة... ثم أنه راح ينطح جدارا صغيرا من الرخام) [1].

ولا بد أن رجلا كهذا لن تكون نهايته سعيدة، فقد جن وصار (يصرخ بين الحين والآخر من الغيظ، ويلتفت حواليه، وينادي سعيد زوج نجوم كأنه لا يزال معه) [2].

وهكذا يكون عزوز الكابران قد فقد (قواه العقلية، أجل لقد تجمد مخه، واستقر في الماضي) [3].

ومن كل ما سبق تتضح صورة عزوز الكابران، وهي صورة حاكم عسكري جاهل متجبر أمي مستبد بالرأي، ظالم، إلخ....

تلك هي صورة عزوز الكابران قائد هذه المجموعة أو رئيسها، إلا أن عزوز الكابران لم يكن وحده يتصف بهذه وغيرها من الصفات المشابهة، فهناك مجموعة من المحيطين به لا يكادون يختلفون عنه، فهو بطبيعة الحال لن يختار مساعديه إلا من أشباهه ومن بين هؤلاء على الخصوص سعيد زوج نجوم (سعيد هذا حين عاد من الحرب الكونية بساق عرجاء كان مرتديا بزة عسكرية سرقها من المستشفى العسكري الذي كان يتعالج فيه، ولم يستطع هو بالذات التعرف على الرتبة التي ألصقت في كتف البزة أهي رتبة رقيب أم رتبة جنرال ؟ وحين دخل البلدة قال أهلها، لقد عاد سعيد بساق وبرتبة عالية جدا ولا شك، ولم يستطع أحد التعرف على تلك الرتبة، فاكتفى الجميع بأن صاروا ينادونه سعيد زوج نجوم) [4]،

قبل أن يكون سعيد عسكريا كان فلاحا ناجحا، والفضل في نجاحه يعود بالذات إلى قوته البدنية الخارقة، لذلك قال له شيخ الجامع ذات مرة (لو أن عزوز الكابران كلفك بشؤون الفلاحة على الأقل في بلدتنا هذه لكنت أحسنت تقديره، ولكنت شكرته على حسن نيته) [5]، فلماذا اختاره عزوز الكابران للشؤون العسكرية، ولم

---

1 – م. ن. ص، 42
2 – م. ن. ص، 227
3 – م. ن. ص، 239
4 – م. ن. ص، 28 – 29
5 – م. ن. ص، 87

يختره للفلاحة، لا بد أن السبب يعود إلى أنه كان على شاكلته (ساذجا يستخدمه في الضرب على يد كل من تسول له نفسه الخروج على النظام في البلدة) [1].

وهو مع ذلك كله، له – مثل غيره من هؤلاء المتجبرين المتسلطين على الشعب– بعض الظروف التي يكون فيها ضعيفا للغاية لا يكاد يساوي شيئا، فهو ضعيف أمام عزوز الكابران، وأمام شيخ الجامع، بل وحتى أمام زوجته مثلما يشهد على ذلك محمود الحداد (لقد بكى سعيد زوج نجوم، ووقع أرضا وراحت زوجته تعاونه على النهوض) [2].

ولم يشأ الكاتب، وربما كان ذلك بسبب بعض الطيبة التي ظل سعيد زوج نجوم يحملها – على الرغم من كل شيء– في ذاته أن يجعل نهايته سيئة مثلما كان الأمر بالنسبة إلى نهاية عزوز الكابران، فعلى الرغم من أن ابنه هو الذي اعتدى على شرف ابنة الحلاق، إلا أنه من جهته لا يد له في ذلك، ولقد استخدم هذا الإبن لأغراض سياسية دنيئة من قبل ذوي المصالح مثل رابح سيكس بانس وغيره، ثم أن سعيد زوج نجوم، وبسبب من بقايا أخلاقه الريفية الطيبة سعى بكل الوسائل إلى درجة إذلال نفسه لدى الحلاق أبي الفتاة لكي يتم الصلح بينهما. لذلك كله فإن نهاية سعيد زوج نجوم لم تكن سيئة مثل نهاية عزوز الكابران، واكتفى الكاتب بأن جعل عزوز الكابران يعزل سعيد زوج نجوم من منصبه بعد ظهور نتيجة التحقيق في موضوع اغتصاب ابنة الحلاق، وتكون نهايته في الرواية بأن يغادر البلدة نهائيا (في طريق العودة إلى قريته الأصلية وراء الجسر القديم لكي يعود إلى حياة الفلاحة) [3].

وإذا كان سعيد زوج نجوم يتصف عن طريق الوراثة ببقايا الطيبة والسذاجة، وجوانب أخرى من الأخلاق الريفية، كما يتصف بحكم منصبه بكونه مكلفا بحماية البلدة عسكريا، أو بالدفاع عنها، فإن رابح سيكس بانس يختلف عنه كثيرا (هذه الكنية التصقت به وهو في الثانية عشرة من العمر، لكانما قدر له أن يتعامل مع الشؤون المالية قبل الأوان) [4]، ولكن، من أين جاءته هذه الكنية ؟

---

1 – م. ن. ص، 29

2 – م. ن. ص، 119

3 – م. ن. ص، 203

4 – م. ن. ص، 24

كان رابح سيكس بانس وهو في هذا العمر يبيع للجنود الأجانب الأرغفة التي تصنعها أمه، وذات مرة باع جنديا ستة أرغفة، وسلم له الفلوس، ولما رآه محتاراً شيء عدها قال له الجندي إنها سيكس بانس (وتصادف آن مر بالمكان ماسح أحذية من معارف رابح فضحك، وجعل يردد سيكس بانس، ولم يكد رابح يعود إلى الدار في العشية حتى كانت تلك الكنية قد لازمته إلى الأبد) [1]، وبمرور الزمان تحسن وضع رابح سيكس بانس الاجتماعي بسبب ممارسته أنواعا مختلفة من التجارة (ولا عجب أن يتخلى عن تجارته ليضطلع بمنصب القيم على الشؤون المالية ضمن عصابة عزوز الكابران) [2]، ومن بين الصفات التي تحدد أكثر شخصية رابح سيكس بانس هذا الذي عين فيما بعد مديرا للمخابرات أنه (عبقري في المسائل المالية، وماهر في تسقط الأخبار والإيقاع بالخصوم..) [3]، إلا أن رابح هذا، ومثلما هو الأمر بالنسبة إلى سعيد زوج نجوم بدوره يخشى عزوز الكابران، وشيخ الجامع، ثم أن (رابح في الدار هو غير رابح في بناية الحكم وفي البلدة كلها) [4]، فهو مرة (مسؤول مخابرات، وهو آناقشة تذريها زوجته كيفما شاءت) [5]

ولا ينسى الكاتب الجانب الكاريكاتوري في تصوير شخصية رابح سيكس مثلما فعل مع غيره، فها هو مثلا يقف بجانب قاعة الاجتماعات (وحذاؤه مثقل بالطين، مطأطئا رأسه من الخيبة، والمحفظة تحت إبطه كأنه تلميذ صغير تغيب عن المدرسة ولم يحفظ درسه) [6]، وذات مرة عندما اقترب منه عزوز الكابران (خيل له أنه قد ينهال عليه بقبضة يده على رأسه، فرفع المحفظة مقربا إياها من وجهه حتى يتفادى الضربة) [7]،

كان الراوي – وهو إحدى شخصيات الرواية التي سيأتي الحديث عنها فيما بعد – قد ذكر في بدايات الرواية أن من يرى الكلمات تسيل من فم رابح سيكس بانس سيلانا (يحكم عليه بأنه شخص خارق الذكاء، ثم يعلق في الجملة الموالية مباشرة (آنا لا أشاطر هذا الرأي، والموضوعية تقتضي مني أن أحكم عليه حين يحين دوري) [8].

---

1 – م. ن. ص، 25
2 – م. ن. ص، 25
3 – م. ن. ص، 195
4 – م. ن. ص، 195
5 – م. ن. ص، 198–199
6 – م. ن. ص، 41
7 – م. ن. ص، 42
8 – م. ن. ص، 26

فهذه إشارة من الراوي إلى ما ستؤول إليه المحاكمة فيما بعد، والتي ستبرهن وبالرغم من أن (الراوي) لم يكن مهيأ لهذا التحقيق كل التهيؤ، إنه أذكى جميع الذين سيحقق معهم، ومن بينهم رابح سيكس بانس بطبيعة الحال، فالطريقة السرية التي اتبعتها لجنة التحقيق برئاسة المعلم (الراوي) جعلت كل من له علاقة بالموضوع يشك في نفسه مما يجعله يتصل وحده تلقائيا برئيس اللجنة، ولذلك، فإن من بين ما يلاحظ على عملية التحقيق أن سير الأمور، والمصادفات إلخ.. كانت كلها في صالح المحقق (المعلم) وأن الجميع أمامه خضوع وخدمة له، إلى درجة أن المحقق معهم كثيرا ما يفضح بعضهم بعضا في حضوره، وبصفة تلقائية، ولذلك نجده يعلق- مثلا- على رئيس المخابرات رابح سيكس بانس، وقد صار خاضعا له كل الخضوع أثناء التحقيق في مقتل الأرملة (أين أنت أيتها المخابرات العظيمة في بلدتنا، أهذه هي الصورة الحقيقية لرجل المخابرات الأول ؟) [1]،

والمصادفات دائما تخدم رئيس اللجنة، فبعد تهديد رابح سيكس بانس له في منزله، وقبل خروجه هو وزوجته إذا بعبد الواحد رئيس الجريدة يحضر فجأة ليعلن (أنا الآن أغرق، ولذلك يجب أن يغرق الجميع معي) حاول رابح سيكس بانس أن يثور في وجهه فانهالت قبضة قوية على جبهته أعادته إلى مقعده دون أن يتخلى عن محفظته العجيبة، صاحت زوجته وقفزت نحو سي عبد الواحد، واعملت أظافرها في وجهه [2]،وعندما يعود رابح سيكس بانس ليهدد، يعود عبد الواحد ليضربه من جديد، ولكن من عبد الواحد هذا ؟

عبد الواحد في الظاهر هو رئيس الجريدة، وهو (يعرف الكثير من الأشياء، وأن هناك اتفاقا بينه وبين عزوز الكابران، وإلا فما معنى ذلك التعجيل بتعينه سفيرا في عاصمة بعيدة كل البعد عن بلدتنا) [3]، ثم يتأكد الراوي أن (سي عبد الواحد هو الذي يدير الأمور كلها في مجال المخابرات) [4]، كما يتوصل عن طريق تفكيره أن (عبد الواحد هذا هو النموذج الحقيقي للسياسي الذي يركب ظهر كل موجة) [5]، وعلى العموم فإن عبد الواحد – ولنلاحظ رمز اسمه – هو عبد خدوم لسيده، يعمل لمصلحته الخاصة ولمصلحة هذا السيد، فهو لا يتورع عن اتهام الراوي (المعلم)

---

1 – م. ن. ص، 198
2 – م. ن. ص، 199–200
3 – م. ن. ص، 93
4 – م. ن. ص، 69
5 – م. ن. ص، 143

بصفته معارضا بمحاولة إحراق الجريدة التي تحمل بدورها اسم (الرأي الواحد) أي رأي السلطة لا غير، كما أنه لا يتراجع عن طرد الصحفي الذي حاول التحقيق في قضية مقتل الأرملة وذلك لأن عبد الواحد هذا رجل طموح أكثر من اللازم، وطماع (لقد رغب دائما وأبدا، تحت إلحاح زوجته أن يكون سفيرا لبلدتنا في مدينة من المدن الراقية خارج التخوم زوجته تحب السهرات والألبسة الفاخرة والحلي الثمينة، وهي لا تكاد تجد ما ترغب فيه داخل بلدتنا) [1]، هو إذن نموذج للموظف الانتهازي الوصولي الذي يعمل بكل الوسائل لإرضاء سيده عندما تكون هناك مصلحة تربطه به، فهو بعد ضياع المصلحة الخاصة ، وبعد فقده الأمل في سيده عزوز الكابران يأتي إلى بيت المعلم ليعلن له (إذا كنت تريد أن تواصل التحقيق فأنا مستعد لتقديم العون لك) [2]، وهذا ما يجعل الراوي نفسه يعلن عن تعجبه من هذا الموقف الجديد (وفهمت من سلوك عبد الواحد أنه يريد أن يصفي حسابه مع عزوز الكابران نفسه) [3]، فصورة عبد الواحد هذا كغيره من أفراد هذه الفئة صورة سيئة ومشوهة، إذ هو الذي دبر قضية اعتداء ابن سعيد زوج نجوم على ابنة الحلاق، وهو رجل عزوز الكابران المكلف ظاهرا بالإعلام، وحقيقة بالمخابرات، وهو الذي اتهم المعلم بمحاولة إحراق الجريدة، كما طرد الصحفي المخلص، وهو بعد هذا كله (عبد الواحد) مدير جريدة (الرأي الواحد) الجريدة التي ترفض نشر الأخبار التي تهم البلدة، كقضية مقتل الأرملة زوجة الشهيد، وقضية الاعتداء على شرف ابنة الحلاق، لذلك كله فلا أحد يحبه (فهو عندما راح يصعد سلالم البناية صفق له الصحفيون على سبيل السخرية فتبعهم أهل البلدة) [4]، وعندما تأكدت التهمة ضده في قضية الاعتداء على ابنة الحلاق قام عزوز الكابران أمام الجميع وصفعه صفعة قوية أوقعته أرضا، ومرة أخرى أثناء إعلان نتائج التحقيق هم عزوز الكابران (بالوقوف لكي يضرب سي عبد الواحد، فهرب هذا واحتمى بالشيخ) [5]،

وعلى العموم فإن الكاتب يقدم هده الجماعة كلها على أنها مجموعة من الأوغاد لا يكاد أحدهم يفضل الآخر يجمعون في ذواتهم وطبيعة أخلاقهم كل الصفات السيئة والرذيلة.

---

1 – م. ن. ص، 63
2 – م. ن. ص، 200
3 – م. ن. ص، 201
4 – م. ن. ص، 172
5 – م. ن. ص، 157

ولعل الشخص الوحيد من هؤلاء المقربين من عزوز الكابران الذي لا نستطيع أن نجزم بتصنيفه ضمن قائمة حاشيته والمقربين منه رغم أنه من أقاربه، هو محمود الحداد وإن كانت شخصية هذا الرجل غير واضحة المعالم بالشكل الكافي، فهو يقدم في بداية الرواية على أنه رجل مخابرات نشيط يعمل لصالح عزوز الكابران، خاصة وأن معمله يقع في نهاية الشارع الرئيسي بالبلدة مما يسمح له الإطلاع على كل صغيرة وكبيرة فلا (يتحرك شيء مريب إلا وكان خبره عند الحاكم) [1]، ولو أن معمله يشتغل بآلات تعود إلى القرون الوسطى وهي دلالة على تخلف الصناعة في البلدة، ويصفه الكاتب بعد ذلك بأنه(ضحية من ضحايا عزوز الكابران) [2]، وهو (آلة عجماء لا تكاد تفهم شيئا) [3]، فعندما يكذب عليه الراوي بأن سعيد زوج نجوم يعارض توسيع معمله ، وهو يهدف من وراء كذبه هذا إلى استدراجه للبوح ببعض المعلومات المتعلقة بالاعتداء على ابنة الحلاق، ومن ثم مساعدته في التحقيق، ويرى أن محمود الحداد يصدقه فيما يقول يحكم عليه بالغباء، ثم يضيف الراوي بعد قليل (أكد لي شيخ الجامع أن محمود الحداد رجل طيب القلب، وهو غبي فعلا) [4]، ويتضح من مسار الأحداث أن محمود الحداد هذا ذو طوية طيبة، وأنه إنما كان مستغلا من قبل عزوز الكابران، إلا أنه عندما اتصل بلجنة التحقيق، وخاصة بسبب خوفه من شيخ الجامع بدأ يتغير، ويتعاون مع اللجنة، مع العلم أن الشيخ أغراه مرة بأنه سيساعده على توسيع معمله (عندما تنتهي الأمور وينتهي التحقيق) [5].

ويبعد رئيس اللجنة بعد ذلك محمود الحداد من قائمة المشبوهين، فهو لم ينل شيئا من قريبه، وهو غبي، كما أنه فوجئ به عندما كانوا يدخلون بناية الحكم (وقد وقف بين الجموع المحتشدة) [6]. لقد حدد موقفه إذن بانضمامه إلى صفوف الشعب، مما جعل الراوي يقول له بعد ذلك صراحة (أنت إنسان عامل، وليس لك من ظهير إلا ساعدك) [7].

---

1 – م. ن. ص، 9
2 – م. ن. ص، 113
3 – م. ن. ص، 116
4 – م. ن. ص، 122–123
5 – م. ن. ص، 132
6 – م. ن. ص، 168
7 – م. ن. ص، 205

وتجدر الملاحظة هنا، وقبل أن ننتهي من الحديث عن محمود الحداد إلى أنه الشخصية الوحيدة في الرواية التي وقع عليها تطور واضح، فقد تخلى محمود الحداد عن فئة عزوز الكابران، وانضم إلى فئة شيخ الجامع، وبقية الشعب، وأن كان هذا الانتقال بدوره لا يبدو نابعا من الاقتناع الكامل بضرورته، وبالإيمان به، ولكنه تم تارة عن طريق الإغراء، وتارة أخرى عن طريق التخويف.

دور المرأة

على الرغم من أن شخصية المرأة تأتي في هذه الرواية في الدرجة الثانية إلا أن دورها هذا لا يستهان به، مع الإشارة إلى أنها موجودة ضمن الفئتين، فئة عزوز الكابران، وفئة شيخ الجامع، فنحن نجد ضمن الفئة الأولى أدوارا خمسة أعطيت للمرأة، أربعة أدوار تمثلها زوجات عزوز الكابران، وسعيد زوج نجوم، ورابح سيكس بانس وعبد الواحد، أما الدور الخامس فهو دور العجوز، مع الإشارة إلى أن أدوار النساء الزوجات – ومع الاختلاف فيما بينها من حيث الأهمية– هي في عمومها أدوار عادية تقريبا، فنحن لا نكاد نعثر إلا على ذكر سريع وخفيف لزوجة عزوز الكابران التي تصفها زوجة رابح سيكس بانس – ربما غيرة أو حسدا وكرها لها – بأنها (وقفت دائما وقفة المتكبرة المتعجرفة من الأرملة وأسرتها) [1]، ولا يخفى ما يلاحظ في هذا القول من جانب إيحائي، فزوجة عزوز هي زوجة الحاكم، والأرملة هي أرملة الشهيد الذي ضحى بنفسه دفاعا عن الوطن.

وإذا كان الكاتب قد ذكر ذكرا سريعا كلا من زوجة عزوز الكابران وزوجة سعيد زوج نجوم، فإنه توقف أكثر مع كل من زوجة رابح سيكس بانس وزوجة عبد الواحد، ولا بد أن ذلك يعود إلى الفارق الواضح في طبيعة الشخصية لدى كل من زوجتي عزوز الكابران وسعيد زوج نجوم من جهة، وزوجتي رابح سيكس بانس وعبد الواحد من الجهة الثانية. إذ يتضح من خلال النص الروائي أن زوجتي عزوز وسعيد هما أقرب إلى الزوجات التقليديات اللواتي يعشن عادة في الظل إذا ما قورن دورهن بدور أزواجهن، ولا بد أن الكاتب اختار أن يكون دورهما بهذا الشكل لكي يزيد الموضوع سخرية، فهما زوجتا الرجلين الأكثر قوة في البلدة، المسؤول الأول ومسؤول الأمن، وكلاهما عسكري متخلف متعجرف.

---

1 – م. ن. ص، 193

ولا يخفى علينا هنا أن دور المرأة ليس إلا جزءا أو جانبا من شخصية الرجل، بينما الأمر يختلف بشكل واضح بالنسبة إلى زوجتي رابح سيكس بانس وعبد الواحد، ولقد كان حضورهما في النص الروائي – بسبب هذا الإختلاف بالذات في طبيعة شخصيتهما– أقوى.

فزوجة رابح سيكس بانس التي يصفها – وهو قلما يصف– بأنها (مترهلة بعض الشيء على وجهها الكثير من النمش، وشعرها الذي ظهرت منه خصلات من خمارها يتأرجح بين الشقرة والحمرة والسواد، أما عيناها فصغيرتان بالقياس إلى مساحة وجهها لكن شفتيها مكتنزتان، ويختفي وراءها ذلك اللسان الذي ذاع صيته بين نسوة البلدة) [1].

هذه الزوجة لها بالفعل حضروها القوي، فهي عندما علمت بأن المعلم هو الذي يترأس لجنة التحقيق جاءت إلى بيته دون خوف، وعندما أطلت العجوز الحيزبون من بيت المعلم الموجودة فيه هذه المرأة، وأعلنت أن زوجها رابح سيكس بانس قادم ردت هي على تخوف المعلم بقولها (سوف أتكفل به أنا فلا تخش شيئا) [2]، ويصفه المعلم بعد ذلك بقوله (ما إن وقف قبالتي مرتعشا مرتعدا من الغضب حتى قالت له زوجته آمرة ناهية هيا اقعد، واستمع إلى ما يقال، فجلس ووضع محفظته على ركبتيه وأنا متعجب من أمره، أولئك هم حكام بلدتنا، أسود في ناحية، أرانب في ناحية أخرى) [3]، وعندما بدأت تتحدث عن زوجة عبد الواحد بشكل غير محبب (ظهر جليا أن هناك معركة حامية الوطيس بين كل من زوجة رابح سيكس بانس وزوجة سي عبد الواحد) [4]، وتدخل زوجها لكي ينصحها بعدم الطعن في أعراض الناس (فكادت تقوم من مكانها لتصفعه لولا أنه احتمى بمحفظته) [5].

يرجع هذا الخلاف الموجود بين المرأتين إلى الحسد والغيرة المتمكنة منهما، أو على الأقل من نفسية زوجة سيكس بانس التي نلتقي بها في الرواية بشكل واضح، بينما لا نلتقي بزوجة عبد الواحد، لكن نسمع عنها سواء برواية زوجة

---

1 – م. ن. ص، 188
2 – م. ن. ص، 194
3 – م. ن. ص، 194–195
4 – م. ن. ص، 195
5 – م. ن. ص، 196

سيكس بانس عدوتها، أم رواية غيرها. ومن بين أسباب هذا الخلاف بين المرأتين السباق نحو الشهرة والمكانة الاجتماعية، فها هي زوجة سيكس بانس تصرح ببعض الحقيقة (لقد فكرت في فتح صالون للحلاقة في بلدتنا هذه، وحددت المكان، ووضعت كشفا بالمصاريف، وبكل المستلزمات، وإذا بتلك النعامة الغبية تستولي على الفكرة) [1]، وهذه المرأة تجمع بين المتناقضات، فهي من جهة تحاول العمل على فرض وجودها بصفتها امرأة المجتمع الراقي، إلا أنها من جهة أخرى غبية وسليطة اللسان، ولا بد أنها كانت تحس ومهما فعلت بأنها أقل مكانة وأهمية من زوجة سي عبد الواحد التي كانت باستمرار تلح على زوجها بضرورة الحصول على منصب سفير لكي تتمتع بحياة الرفاهية والمكانة الاجتماعية الراقية، ولا شك أن الحكم النهائي والواضح والمباشر على زوجات المسؤولين في البلدة يتلخص في هذه الفقرة (ظننت أن وراء عزوز الكابران خاتونا، أو قهرمانا أو شجرة نر، وأمنت حقا أن إلى جانب رابح سيكس بانس امرأة تشد عضده، وتؤازره في جميع المعضلات، وها أنذا أطلع على تلك البؤرة العفنة التي لا عفن بعدها) [2].

ومما سبق يتضح أن أدوار هؤلاء النساء إنما جاءت لتكمل وتوضح الصورة البشعة لأزواجهن المسؤولين ورجال السلطة في البلدة، فالرواية إذن تقدم أفراد هذه الفئة كلهم في صورة بشعة وسيئة، إنها في الحقيقة صورة أناس لا ينتمون إلى البلدة إلا بصفتهم مستفيدين منها متسلطين عليها.

ولا ننتهي من دور المرأة التي تنتمي إلى هذه الفئة قبل الحديث عن دور المرأة العجوز التي يلقبها الكاتب بـ «الحيزبون» كانت هذه المرأة « ماسحة في بناء الحكم ولم تكن تتجاوز الخمسين» [3]، وهي صورة للمرأة المشوهة من كل النواحي، وقد «شاع عنها أنها زوجت العديد من أبناء البلدة بحكم تسربها إلى العائلات وتعرفها على بناتها، وشاع عنها أيضا أنها نظمت لقاءات غرام بين عدد من أصحاب عزوز الكابران وبعض اللواتي يطمعن في المال والجاه على حساب شرف البلدة

---

1 – م. ن. ص، 196

2 – م. ن. ص، 197

3 – م. ن. ص، 112

وتقاليدها » [1] كان لها دخل في عملية اغتصاب ابنة الحلاق، عندما دخلت إلى بيت المعلم رئيس لجنة التحقيق « جعلت تغني أغنية بذيئة، وتأتي حركات لا يمكن أن تصدر عن عجوز في مثل سنها أبدا» [2] مما جعل الراوي يعلق على هذا الموقف «لقد لعبت بعزوز الكابران وأعوانه، وها هي تراوغني، مع يقينها أنها لن تحصل على شيء مني» [3]، هي الرسول الذي استخدمه غزوز الكابران لكي يرسله إلى المعلم «سي عزوز يقترح عليك أن تصير مديرا للمدرسة، وأن تكف عن متابعة تحقيقك» [4] وعندما يتحكم المعلم بشكل جيد في الموقف، ويضغط على العجوز فإن هذه «لم تتردد في القول، بأن سي عبد الواحد مدير الجريدة هو الذي خطط للعملية وأفسح المجال لابن سعيد زوج نجوم لتنفيذها في داره» [5]، والعجوز بعد هذا تجمع الكثير من المتناقضات في ذاتها، فهي بسبب جهلها وأميتها وحاجتها تستخدم من قبل عزوز الكابران ورجال السلطة إلى أقصى الحدود، ولكن، وبسبب هذه الأسباب أيضا وغيرها فإنها تستمال بسرعة إلى الكفة الأخرى، فعندما يضغط المعلم عليها ويخوفها بذنوبها تعترف له بكل شيء، كما أنها بسبب هذا الخوف، وبسبب الخوف من ايراد اسمها في ملف التحقيق دخلت على الشيخ في المقصورة، و«بدأت تنتحب وتحاول أن تقبل يده وكأنها تسأله الصفح عما أرتكبته في حق البلدة كلها» [6]. وقد جاءت صورتها الجسمية أيضا منسجة مع صورتها الأخلاقية والنفسية «عيناها كبيرتان، وجبهتها ناتئة، وجسدها منكمش في قامة قصيرة، أما يداها فتبدوان أكبر من ساعديها، كل ما فيها خارج عن نطاق الطبيعة، بما في ذلك صوتها الذي يخرج من صدرها حلزونيا ملتويا، وتحاول تصحيحه، وتجميله عندما يبلغ شفتيها» [7].

تلك هي الفئة الأولى من شخصيات هذه الرواية، وهي فئة عزوز الكابران وحاشيته ومن لف لفهم، وهي كما رأينا فئة من المتعطشين إلى السلطة، ومن

---

1 – م. ن. ص، 134
2 – م. ن. ص، 136
3 – م. ن. ص، 138
4 – م. ن. ص، 141
5 – م. ن. ص، 148
6 – م. ن. ص، 171
7 – م. ن. ص، 134

الانتهازيين والوصوليين من هذه الحيوانات البشرية الفاقدة لروح الاخلاق والانسانية، الخ.. وبينما كانت طبيعة هذه الفئة بهذا الشكل فإن الفئة الاخرى تقف في الضفة المقابلة لها تماما، فقد اختار الكاتب أن يحدد وبكل دقة منذ البداية موقع كل شخصية من شخصياته، ولعل الاستثناء الوحيد – كما ذكرنا سابقا – يتمثل في محمود الحداد الذي وقع عليه بعض التطور النسبي في موقفه فانتقل من فئة إلى أخرى، هما فئتان اذن متميزتان ومتقابلتان، تقف احداهما في جهة بينما تقف الثانية في الجهة المقابلة لها، ومثلما أن الفئة الأولى يقف على رأسها - كما مر بنا - عزوز الكابران ويتلوه مباشرة كل من سعيد زوج نجوم، سيكس بأنس، وعبد الواحد، والعجوز الحيزيون، وغيرهم، فإن الفئة الثانية يقف على راسها شيخ الجامع الذي يتلوه في الدرجة المعلم رئيس لجنة التحقيق، والطبيب والصحفي المطرود، والحلاق، وعمر الزواوي ثم الارملة التي وان كانت قد ماتت إلا أن التحقيق استطاع أن يثبت حضورها من جديد سواء عن طريق الحديث عنها باستمرار أم بحضورها الفعلي عن طريق تسجيل الصحفي لصوتها مما جعلها - حتى وهي متوفاة - تدلي بشهادتها الحية والمفيدة لعملية التحقيق، كما ينضم إلى هذه المجموعة غير هؤلاء من أمثال ابنة الحلاق وخطيبها ابن المرأة الطالب خارج البلدة.

الشخصية اذن التي تقف على رأس هذه المجموعة الثانية، وتقدم بصفتها مؤثرة تأثيرا قويا في مسار حدث الرواية هي شخصية شيخ الجامع، ولعل الصفحات المخصصة لشيخ الجامع في الرواية تتجاوز الصفحات المخصصة لأية شخصية آخرى بما في ذلك عزوز الكابران نفسه الذي اتخذ اسمه عنوانا للرواية، فمن هو شيخ الجامع هذا ؟ ما طبيعة شخصيته ؟ وماذا يمثل في الرواية ؟

تجدر بنا الاشارة منذ البداية وقبل أن ندخل في تفاصيل صورة وطبيعة هذه الشخصية إلى الاهمية القصوى التي أولاها لها الكاتب، فشخصية شيخ الجامع في هذا النص الروائي تقابل شخصية عزوز الكابران وجميع اتباعه، كما أنها تقف على رأس المجموعة التي تمثل في الرواية جانب الشعب، ولا تتمثل أهمية هذه الشخصية في هذا فقط، ولكن أيضا في كونها قد بنيت بشكل جعلها شخصية منسجمة مع نفسها في اكتمالها ووضوح معالمها، مما جعلها تبرز بصفتها شخصية قوية واضحة المعالم والسمات، تفرض ذاتها ونفسها على الجميع، الاصدقاء والاعداء.

ولا بد أن بقطاش مرزاق وهو يصور هذه الشخصية كانت في ذهنه صورة الحاج، وصورة رجل الدين التي كثيرا ما قدمت بشكل سيء في نماذج مختلفة من الرواية

الجزائرية، وكذلك القصة، فكأن الكاتب كان يهدف من وراء تقديمه لشخصية الشيخ الجامع إلى رد الاعتبار لرجل الدين هذا بمنحه صورة مختلفة تماما عن الصورة التي صور بها حتى الآن في كثير من نماذج الأدبيات الجزائرية المعاصرة، وربما هنالك عوامل أخرى اجتماعية وسياسية فرضتها المرحلة الأخيرة من تاريخ الجزائر تكون قد لعبت دورها في صياغة هذه الشخصية بهذا الشكل خاصة وأن الانتهاء من كتابة هذه الرواية لم يتم إلا في ديسمبر 1988، ولابد أيضا أن جزءا من تشكل صورة هذه الشخصية يرجع بالدرجة الأولى إلى ثقافة الكاتب التي تمتد ما بين الموروث الثقافي اللحضارة العربية الاسلامية، وصورة رجل الدين المقاوم عبر سنين وقرون هذه الحضارة، وكذا صورته عبر تاريخنا، خاصة زمن مرحلة الاستعمار، والتاريخ العربي الاسلامي الحديث والمعاصر...

فشخصية هذا الرجل في جمعها بين الثقافة والسياسة والدين تجمع في تشكل صورتها بين صفات وملامح مختلفة من رجال الاصلاح المعروفين في تاريخنا الحديث من أمثال محمد عبده وابن باديس، وخاصة جمال الدين الأفغاني، وربما تمتاز عنهم جميعا ببعض الصفات كما سيتضح فيما بعد، فما هي صورة الشيخ هذا؟

ستتضح لنا هذه الصورة بعد عرض الجوانب المختلفة لهذه الشخصية، وأول هذه الجوانب جانب شخصيته الخاصة، وكذا شخصيته بصفته رجل دين.

فالشيخ في ذاته رجل هادئ متزن شجاع ذكي، يقول عنه المعلم «الراوي» « هو شيخ له موقف معين من الحياة، وأنا أعمل على تكوين مثل هذا الموقف» [1]، كما أن الشيخ يعرف طريقه جيدا، يقول عنه « أعجبني فيه هدوءه أيضا، وأن كان هدوءه نهر جارف في أعماقه، لا يصمد في وجهه شيء» [2]، وهو رجل دين طبعا، ولكن يفهم الدين على حقيقته» [3].

هو رجل ذكي، واع، مثقف، مخلص، شجاع، إلخ.. ولكنه أيضا إنسان قبل كل شيء فعندما كانوا « مجموعة لجنة التحقيق» يستمعون إلى صوت الأرملة في المسجلة، «أبصرت ـ يقول الراوي ـ بدموع تترقرق في عيني الشيخ، فأشرت إلى الصحفي بأن يوقف المسجلة» [4]

---

1 – م. ن. ص، 80

2 – م. ن. ص، 80

3 – م. ن. ص، 161

4 – م. ن. ص، 215

شيخ الجامع إذن ليس مجرد رجل دين تقليدي عادي، كما هو معروف، أوكما تعودنا أن نجده في الروايات والقصص الجزائرية، وهو ليس كما وصفه عزوز الكابران عدوه الأول بأنه «رجل مغلوب على أمره.. يعيش خارج التاريخ، لا يكاد يعرف ما يجري في البلدة» [1].

ولقد عرفه رابح سيكس بانس على حقيقته عندما إلتقى به ولاحظ ذكاءه اللامع وخبرته وحكم بخطأ «غزوز الكابران حين أتهم الشيخ بالعيش خارج دائرة التاريخ»، [2] والمعلم «الراوي» بدوره كان يظن الشيخ لا يفهم من القران « سوى الصلاة والصيام» فإذا به يأمره «بتعليم الأطفال طريقة التمرد على الحكام، والذين يستولون على الحكم بالقوة » [3]، ويتأكد للمعلم بعد ذلك أن أراء الشيخ «السياسية كانت متطورة جدا ولم تتوقف عند حدود الحلال والحرام مثلما أشيع عنه» [4].

هكذا إذن ومما سبق يتبين لنا أن شيخ الجامع هذا، لم يكن ذلك الشيخ العادي الذي تقتصر وظيفته على تعليم القرآن للأطفال، والصلاة بالناس في الجامع، وارشادهم ووعظهم في الإطار الديني المعروف، ولكنه يجمع بين الجانب الديني، وجانب الوعي بالسياسة، كما أنه واع بأهمية الثقافة ودورها في المجتمع، قال مرة للمعلم «أنت معلم، وهذا أمر خطير في هذه البلدة» [5]، ويتعجب المعلم من كون الشيخ يعرف عنه أمورا كثيرة منها مثلا ما يقرأه من كتب، وهو يقارن أحيانا بين نفسه وبين هذا الشيخ «شيخ الجامع له رأيه، وهو يكشف عنه أمام الناس أجمعين، أما أنا فأخفي موضوع اهتمامي، واستتر ثم ينكشف أمري للبعض دون أن أدري» [6].

وبفعل ثقافته ووعيه وقوة شخصيته وغير ذلك، فإن شيخ الجامع هو الذي يقود هذه الفئة المواجهة لعزوز الكابران وأعوانه، وعلى رأس هذه الفئة المعلم نفسه، وهو الرجل المثقف والمؤلف، ورئيس لجنة التحقيق، يقول هذا المعلم بعدما سجن في زنزانة واحدة مع شيخ الجامع «شعرت أنني لعبة بين يديه، ولم تمض أكثر من ساعة على وجودي معه في تلك الزنزانة، وإذا به يغير تفكيري» [7]، ثم يضيف بعد

1 – م. ن. ص، 37
2 – م. ن. ص، 38
3 – م. ن. ص، 71
4 – م. ن. ص، 72
5 – م. ن. ص، 74
6 – م. ن. ص، 75
7 – م. ن. ص، 79

ذلك «لو أنني كنت أختلف إلى مقصورته لاوجزت الطريق، وكفيت نفسي شر قراءة أشياء ما كانت لتزيد من معلوماتي عن الواقع السياسي عبر التاريخ» [1]، كما أن الشيخ نفسه يقول له « لقد بدأت تفهم الحقائق، ثق أن وجودك اليوم في هذه الزنزانة لا يمكن أن يقاس باندر المعلومات التي يمكن أن تعثر عليها في اندر المخطوطات» [2]، فقد كانت الساعات القليلة التي جمع فيها الكاتب بين الشيخ والمعلم بمثابة مدرسة كاملة تعلم فيها المعلم من الشيخ أمورا كثيرة لا تقدر بثمن.

وعلى الرغم من أن الكاتب لم يوضح لنا الاتجاه السياسي والفكري للمعلم، الأمر الذي ظل غامضا طوال صفحات الرواية، إلا أن هذا استطاع أن يستفيد وأن يتعلم من الشيخ أمورا هامة وكثيرة، فقد صار الشيخ بمثابة المعلم للمعلم، وذلك لأنهما معا يقفان ازاء رجال الحكم في البلدة موقف المعارض، والثائر على الأوضاع.

فإذا كان واضحا أن كلا من شخصية الشيخ، وشخصية المعلم تختلفان في جوانب مختلفة، فإن هنالك على الأقل نقطة واحدة هامة تجمع بينهما، وهي قضية الاهتمام بالسياسة، فالشيخ ـ كما لاحظنا ـ وكما سيتضح أكثر سياسي إلى أبعد الحدود، أما المعلم من جهته فهو منشغل بوضع كتاب يحلل فيه العلاقة بين الجريمة والسياسة ويستفيد كثيرا من الشيخ في الانتقال من مجرد الاعتماد على النظريات إلى الاعتماد على الوقائع الحقيقية والملموسة، ومثلما أن المعلم يقبل بحماس كبير على الاستفادة من علم الشيخ وتجاربه، وأرائه في السياسة والحياة إلخ.. فإن الشيخ بدوره ليس متعصبا لتفكيره، ولا لعلمه، لذلك يرد مدافعا عن المعلم الذي اتهمه عزوز الكابران بأنه « يقرأ كتبا سياسة تبلبل رأسه على الدوام» [3]، بقوله « أننا في حاجة إلى هذا المعلم.. والكتب التي يقرأها لا تحرجنا.. بل نحن نرحب بها، وحبذا لو أن أهل البلدة كلهم قرأوا نماذج من الكتب التي توجد عنده» [4]

والشيخ لا يتمتع فقط بالفهم الصائب والواسع لأمور الثقافة والسياسة وغير ذلك ولكنه يتمتع بقدرة كبيرة أيضا على التعرف بأسرار النفوس وقراءة ما وراء الملامح الظاهرة للأشخاص فهو كثيرا ما يجيب عن تساؤلات تدور في ذهن الراوي «فهم الشيخ سبب حيرتي على الرغم من أنني لم أفصح عن شيء» [5]، وهو عارف

1 – م. ن. ص، 82
2 – م. ن. ص، 82
3 – م. ن. ص، 91
4 – م. ن. ص، 91
5 – م. ن. ص، 156

بنفوس أهل البلدة جميعا «وأعجبت في نفس الوقت بلباقة الشيخ، وبحسن تفهمه لنفسيات أهل البلدة» [1]، وإذا كانت ثقافة الشيخ في المجالات المختلفة واسعة فإنه مثقف محنك في مجال السياسة فقد قرأ «الكثير من كتب التراث لذلك كان مغرما بايراد بعض الحكايات عن موقف رجال السياسة والحكم عبر التاريخ» [2].

ويعترف المعلم بأن جميع الكتب التي قرأها في موضوع السياسة لم تشبع رغبته «لذلك كان علي أن أعثر على مرجع نابض بالحيوية في هذا المضمار ومن ثم وجدت الشيخ هو ضالتي» [3]، ولكن الشيخ لا يكتفي بالأمور النظرية فهو عملي إلى حد بعيد، وها هو المعلم يتساءل بعدما صار أكثر معرفة بالشيخ وشخصيته ألا يمكن أن يكون «الشيخ وراء قرار أهل البلدة بالامتناع عن شراء الجريدة» [4]. وبعدما يصير أكثر معرفة به وبأفكاره يدرك «فعلا أن الشيخ وراء الكثير من الأحداث التي تجري في البلدة» [5]، كما قال له مرة أثناء النقاش، وهما كثيرا ما يتناقشان في أمور السياسة ان «أراء الناس هي التي تمثل القوة الحقيقية» [6] وعن طريق مزيد من الاحتكاك والمناقشة يدرك المعلم «إن الشيخ يعرف الكثيرمن الأشياء كما يفهم من كلامه أن التحقيق قد يؤدي إلى الإحاطة بعزوز الكابران وأعوانه» [7]، وهو يخشى بعد ذلك من التصريح بنيته بشكل مباشر «ينبغي أن تعلم أننا نريد القضاء على عزوز الكابران وأعوانه» [8]

وهو ينظر إلى الأمور ويحللها بنظرة عميقة، وبدهاء كبير ينبىء عن معرفة قوية وخبرة واسعة بأمور السياسة وحيلها والاعيبها، وهو لا يتورع عن تطبيق مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة»، فعندما أعلن الطبيب عن نيته في منع العجوز من زيارة ابنة الحلاق، هذه الزيارة التي اتضح أنها هي السبب في بلبلة ذهن هذه الفتاة مما جعلها تبطىء في الشفاء، رد عليه الشيخ «بأننا في حاجة إليهما وبأن ثقة العجوز فينا لا ينبغي أن تتزعزع حتى نقضي وطرنا» [9]، وعندما طرح موضوع رابح سيكس بانس،

---

1 – م. ن. ص، 128
2 – م. ن. ص، 49
3 – م. ن. ص، 72
4 – م. ن. ص، 77
5 – م. ن. ص، 79
6 – م. ن. ص، 82
7 – م. ن. ص، 95
8 – م. ن. ص، 106
9 – م. ن. ص، 132

قال الشيخ «رابح سيكس بانس له دور آخر، وسوف نكشف عنه في حينه» [1]، كما صرح مرة للمعلم «وكأنه لا يراقب كلامه : عزوز الكابران وراء غرق الأرملة في الوادي، وأنني أعرف الشيء الكثير عن ذلك» [2]، ومرة وهو يتحدث عن جنود عزوز الكابران، قال «في استطاعة هؤلاء الفتيان أن ينقلبوا على عزوز الكابران وأعوانه في طرفه عين» [3]، وعندما عبر المعلم بصفته رئيس لجنة التحقيق عن خوفه من معضلة اغتصاب ابنة الحلاق، سارع الشيخ إلى طمأنته «بل نحن نوشك على الفصل في هذه المعضلة» [4]، ودعا الشيخ المعلم مرة إلى مقصورته، وروى له «نتفا عن قذارات بعض السياسيين من أهل البلدة» ثم قال له «سوف تزداد قرفا على قرف عندما تطلع على بعض الحقائق في تاريخ البلدة كلها» [5].

هذا الشيخ إذن ليس شيخا عاديا، إنه داهية، محيط علما بكل شيء في البلدة، بكل صغيرة وكبيرة. عارف بكل شيء، وله رأي في كل شيء، إلى درجة أن الكاتب نفسه عندما رأى أنه قد بالغ في تضخيم صورة الشيخ علق بقوله «شيخ جهنمي واللّه، حتى هو الآخر يعرف خبائث السياسة والسياسين» [6]، ثم كأنه يستدرك بعد ذلك مدافعا عنه عندما يصفه بأنه «كان يمارس السياسة ولكن بأخلاقيات معينة تفيد أكثر مما تضر» [7].

من الواضح إذن، وبناء على كل ما سبق وغيره من صفات الشيخ التي تمكنه من أن يتمتع بمكانة عالية وهامة في المجتمع، فهو «ذو سطوة كبيرة رغم كل ما يقال عنه ورغم القوة العسكرية التي يعتمد عليها عزوز الكابران» [8]، ولا شك أن عزوز الكابران نفسه صار يخشى من هذا الشيخ «أن يؤلب عليه ذات يوم جيشا من المتعصبين لينقضوا عليه» [9]

---

1 – م. ن. ص، 133
2 – م. ن. ص، 153
3 – م. ن. ص، 156
4 – م. ن. ص، 166
5 – م. ن. ص، 160
6 – م. ن. ص، 145
7 – م. ن. ص، 152
8 – م. ن. ص، 32–33
9 – م. ن. ص، 47

والشيخ بعد هذا يقدم في صورة من يتمتع بشجاعة نادرة، فهو يعتبر جميع حكام البلدة ظالمين، وهو لا يخاف منهم أحدا وهو يجابه بقوة وشجاعة عزوز الكابران وأعوانه أن أيمانه راسخ لا يتزعزع على الرغم من أن هؤلاء يملكون كل شيء، المال والسلاح والقوة، بينما لا يملك هو سوى هذا الإيمان، وفي الرواية تكثر جدا المواقف المعبرة عن هذه الشجاعة، فعندما ـ مثلا ـ يطرح موضوع إضراب الناس عن شراء الصحيفة الوحيدة في البلدة بحضور رابح سيكس بانس يقول الشيخ لسيكس بانس، وهو رئيس المخابرات «أعلم جيدا أني أحد الذين اقترحوا هذا الاضراب، وابلغ سيدك هذا أنني أؤيد هذه الفكرة كل التأييد وأساعد جميع الذين يتخذون مثل هذا الموقف المتفتح»، ومرة «عندما دخل عليه عزوز الكابران.. لم يستدر نحوه، ولم يبال به، وظل منشغلا بكتبه.. قال الشيخ وهو على وقفته تلك أمام كتبه : إن الملوك إذا دخلوا قرية افسدوها.. وعض عزوز شفتيه غضا (قال سعيد) : سي عزوز ليس ملكا، حينها استدار الشيخ نحوهما وقال ساخرا، كيف يجرؤ الملك على الدخول إلى بيت اللّه دون أن يخلع نعليه، واضطرب عزوز الكابران» [1]، ويقول الراوي في موقف آخر «حاولت أن أبين له بأن عزوز انسان قوي مع ذلك، لكنه قاطعني (إنه دودة ليس إلا) » [2]، وهو ـ عندما كانا مقبلين على اللقاء بهؤلاء الحكام ـ نصحه بقوله « إياك أن تتلعثم أمامهم أو تخاف» [3]، وعندما جاءه سعيد زوج نجوم إلى السجن يريد أن يستصدر منه فتوى في بناء المرصد تلبية لرغبة عزوز الكابران رد عليه الشيخ بكل قوة «في استطاعة سيدك أن ينتظر إلى أن تقوم الاخرة، أما أنا فلن أغير موقفي» [4]، وعندما ركل سعيد زوج نجوم المعلم أمامه قال له « دعه أنكم لا تحبون إلا الأميين والجهلة من امثالكم» [5]، وعندما دخل عزوز المقصورة مساء على الشيخ، قال له هذا ساخرا : «ما بالك يا عزوز، هل أضعت طريقك» [6]، وعلى العموم فإن الكاتب بذل كل ما في وسعه لكي يذل عزوز الكابران وأعوانه على يدي الشيخ.

---

1 – م. ن. ص، 38
2 – م. ن. ص، 49
3 – م. ن. ص، 74
4 – م. ن. ص، 76
5 – م. ن. ص، 76
6 – م. ن. ص، 77

وهو قد يلجأ أحيانا إلى خلق مواقف وصور تذكرنا ـ كما مر بنا سابقا ـ بالجوانب الساخرة في رواية الواقعية السحرية في أمريكا اللاتينية، وهذه بعض تلك الصور.

كان رابح سيكس بانس يتحدث عن مشروع المرصد لشيخ الجامع لعله يوافق على إصدار فتوى تجيز بناءه إلى أن وصل إلى قوله «أما الطابق الثاني فسوف تكون فيه قاعة مخصصة للأفراح والحفلات، وما كاد يكمل جملته هذه حتى قذفه الشيخ بمخذته ولعنه، ولعن عزوز الكابران وأعوانه» [1]، وعندما لم يجد رابح سيكس بانس أمامه سوى الهروب بجلدته «راح الشيخ يتبعه بالعصا الخضراء» [2]، ولا يخفى هنا طبعا رمز «الخضراء»، ويضيف بعد قليل: «ثم طوح بالعصا نحوه فاحتكت بارضية الصحن واصطدمت بإحدى العرصات» [3]

ولا شك ـ بعد هذه الصورة التي قدمناها عن قوة وشجاعة هذا الشيخ ووقوفه الصارم في وجه عزوز الكابران وأعوانه ـ إن سؤالا ملحا يفرض نفسه علينا، وهو، كيف يجرؤ هذا الرجل الاعزل الذي لا يملك سوى أيمانه على الوقوف في وجه هؤلاء الأشرار ؟

والواقع، ليس هذا هو السؤال الأكثر أهمية، إذ وجدت أمثلة عديدة في التاريخ القديم والحديث، ولدى مختلف الأمم والشعوب عن الشجاعة النادرة لأناس شجعان، مثل بطلنا الشيخ هذا، يجابهون أعتى العتاة بمجرد شجاعتهم، وأيمانهم، ولكن يرتبط بالسؤال المذكور سؤال آخر لا بد أنه أكثر أهمية منه، وله علاقة جذرية بمسار حدث هذه الرواية، وخاصة نتيجتها النهائية، وهو : كيف استطاع الشيخ والمعلم والطبيب أي أعضاء لجنة التحقيق التغلب بتلك السهولة على عزوز الكابران وأعوانه، لمجرد أن أعضاء اللجنة هؤلاء يملكون الحقيقة ؟

نعتقد أن هذا جانب ضعيف في هذه الرواية، فمنذ البداية حضر الكاتب ـ كما ذكرنا سابقا ـ طبيعة أدوار شخصياته، كما حدد مسار الرواية ونهايتها، وقسم هذه الشخصيات إلى فئتين واضحتي التمايز والاختلاف، فئة كلها قوة، وشجاعة وإيمان وصرامة، وحزم، وما شابه ذلك، هي فئة الشيخ والمعلم والطبيب وغيرهم، وهي فئة الحق.

---

1 – م. ن. ص، 208

2 – م. ن. ص، 39

3 – م. ن. ص، 40

وفئة أخرى كلها ضعف، يتمثل ضعفها في الانتهازية، والجبن، والاختلاس، والوصولية، وفساد الاخلاق، إلى غير ذلك، فكأن السوس ينخر جسمها نخرا، وهي فئة الباطل.

وضعف هذا الجانب في الرواية لا يتمثل في قوة هذه الفئة، وضعف الفئة الأخرى، فمثل هذا موجود في الواقع وعبر التاريخ، ولكن هذا الضعف يتمثل بشكل واضح في ذلك الاستسلام الكامل للفئة الضعيفة، وهي فئة عزوز وأعوانه للفئة الأخرى إلى درجة نهايتها بانحلالها انحلالا كاملا في آخر الأمر، وذلك لأن ضعف هذه الفئة هو في واقع الأمر ضعف معنوي، كما أن قوة الفئة الأخرى قوة معنوية.

وبما أن فئة عزوز الكابران ـ وهي الفئة المنحلة، المنحطة أخلاقيا المتهورة التي تسيطر على ذهن أفرادها الأمية والتخلف ـ هي التي تملك قوة السلطة، فإنه كان من المفروض أن تلجأ إلى استعمال هذه القوة وكان من المفروض ـ حتى في حالة انهزامها ـ ألا تنهزم بهذه السهولة، فالصورة التي سقط بها أفراد هذه الفئة أمام لجنة التحقيق واحدا أثر الآخر صورة ـ في اعتقادنا ـ مبالغ فيها إلى حد بعيد فالحكومات أو السلطات لا تسقط بهذه السهولة، وبديهي أن البلدة في هذه الرواية ترمز إلى الدولة.

العلاقات بين الشخصيات في الرواية

هنالك أمر مهم يجب الإشارة إليه فيما يخص العلاقة بين الشخصيات في هذه الرواية وهو الفرق الواضح في طبيعة هذه العلاقة بين شخصيات فئة شيخ الجامع، وشخصيات فئة عزوز الكابران، وهذا الفرق نابع بطبيعة الحال من طبيعة الشخصيات نفسها فأفراد فئة شيخ الجامع كلهم خير، ولذلك فإن العلاقة فيما بينهم تقوم على الصدق. والإخلاص والثقة المتبادلة لخدمة الصالح العام، بينما تقوم العلاقة بين أفراد فئة عزوز الكابران على الشك والغيرة والخوف، وما شابه ذلك.

لذلك فإن الأمور بالنسبة إلى فئة شيخ الجامع تسير بشكل حسن وطبيعي، تؤدي إلى نهاية حسنة لصالحهم، فعندما يقترح إنشاء لجنة للتحقيق، يقترح شيخ الجامع المعلم رئيسا لها، وتبدأ هذه اللجنة عملها في كامل الجدية، والانسجام بين أفرادها وتعمل الظروف دائما لصالحها، فتتمكن في ظرف قصير بفضل تعاون

أفرادها وإخلاصهم للمهمة، وتعاون الآخرين معها من تحقيق الهدف الذي أنشئت لأجله، فتستميل إليها محمود الحداد الذي يمدها بمعلومات مهمة، ثم تستفيد أيضا من معلومات العجوز، كما يظهر إلى الوجود الصحفي المطرود من الجريدة، والذي كان مختفيا خوفا من اضطهاد السلطة، فيسهل مهمتهم إلى حد بعيد عندما يزودهم بشريط مسجل عليه صوت الأرملة التي كانت موجودة بينهم في قضية الدفاع عن الجسر الذي هو بدون شك رمز للوطن. ومن خلال هذا الشريط تتبين بوضوح خيانة عزوز الكابران للشهداء وللبلدة كلها.

ويحضر أيضا عمر الزواوي، وهو مجاهد قديم، و«من الناس الذين يخشاهم عزوز الكابران بسبب تاريخه الطويل في مقاومتة الغزاة، ومقاومته البطولية المشرفة» [1]، وهو الذي يشهد ضد عزوز الكابران في قضية قتل الأرملة، كانت هذه المجموعة في البداية مشتتة نسبيا، ثم بدأت الظروف تعمل على جمع أفرادها واحدا بعد الآخر، ففي بداية الرواية لم تكن هناك علاقة ـ مثلا ـ تربط بين شيخ الجامع والمعلم، ثم توطدت هذه العلاقة في إطار لجنة التحقيق التي ضمت الطبيب أيضا، ثم التحق بهم الصحفي المطرود وبعد ذلك الأرملة بصوتها الحي المسجل، وكذلك عمر الزواوي إضافة إلى الحلاق وبقية سكان البلدة.

في هذا الوقت الذي كانت الظروف تعمل فيه لصالح هذه المجموعة، فإنها كانت على العكس من ذلك تماما بالنسبة إلى مجموعة عزوز الكابران الذي بدت مجموعته في البداية منسجمة، ثم بدأت تنحل وتتفتت شيئا فشيئا كلما تطورت الأحداث، فنتيجة التحقيق في أمر اعتصاب ابنة الحلاق أدت إلى الإطاحة بسعيد زوج نجوم، وعبد الواحد مدير الجريدة، ونتيجة التحقيق في مقتل الأرملة أكملت البقية عندما أطاحت بعزوز الكابران نفسه، وبقية من معه بطبيعة الحال، أي بالمجموعة الحاكمة كلها.

هكذا إذن فكأنما الفئتان كفتا ميزان، كلما رجحت احداهما خفت الأخرى، أي كلما كانت فئة الشيخ والمعلم تزداد قوة وصلابة واتساقا، كلما كانت فئة عزوز الكابران تسير نحو الهزيمة، إلى أن نصل إلى النتيجة النهائية بالاندحار الكامل لفئة عزوز الكابران بتشتت أصحابه، وجنونه، والانتصار الكامل لفئة الشيخ والمعلم وجماعتهما، ومعهما كل أهل البلدة.

---

1 – م. ن. ص، 40

دور الراوي في رواية عزوز الكابران

لعل ما تعرضنا له من جوانب تتعلق بشخصية المعلم أثناء حديثنا عن شيخ الجامع يكون قد أنار جوانب مهمة من هذه الشخصية ودورها في الرواية. وإذا كنا سنركز في الفقرات التالية على دور المعلم بصفته راوي الرواية، فإننا قبل ذلك سنعرج بايجاز على بعض الجوانب الأخرى التي تزيد هذه الشخصية توضيحا.

فالمعلم في هذه الرواية يتمركز ضمن فئة شيخ الجامع، وهو يأتي بعده مباشرة من حيث أهمية دوره، ولكنه يتمركز في الصدارة أو أنه يقف على قمة الهرم بصفته راوي الرواية وأحداثها، وهو كما يقدم نفسه في بداية الرواية «مجرد معلم في مدرسة» البلدة، اتهمه أحد المسؤولين مرة بأنه يعلم « الأطفال أناشيد تحطم معنوياتهم على الرغم من أنها تمجد نضال البلدة المجيد» [1]، وضعه البعض في مرتبة عالية، فيما اعتبره «البعض الآخر مشوشا سياسيا من الطراز الأول» [2].

والمعلم بالنسبة إلى عزوز الكابران وأعوانه يكون قد وضع في خانة معينة هي خانة الأعداء « فالأولاد الذين يوجدون في فصلي الدراسي ينقلون إليه كل شاردة وواردة عني يحدثونه عن الكلمات التي استعملها عند تدريس مادة التاريخ، ويصفون له نوع الثياب التي أرتديها وألوانها، ووقع خطواتي على المصطبة، ونظراتي إلى عيون التلاميذ» [3]. والمعلم يلبس عادة اللون الكاكي الذي يفضله «على سائر الالوان الاخرى» [4] و لكنه ليس حرا فيما يلبس أو يقول، أو غير ذلك «صرت أحسب حسابا لما أقوله في القسم الدراسي، وألبس ثيابا ذات ألوان محايدة، وأحاول لخطواتي على المصطبة أن تكون هادئة كل الهدوء» [5].

هذا المعلم إذن، كان في البداية مسالما على الرغم من أن له أراءه وأفكاره الخاصة، ولكنه كان مغلوبا على أمره، ومع ذلك، ولأنه المعلم المثقف الواعي، والمؤلف أيضا، وإن كان لم يطبع بعد مخطوطه، لا يمكن أن يترك لحاله، فبمجرد وقوع حدث في البلدة وهو اضراب أهلها عن شراء الجريدة وجد نفسه في السجن

---

1 – م.ن. ص، 182
2 – م.ن. ص، 6
3 – م.ن. ص، 7
4 – م.ن. ص، 9
5 – م.ن. ص، 10

إلى جانب شيخ الجامع، فالذي يجمع بينهما هي معارضة السلطة على الرغم من اختلاف أرائهما إلا أن هنالك فرقا واضحا ـ كما مر بنا سابقا ـ بين شخصية المعلم، وشخصية شيخ الجامع، فعلى الرغم من أن للمعلم أراءه وأفكاره، إلا أنه لا يجرؤ على أن يقيس وزنه في البلدة بوزن الشيخ، ولذلك فهو يقبل بأن يضع نفسه بالنسبة إلى الشيخ في مكان التلميذ : «أحسست أنني أدخل بالفعل مرحلة جديدة في حياتي الفكرية، ساعتان في السجن كانتا كفيلتين بتغيير العديد من الأفكار التي رسخت في ذهني» [1]، وهو يعترف أن شخصيته لم تكتمل مثل شخصية الشيخ، أوحتى شخصية الطبيب «ليست لي شخصيتهما ومكانتهما في البلدة، وهذا لا يمنعني من أن أصنع هذه المكانة والشخصية بنفسي» [2]

والواقع أن دور المعلم ظل يتطور إيجابيا مع تطور الأحداث، كما أن شخصيته كانت تتضح أكثر فأكثر، وتفرض نفسها مع مواصلة عملية التحقيق، بوقوف شيخ الجامع بقوة إلى جانبه، وكذلك خدمة الظروف المختلفة له.

ولعله من المفيد ونحن نحاول تحديد طبيعة شخصية المعلم أن نقف وقفة قصيرة مع نقطة تتعلق بطبيعة هذه الشخصية، وهي المتمثلة في وجود بعض التشابه بينه وبين راسكولنيكوف بطل رواية الجريمة والعقاب لدوستويفسكي، فرغم الاختلاف الجذري بين طبيعة الشخصيتين إلا أن هنالك مسألة موجودة لديهما معا، ويمكن أن تطرح للنقاش، وهي اهتمام الشخصيتين بالبحث في أمور الجريمة والسياسة، فراسكولنيكوف كتب مقالات نشرها في الصحف عن نابليون وانتصاراته رغم الجرائم التي ارتكبها في سبيل ذلك، والمعلم يتوصل ـ في بحثه المخطوط ـ إلى أن «الجريمة لا تساوي شيئا في عرف الرجل السياسي، بل هي ضرورة من ضرورات المهنة، ومطلب رئيس من مطالب النجاح فيها، ثم أن البعد الأخلاقي غير وارد فيها على الإطلاق» [3].

الغاية إذن هي التي تبرر الوسيلة، أما الجانب الأخلاقي أو الإنساني فلا أهمية له أليست هذه هي الفكرة التي اعتمد عليها راسكولنيوف عندما قام بقتل العجوز قصد الحصول على المال ؟

---

1 – م. ن. ص، 10
2 – م. ن. ص، 86
3 – م. ن. ص، 139

وعلى العموم فإن من الواضح أن هموما فكرية وثقافية تجمع بين الشخصيتين، المعلم وراسكولنيوف بصفتهما رجلين مثقفين واعيين تشغلهما مسألة السياسة والجريمة وما يتعلق بهما من جوانب إنسانية وأخلاقية، وإن كان المعلم بعدما ناقش كثيرا موضوع «إلى أي مدى يجوز اللجوء إلى الجريمة السياسية» عاد فأصدر حكما قاطعا وملحا «على وجوب عدم التفكير في الجريمة السياسية كحل إيجابي يرضى به المجتمع، مهما تكن دواعي هذه الجريمة»[1].

الراوي والمنظور

على الرغم من تعدد الأصوات في هذه الرواية فمما لا شك فيه أن صوت شيخ الجامع وصوت المعلم هما اللذان يعلوان على الأصوات الأخرى في التعبير عن صوت الكاتب وعن آرائه. فالكاتب يجعلهما ـ وخاصة الشيخ ـ يفكران، ويقدمان آراءهما بشكل قوي مباشر وموثوق فيه.

وبما أننا تعرفنا بما فيه الكفاية على الشيخ، وشخصيته فيما سبق، كما تعرفنا على شخصية المعلم، فإننا في الفقرات التالية سنقف مع المعلم راوي أحداث الرواية، أو بصفته منظورا روائيا.

لقد بينا من خلال الفقرات والصفحات التي خصصناها لشخصية المعلم أن دوره كان هاما في الرواية، وهو يأتي ـ حسب رأينا ـ في الدرجة التالية مباشرة بعد شخصية شيخ الجامع، هذا من حيث دوره بصفته شخصية من شخصيات الرواية، ولكن شخصية المعلم لا تنحصر في كونها إحدى شخصيات الرواية، على الرغم من أهميتها في هذا الإطار أيضا، وأنما تتجاوز ذلك لتتولى دور سرد أحداث الرواية والقيام بدورها فيها، والتأثير في مسار هذه الأحداث كباقي الشخصيات.

وبالرغم من أن أحداث هذه الرواية لا تروى فقط من وجهة نظر المعلم إذ أن الكاتب ينسى أحيانا أن ينظر إلى الأحداث من خلال ما يراه الراوي أو يسمعه أو يلاحظه لكي يروي مباشرة أي عن طريق ما يسمى بالراوي المتخيل المعبر عن الكاتب، إلا أن المعلم هو الراوي الأساسي المتتبع لأحداث الرواية وشخوصها، ولذلك يهمنا هنا أن نقف مع مسار الحدث كما جاء من خلال نظرة هذا الراوي،

---

1 – م. ن. ص، 119

فالكاتب اخترع هذه الشخصية لينظر بعينيها، ويسمع بأذنيها، ويتابع عن طريقها الأحداث.

وهذا المنظور الروائي أي المنظور من خلال شخصية معينة هو ما أطلق عليه بعض الدارسين «المنظور مع، والعالم التخييلي المتمثل في هذا النوع من القص هو عالم ذاتي مرتبط بشخص ما في زمان ما ومكان ما، ولا نرى هذا العالم في حقيقته المجردة، أي ليس له حقيقة موضوعية بل يتبنى الراوي منظور الشخصية ويرى معها، يلاحظ ما تلاحظه، فنرى العالم التخييلي من خلالها معكوسة على شاشة وعيها»[1].

ونحن نلاحظ بالنسبة إلى هذه الرواية أن الكاتب يؤكد باستمرار على حضور الراوي، فكأنما هو يخشى ألا نصدق الأحداث إذا هو لم ينسبها إلى راو موثوق به مخلص في روايته «وخطر لي عندئذ أن أسجل تفاصيل ما حدث ساعة بساعة ودقيقة بدقيقة، وبعد الفراغ من التحقيق كله، ذلك أنه اتضح لي أن أحسن بحث يمكن أن أكتبه عن العلاقة بين الجريمة والسياسة إنما هو ذلك الذي شهدته بلدتنا خلال تلك الأيام الهوجاء»[2]، ولنلاحظ هنا خاصة الجملة الأخيرة «وعايشته (بضم التاء) خلال تلك الأيام الهوجاء»، وهو يعني حضوره وملاحظته للأحداث بنفسه.

ولنلاحظ أيضا الفقرة التالية «فلتترك (والفعل مبني للمجهول) لحيتي عند حلاقنا هذا حتى نلم بما حدث في الجامع»

لعلكم لاحظتم أنني أتحدث ببعض الاسهاب عما جرى في بناية الحكم، وفي أماكن أخرى دون أن أكون حاضرا بها، لذلك فأنا لا أنكر أنني جمعت مختلف الشهادات والقرائن، وعقدت فيما بينها حتى أقدم صورة متماسكة بعض التماسك عما حدث في بلدتنا[3].

ولا بد أن القارئ لاحظ بشكل واضح أهمية هذا النص الكبيرة في شرح أو تحديد دور الراوي، كما يراه الكاتب.

---

1 – م. ن. ص، 126

2 – م. ن. ص، سي قاسم، بناء الرواية، ص، 182

3 – م. ن. ص، عزوز الكابران، ص، 170

فالراوي كان عند الحلاق، وكان يروي الأحداث حضوريا، وأراد أن ينتقل إلى «أماكن أخرى» وخشي أن لا نصدقه، أو أن نسأله : كيف جئت بهذه المعلومات دون أن تكون حاضرا في الأماكن التي تحكي عنها ؟ لذلك راح يدافع عن نفسه شارحا الطريقة التي حصل بها على هذه المعلومات «لعلكم لاحظتم أنني أتحدث ببعض الاسهاب عما جرى في بناية الحكم، وفي أماكن أخرى دون أن أكون حاضرا بها».

لنلاحظ العبارة الأخيرة من هذه الفقرة «دون أن أكون حاضرا بها»، الكاتب إذن يفترض في الراوي ألا يقول كلمة واحدة عن مكان أو عن شخص، أو غير ذلك دون أن يكون شاهد عيان فعليا.

ثم يضيف أنه جمع «مختلف الشهادات والقرائن و(عقد) فيما بينها»، أي أنه يستخدم مختلف الوسائل التي تساعده للتعرف على الحقيقة كما هي، فهو المسؤول عن كل صغيرة وكبيرة، وعن كل كلمة في الرواية.

ولنلاحظ تأكيد ضرورة حضور الراوي الذي لا تسامح فيه في الفقرات التالية : «لا بد من اقتفاء أثر محمود في مسيرته تلك إلى دار الحاكم حتى نطلع على تشكيلة السياسة في بلدتنا هذه» [1] «وما أسرع ما انسربنا معا داخل معمله، وهنا لا بد من الحديث عن المعمل»، «افتح قوسين هاهنا فأقول أنني لم أجد شيئا خارقا في تلكك اللوحة بعد أن تسنت لي رؤيتها فيما بعد» [2].

ففي هذه الفقرات كلها يتحدث الراوي عن الحضور بنفسه، ويؤكد ضرورة هذا الحضور. وبما أن الحضور في كل مكان لا يتاح دائما بسهولة، أو قد لا يتاح للراوي مهما كان الأمر فإن الحل بالنسبة إليه هو أن يستعين بغيره ممن يتاح لهم هذا الحضور، فدور هؤلاء إذن هو المساعد ة على الرؤية والسماع، وما إلى ذلك، أي المساعدة على الحضور، فهؤلاء إذن مساعدون أو نواب للراوي، يقومون مكانه، أو يؤكدون الدور الذي من المفروض أن يؤديه هو بنفسه، لنلاحظ مثلا هذه الفقرات : «لم تسمح لي الفرصة لدخول دار عزوز الكابران، والوصف الذي أورده هاهنا عنها، نسجته من شهادات وأقوال مختلفة» [3]، «في تلك الآونة جاءني تلميذ من تلاميذي

---

1 – م. ن. ص، 48

2 – م. ن. ص، 11

3 – م. ن. ص، 117

وأخبرني بأن زوجة سي عبد الواحد مدير الجريدة أصيبت بصدمة عنيفة» [1]، «وفي تلك الأثناء جاء من يخبرنا بأن عزوز الكابران ذهب بنفسه إلى دار الصحفي المطرود لكي يلقي القبض عليه، ولم يعثر له على أثر» [2]، «قال لي بعض المقربين إليه فيما بعد» [3]، المهم إذن هو الحضور، سواء أكان حضور الراوي بنفسه، أم حضور من ينوب عنه.

هذا هو دور «الراوي الشخصية» في رواية عزوز الكابران.

وعلى الرغم من أن الراوي في حقيقة الأمر ما هو سوى اختراع من قبل الكاتب، أو هو أسلوب من الأساليب التي يلجأ إليها لإيصال كلمته، فإن بقطاش مرزاق ينهي روايته بفقرة توحي للقارئ بأن راوي الأحداث هو الكاتب نفسه «عاودوني الحنين إلى مخطوطتي حول العلاقة بين الجريمة والسياسة، ولكن الشيخ نصحني بمعالجة موضوع آخر. وقر رأيي في نهاية المطاف على أن أكتب رواية ترصد كل ما حدث في بلدتنا بدءا من قرار أهلها بالامتناع عن شراء جريدة «الرأي الواحد» إلى الساعة التي جن فيها عزوز الكابران، أما التاريخ فإنني تركته للمؤرخين» [4].

أي قر رأيه في النهاية على إهمال المخطوط، وكتابة هذه الرواية، رواية «عزوز الكابران»، وبهذا فإن الراوي يصبح في نهاية المطاف هو الروائي نفسه ؟.

---

1 – م. ن. ص، 227
2 – م. ن. ص، 16
3 – م. ن. ص، 187
4 – م. ن. ص، 208

«بان الصبح»

صراع الأجيال «الأباء والأبناء»

عبد الحميد بن هدوقة

ترتكز رواية «بان الصبح» على محورين رئيسيين هما : صراع الأجيال الذي يتجلى في الفارق الواضح في نمط التفكير وطبيعة الشخصية بين كل من الشيخ علاوة الأب، الشخصية الاساسية في أسرته التي تعتبر الركيزة الأساسية لهذه الرواية، وبين أبنائه وبناته وغيرهم.

هذا هو المحور الأول، أما المحور الثاني، فإنه يتعلق بطرح موضوع المرأة، بشكل أكثر حدة مما طرحه ابن هدوقة في روايتيه السابقتين. نشير في البداية إلى أن البيئة التي اختارها الكاتب لروايته هي المدينة، وهي بيئة العاصمة بالذات، والكاتب كثيرا ما يحدد في هذه البيئة أماكن معينة مثل الجامعة، وشارع محمد الخامس، والمرادية، إلخ.

وهو يصف أحيانا بعض الأماكن بكل دقة حتى يقرب هذه البيئة من القارئ : «وكانتا قد وصلتا إلى نهاية نهج شاراس المتصل في أسفله بشارع العقيد عميروش، فرجعتا معه في اتجاه موقف التافوره الذي يقع في أسفل البريد المركزي إلى جانب حديقة صوفيا» (بان الصبح. ص. 90).

مثل هذا الوصف نعثر عليه في مواضع أخرى من الرواية، ولذلك نشعر في كثير من الأحيان أن الكاتب يتحدث عن حياتنا اليومية العادية فالبيئة هي العاصمة، بهمومها المختلفة ومشاكلها، ومن بين ذلك مثلا، مشكل المواصلات، والسرقة في الحافلات، والخصومات وفوضى الأطفال المهملين في الساحات والشوارع، إلخ.

ثم أن الموضوعين الرئيسيين اللذين ترتكز عليهما الرواية قريبان منا بل هما من صميم حياتنا، فصراع الأجيال موضوع حي دائما وهام في كل الأوقات، إلا أن

الاخيرة، الذي يستغرق الفصل الثامن كله، أي أكثر من عشرين صفحة، وتُناقش فيه مواضيع مختلفة من بينها، الطبقية، وحرية المرأة، والجنس. والثورة واليمين واليسار، إلخ.

كل هذا في الصباح عند قيام دليلة ونصيرة من نومهما، وحتى قبل شرب القهوة.

وكأن الكاتب نفسه أحس بخطأه، أو مبالغته في ذلك عندما جعل دليلة تقول : «قبل السابعة نتكلم عن اليمين وعن اليسار كما لو أن حياتنا معلقة بهما» (بان الصبح، ص. 185).

فبعض فصول الرواية تتحول أحيانا إلى جلسات للحوار، خالية من أية حركة، أو حيوية.

مما لاشك فيه إذن أن هنالك فرقا واضحا في خفة الحدث الروائي أو ثقله بين فصول الرواية وصفحاتها المخصصة لمناقشة الأفكار النظرية، وبين تلك الفصول والصفحات التي يخصصها الكاتب لتصوير شخوصه في حياتهم، وفي صراع بعضهم مع بعض، وخاصة ـ منهم ـ افراد عائلة الشيخ علاوة

* * *

نريد منذ البداية، وقبل الدخول في الحديث المفصل عن الشخوص، ان نقرر أمرا، وهو أن ابن هدوقة وفق كل التوفيق في اختياره لتركيبة الاسرة التي يمثل أفرادها احداث الرواية، وان كان في الواقع، وفي اختياره هذا لم يخرج عن طريقة بعض كبار كتاب الرواية العربية مثل نجيب محفوظ، وخاصة في ثلاثيته، أو بعض الكتاب العالميين الكبار من أمثال الكاتب الروسي المعروف دستويفسكي، وخاصة في روايته الشهيرة الاخوة كرامازوف، إلخ.

وذلك في اختياره اسرة ـ لعله يجوز لنا ان نسميها «اشكالية». أي اسرة يمثل افرادها جميع التناقضات، مما يجعلهم مؤهلين، ـ عن جدارة ـ للقيام بدورهم كاملا في تمثيل جميع الاتجاهات والتناقضات، وهو ما يسمح للكاتب، ان يقيم روايته على الصراع الذي يمنح الحدث الروائي حيويته المطلوبة.

ولا شك أن هذا التناقض بين أفراد الأسرة هو ما كان يفكر فيه أحد افرادها وهو رضا ابن الشيخ علاوة عندما كانت الاسرة مجتمعة كعادتها، يناقش أفرادها أحد المواضيع كل من وجهة نظره، ففكر رضا أن ما يجري أمامه هي «كوميديا لأسرة لا

تعرف اين تقع بالنسبة للطبقات الاجتماعية الموجودة أو التي هي في طريق التكوين» (بان الصبح، ص. 159).

هي أسرة ريفية، طارئة على العاصمة، وهذا الاختيار نفسه مقصود، فإذا كان الابناء قد ولدوا في العاصمة أو على الأقل تربوا فيها منذ الصغر فإن الشيخ علاوة وزوجته ريفيان يحاولان ان يتمدنا، ولكن بطريقتهما الخاصة التي تختلف - بدون شك - عن طريقة الأولاد. تتألف اسرة الشيخ علاوة منه ومن زوجته، وابنائه : عمر ومراد، ورضا، وبناته زبيدة، ودليلة، وهالة. بالإضافة إلى منى زوجة عمر وابنائهما، كما يمكن ان نضيف نعيمة الطالبة ابنة آخ الشيخ علاوة، وهو صالح المجاهد سابقا والمقيم في الريف، ومع اهمية جميع هولاء الشخوص وغيرهم، ومع تفاوت هذه الاهمية - بطبيعة الحال بين شخص وآخر : فإن أهم شخصيتين تستوليان على الاحداث - بدون شك - هما الشيخ علاوة، وابنته دليلة.

تكمن اهمية الشيخ علاوة في كونه يمثل جيلا كاملا متميزا بعقليته الخاصة وبنمط تفكيره، وحياته التقليدية، وهو لذلك يقف في زاوية محددة في مواجهة ابنائه، وجيل كامل من الشباب الحامل لأفكار جديدة، وطرق جديدة في التعامل مع الحياة لا يقرها، هو أو يؤمن بها.

بينما تمثل دليلة المرأة الجزائرية، او بالأحرى فئة من النساء الجزائريات اللواتي تمكن من التعليم الجامعي، والمؤمنات بالحرية إلى ابعد الحدود، وهي لذلك تذهب ضحية هذه الحرية بالذات.

* * *

شخصية الشيخ علاوة

الرواية لا تقدم صورة شخصية للشيخ علاوة دفعة واحدة ولكن هذه الصورة تبدأ في النشوء منذ بداية الرواية، وتزداد وضوحا كلما مضينا في القراءة، ولعلها لا تكتمل إلا مع نهايتها، والشيخ علاوة يقدّم احيانا، وفي بعض جوانب شخصيته مباشرة من خلال السرد، بينما يضيء جوانب أخرى من هذه الشخصية تلك الاراء والتعاليق التي تصدر من حين لاخر عن افراد اسرته، يقول الشيخ علاوة عن نفسه : «أبوتي ليست سلطة روحية، انها سلطة مادية ايضا.. من عصاتي أخرجته من بيتي» (بان الصبح، ص. 46).

وتقول عنه ابنته دليلة : «أبي لا يتحدث معه أحد، اليس هو الشيخ علاوة ؟» (بان الصبح، ص. 66).

بينما تصفه زبيدة بأنه «أقطاعي بفكره ولو لم يكن من الملاك» (بان الصبح، ص. 67).

وتقول عنه دليلة في موضع اخر بأنه «رجل اضاع زمانه وبقي بلا زمان .. كلما رأى شخصا وأعجبه حاول تقليده، أو التقرب إليه» (بان الصبح، ص. 110).

تجتمع في الشيخ علاوة كل الصفات التي تجعل منه رجلا محافظا، فهو محافظ في افكاره عندما يناقش، مع العلم أنه من تلاميذ ابن باديس، محافظ في تصرفاته وحركاته، فهو مثلا عندما رأى شابا يلتصق بفتاة في الحافلة بدأ يسعل ويكرر سعاله، لعله يلفت انتباه الفتاة عوض أن يتحدث اليها مباشرة، وهو «لا يحكم على الأشياء بالعقل، ولكن بالشرع» (بان الصبح، ص. 20).

وهو مصلح دائما وباستمرار، كلما رأى منكرا تدخل لكي يصلحه أو على الاقل استنكر وجوده ان لم يستطع اصلاحه، ميثاقه الاول والاخير هو الاسلام : «قالوا لنا الاسلام متأخر، لا يحل مشاكل العصر ها هو الميثاق بدل الاسلام» (بان الصبح، ص. 22).

هو صاحب ثقافة سلفية لا تخرج عن اطار القرآن والحديث والنحو، إلخ... وهو من تلاميذ ابن باديس المخلصين له كل الاخلاص، والمعجب بدستور أستاذة : «شعب الجزائر مسلم، والى العروبة ينتسب».

وهو محافظ في طريقة حياته بصفة عامة فأثاث بيته، وصوره وتحفه كلها تدل على ثقافته وطبيعة شخصيته، وهو لا يخرج من غرفة نومه إلى الصالون الذي يجتمع فيه عادة مع افراد الاسرة إلا بلباسه التقليدي الرسمي.

لذلك كله يصعب عليه فهم هذه الامور الجديدة التي تحدث امام عينيه، وتتجدد كل يوم، فالاشتراكية ـ مثلا ـ هذا المفهوم الجديد عليه الذي لم يرد في ثقافته كلها التي عرفها، هذه الاشتراكية يصعب عليه فهمها، فما بالك الايمان بها، وهي لذلك ـ دئما ـ امر سيء في نفسه وهو لا يبذل اي مجهود لفهمها، أو التعرف على مضمونها، ولكنه ينطق بهذه اللفظة على انها أمر قبيح : «هؤلاء ليسوا عمالا، ليسوا آباء وأبناءً، ولا حتى بشراً هم ملاحدة، اوباش نشالون، هم اشتراكيون، يشتركون في كل شيء، حتى في حلائلهم » (بان الصبح، ص. 30).

فعداوته للاشتراكية متأصلة فيه، ولا مجال لمناقشة هذا الموضوع مع اي كان مادام الاشتراكيون يقفون في صف واحد مع الملاحدة والاوباش، والنشالين ومن شابههم.

أليست هذه الاشتراكية هي التي قلبت تماما صورة هذا الاستقلال الذي كان الشيخ علاوة يفكر انه يجب ان يكون بشكل اخر تماما «لماذا كافحنا اذن ؟ لماذا تعذبنا ؟ ألِنصير اشتراكيين ؟ الاستعمار على الاقل كان يحترم نفسه ودينه، وهؤلاء، ماذا يحترمون ؟ أي شيء هم ؟ من اي جنس ؟ بل من اين خرجوا هكذا فجأة باشتراكيتهم وميثاقهم ؟ يا الهي !» (بان الصبح، ص. 31).

ومثلما سيتضح معنا - فيما بعد - فإن صورة الشيخ علاوة الابوية شبه الاقطاعية ستتزعزع أمام ابنائه وبناته، وسيفقد تلك الزعامة التاريخية الموروثة عن ابائه واجداده، فلذلك يُصدم الشيخ علاوة في ثقافته التي ظل طول حياته يعتز بها، والتي بها وحدها ظل يحتفظ بمكانته وقيمته واهميته : فعندما يستشهد الشيخ علاوة اثناء مناقشة احدى فقرات الميثاق بالاية : «الارض لله يرثها من يشاء من عباده» مدافعا عن الملكية الخاصة يرد أحد الشبان بان الارض موضوع الحديث يملكها اشخاص استولوا عليها بغير حق وهم يستغلون الشعب بها» (بان الصبح، ص. 34).

ثقافته هذه اذن أصبحت لا تدافع عنه وعن مواقفه امام هذا الجيل الجديد وهو على كل حال يقف ضد كل جديد غير مالوف ضد الثورة الزراعية التي ستمس طبقته بشكل واضح، رغم أننا لا نعرف ما اذا كان يملك أرضا أم لا، فذلك غير مذكور في ثنايا الرواية ويقف ضد العلاج المجاني الذي سيؤدي - في رأيه - بالطب إلى الفشل النهائي، مع العلم ان هذا الموضوع يهمه مباشرة فأحد ابنائه، وهو مراد طبيب جراح تخرج من فرنسا.

وتتضح صورة الصراع أكثر، في ذلك اللقاء الذي يتم مصادفة بين رضا أصغر ابناء الشيخ علاوة الذي يحضر دبلوم الدراسات المعمقة في الادب، والذي يقف مع ابيه على طرفي نقيض. اذ .أنه من بين الذين يتزعمون التطوع في الجامعة ذلك اللقاء الذي يتم مصادفة بينه وبين أحد اساتذته السابقين.

فعندما كان رضا ذاهبا إلى أحد اجتماعات الميثاق في مدرسة الحي اعترض طريقه هذا الاستاذ، وبدأ ينصحه بطريق غير مباشر بالوقوف مع الجانب المحافظ،

محاولا العمل على استمالته بصفته الاب الروحي له، إلا أن رضا يتركه ويدخل بكل برود إلى الاجتماع مع نعيمة ابنة عمه التي يقول لها ـ معلقا ـ بعد قليل : «هذا النوع من الناس مثل «جنرالنا» كما تسميه دليلة يعيشون في عصر لا يعرفونه، ويدافعون عن عصور لا يعرفونها » (بان الصبح، ص. 124).

وعندما تقول له نعيمة بعد قليل : «الا تظن بأنهم يدافعون عن مصالحهم ليس الا» (بان الصبح، ص. 125). يرد رضا : «هل ما قلته يناقض هذا ؟ انهم يوهمون الشعب ان ماضي العرب لم يكن الا عدلا، واخوة وسلاما. وانهم لا يريدون سوى إحياء تلك القيم والامجاد» (بان الصبح، ص. 125).

ونحن نجد بعد ذلك في أكثر من موضع من الرواية بأن الزمن تجاوز الشيخ علاوة، مثلما تجاوز هذا الأستاذ.

فالشيخ علاوة صار : «يشعر انه يحيا غريبا في مدينة لا يعرفها» (بان الصبح، ص. 26). وهو يتساءل بعد قليل محتارا : «أين كنت ؟ لماذا لم أشعر بهذا الانقلاب السريع في حياتنا، قبل اليوم ؟ ماذا فتح عيني بهذه الصورة الفجائية ؟ أهم أولئك الشبان الخبثاء الملاحدة في الاجتماع ؟» (بان الصبح، ص. 31).

ونجد شبها واضحا بين كل من الشيخ علاوة بطل «بان الصبح»، والشيخ عبد المجيد بوالارواح، بطل «الزلزال» للطاهر وطار فهما شبه اقطاعيين، مع ان احدهما «بوالارواح» يملك الارض، والاخر الشيخ علاوة لا يملك، وهما معا ينتميان إلى طبقة، تتضرر إذا طبقت الاشتراكية، «بوالارواح» ستؤمم أرضه، والشيخ علاوة سيتضرر بسبب ان الاشتراكية تقف ضد طموحاته في الانتماء إلى الطبقة العليا والانتساب اليها، مع العلم ان احد أبنائه وهو الجراح مراد. متضرر مباشرة بسبب العلاج المجاني.

وهما معا ينتميان إلى جيل محافظ، بسبب الثقافة السلفية. والعقلية السلفية، فهما معا من تلاميذ الشيخ ابن باديس، مع بعض الاختلاف في الايمان بأفكار استاذهما، فأحدهما (الشيخ علاوة) يؤمن بها جملة وتفصيلا، وثانيهما ـ (عبد المجيد بوالارواح) ـ يؤمن بها، ولكن لحاجة في نفس يعقوب. فهو يختلف معه في بعض التفاصيل التي لا تخدم مصلحته، وهما معا، وبسبب ثقافتهما السلفية بالذات. أي غفلتهما يَجدان نفسيهما، وقد تجاوزهما الزمن، فبوالارواح يحاول

استباق الزمن، وتوزيع أراضيه على أقاربه قبل تطبيق الثورة الزراعية، ولكن هيهات، أن يتم له ذلك فقد سبقه الزمن، والشيخ علاوة يجد نفسه فجأة ـ مع مناقشة الميثاق الوطني ـ غريبا عن كل شيء، عن الثقافة التي كان يظن نفسه صاحبها، وعن الناس، والمدينة التي عاش فيها زمنا طويلا، وهنالك أيضا بعض الشبه بينهما، فيما يتعلق بعلاقة كل واحد منهما بأقاربه وأفراد أسرته وإن كان الامر الذي نعنيه هنا، يتعلق بأقارب بوالارواح من ابناء عمومته واصهاره، وذوي الشيخ علاوة من ابنائه وبناته، اي افراد أسرته الخاصة بالذات والشبه بين الشيخين يتمثل في غفلة كل منهما عن التطورات التي حدثت لدى هؤلاء الاقارب وافراد الاسرة، مع الفارق ان بوالارواح يتعرف على هذه التطورات ويفاجأ بها لدى اقاربه بعد غيابه عنهم مدة طويلة، بينما يظل الشيخ علاوة في غفلة عما يحدث من تطورات وامور جديدة لدى ابنائه وبناته، وهو لا يبدأ الشعور بها والتعرف عليها إلا أخيرا وبعد ان يستفحل امرها، فهو ـ مثلا ـ وعن طريق المصادفة فقط، يفتح بعض رسائل ابنائه وبناته ليطلع فيها على أمور هامة وخطيرة، فهذا ابنه مراد الطبيب الجراح الهادئ يقيم علاقة مع امرأة فرنسية، لابد أنه تعرف عليها عندما كان يدرس في بلادها، وهي تبعث له بهذه الرسالة لتستشيره في امر الزواج منها، وهذا ابنه الكبير الذي يعتز به الشيخ علاوة بصفته نائبه وممثله الشرعي، والذي ـ وهو مدير لأحد البنوك ـ يدعي دائما أنْ لامَالَ له، يجد في رسالة قادمة له من أحد البنوك أنه يملك رصيدا ماليا كبيرا في هذا البنك.

وهذه ابنته دليلة ـ وان كانت الرسالة القادمة اليها كتبت قصد التمويه باسم ابنة أخيه نعيمة ـ تنغمس في علاقة جنسية مع أحد أصدقائها إلى درجة الحمل منه.

اين الاخلاق اذن ؟ اين التربية ؟ اين المبادئ التي تربى عليها الشيخ علاوة، والتي ظل حتى الآن يظن أنه يربى عليها ابناءه ؟ لقد اتضح للشيخ علاوة أنه كان حتى الآن يعيش في أكذوبة كبيرة.

وبالإضافة إلى انه لا يعرف ما الذي يجري حوله، ولا التطورات التي تحدث سواء في الواقع، أم في المجتمع، أو في افراد أسرته بالذات فإنه يحمل في ذاته كثيرا من التناقضات، ولكن دون ان يشعر بها أيضا، فهذا رضا ابنه يقول عنه أنه «مجموعة من قطع الغيار ... يريد أن يكون من عداد الاغنياء ... ومع المثقفين، ومع الزعماء، ومع الحكام يناصر الحق، ويناصر الجلادين، أب طيب وفظ... يريد أن

يكون كل ذلك وهو ليس شيئا من ذلك، يعتقد انه اذكى الناس وهوأبلههم» (بان الصبح، ص. 276).

وتقول عنه هالة ابنته الصغرى: «ان أبي ليس جنرالا ولا حتى جنديا، هو يعرف أنه لا يقدر علينا ولذلك يفتعل القوة والغضب والتعالي» (بان الصبح، ص. 378).

ويعود رضا ليحكم على ابيه بأنه «لا يفكر بعقله، وانما بمحفوظاته» (بان الصبح، ص. 279). بينما تحكم دليلة على شخصية أبيها بأنها «ليست بكل هذا التعقيد، انه رجل يجري باستمرار للحاق بالقطار، ولكنه في كل مرة يصل إلى المحطة يجد القطار قد أقلع» (بان الصبح، ص. 279).

وكما مربنا سابقا فإن الشيخ علاوة ليس اقطاعيا، ولاحتى غنيا ولكنه يملك تلك الثقافة السلفية، والعقلية المحافظة التي تؤهله للاندماج في الطبقة البرجوازية الكبيرة على الأقل من جانب الانتماء الذهني، والاتفاق مع هذه الطبقة في التفكير، ولذلك فلا غرابة ان نجد الشيخ علاوة يحمل في نفسه - هو زوجته التي لا تزيد على أن تكون صورة مشوهة منه - كثيرا من الطموح والتطلعات للاندماج في هذه الطبقة، وهو لذلك يحاول هذا التقرب بكل الطرق. والوسائل، و«يسعى إلى أن يربط صلاته بكل ما استطاع بمن يسميهم علية القوم، من أثرياء المدينة ، وبرجوازييها، سواء بالمعاملة أو المصاهرة، أو أي نوع من أنواع التحالف، ليمحو إلى الابد صورة رجل القرية الذي لا نباهة له ولاشأن» (بان الصبح، ص. 59).

والكاتب بعد هذا يقدمه بأنه معجب شديد الاعجاب بهذه الطبقة التي تعتبر مثاله الأعلى، وممثل هذه الطبقة الذي يثير اعجاب الشيخ علاوة ، فيتخذه، المثل الأعلى للمكانة، والاهمية، والاخلاق، وماشابه ذلك من الصفات الحميدة هو ابن عبد الجليل أحد أغنياء العاصمة. قال الشيخ علاوة عن ابن عبد الجليل: «سي عبد الكبير هذا رجل معروف في كل الاوساط، لا لثرائه فقط، بل لقيمته وكريم محتده، وله ابن مهذب رقيق الشمائل، وبنات أصيلات مثقفات، فأضافت الام تؤيد زوجها : وهيبة أجمل فتاة في الجزائر بلا مبالغة» (بان الصبح، ص. 164).

وهذا حوار آخر بين الشيخ علاوة وزوجته يعبر عن هذا الاعجاب الشديد: «أنها دار ابن عبد الجليل، ليست دار أحد من الناس

هل تريدين أن يدعو خاصته من اعيان البلد مع أي كان ؟

هل أقبل أنا أن أحضر أي حفل ومع أي مدعو ؟

– سألتك لأن العادة ليست هكذا.

– من أين تعرفين أنت العوائد ؟ أنها اسرة من الاسر التي تسطر للناس عوائدهم » (بان الصبح، ص. 211–212).

وكما بنى الكاتب روايته على عنصر التناقض فيما يتعلق بالعلاقة بين الشيخ علاوة وابنائه. فإنه لجأ إلى هذا العنصر نفسه في تقديم صورة كل من السيد ابن عبد الجليل وابنه كريمو. ولابد ان الكاتب كان يقصد إلى السخرية، سخرية المصادفة، وسخرية القدر عندما جعل «الشيخ علاوة يثني على ابن عبد الجليل وابنه كما لو أنهما مثال الاخلاق المستقيمة» (بان الصبح، ص. 213)

فإذا كنا لا نعلم عن السيد ابن عبد الجليل سوى كونه من كبار أغنياء العاصمة، كما نعرف عنه بعض المظاهر التي تدل على أنه يعيش في عالم آخر غير عالم مناقشة الميثاق الوطني أو ما شابه ذلك، ونعرف عنه أيضا مظاهر الغنى الفاحش الذي يعيش فيه مع افراد أسرته، واقامته للحفلات والسهرات الضخمة التي تكلف كثيرا، والتي يجمع فيها بين المتناقضات بحيث يدعو اليها علية القوم من اصدقائه المقربين، كما يدعو اليها بعض معارفه من العلماء ورجال الدين والمثقفين مثل الشيخ علاوة، هذه السهرات التي تجمع نوعا من المدعوين في جانب من حديقة البيت للتمتع بالاستماع للطرب الاندلسي الأصيل، بينما في جانب آخر منه وهنالك تحت احدى الأشجار، يقام بار صغير خاص بمن يريد أن يتسرب من هؤلاء المدعوين لتناول كأس لذيذة، ثم العودة إلى هذه الجلسة المحترمة دون خدش احساس من لا يشربون، بينما يقيم في أوقات أخرى سهرات الجاز الصاخبة الخاصة بالشباب. إذا كنا لا نعلم عن السيد ابن عبد الجليل سوى هذا أو ما شابهه من مظاهر الرفاهية والابهة دون أن نعرف شيئا عما يتعلق بخصوصية شخصيته بالذات، فإننا نعرف عن ابنه «كريمو» الكثير.

فقد شاء الكاتب ـ وعن طريق المصادفة وحدها ـ ان يلاقي في الجامعة بين دليلة ابنة الشيخ علاوة، وكريمو ابن ابن عبد الجليل هذا الشاب بالذات الذي يصفه الشيخ علاوة بأنه مثال الأخلاق المستقيمة، دون أن يكون على علم بتلك العلاقة الجسدية القائمة بين ابنته وهذا الشاب منذ مدة، والتي كانت نتيجتها حمل ابنته.

فالشيخ علاوة اذن غارق في الاعجاب بهذه الاسرة، ولا حدود لإعجابه هذا، وهو يرد على ابنه عمر الذي سأله عن بنات ابن عبد الجليل ماذا يعملن بقوله : «يا رجل : الناس لا يسألون عن بنات سي عبد الكبير (ابن عبد الجليل) ما يعملن، أنهن الجزائر» (بان الصبح،ص. 214). لابد أن تقديم الكاتب للشيخ علاوة بهذا الكشل، أي في طموحه الزائد، وتقربه الملح من اسرة ابن عبد الجليل، كان القصد منه الاشارة إلى زيف هذا الرجل وتفاهة تفكيره على الرغم مما يحاول احاطة نفسه به من مظاهر الابهة والاحترام.

لابد من جهة أخرى أن اعجاب الشيخ علاوة الشديد بهذه الاسرة كان قصد الكاتب منه تأكيد بلادة هذا الرجل في عدم فهمه للواقع وتتبعه له وإلا لما كان عبر عن هذا الاعجاب كله لمجرد أن ابن عبد الجليل يعرفه من بعيد، وأنه دعاه لحفل خطبة إحدى بناته مما جعله ينساق في مدح كل أفراد هذه الاسرة، بما فيهم ابن عبد الجليل وابنه كريمو اللذان وصفهما بأنهما مثال الاخلاق المستقيمة، وهو لا يعرف عنهما إلا القليل.

والكاتب يعمل من خلال هذا - ومن خلال تصوير اسرة الشيخ علاوة - على فضح تلك الطبقة الاجتماعية الجديدة التي بدأت تتكون بعد الاستقلال وتتطلع إلى الحياة البرجوازية، إلا أن هذه الطبقة منخورة من داخلها، فالاب والام مرضهما التطلع البرجوازي، والتقرب إلى الطبقة العليا، طبقة الاغنياء الكبار، وعمر الابن الاكبر الذي يعتبره الاب خليفته الحقيقي، شخصية مزيفة لم تكفه علاقاته مع سكريتاراته. ولكنه لا يتورع عن محاولة الاعتداء - وفي منزل الاسرة بالذات - على شرف ابنة عمه نعيمة، ودليلة البنت المتوسطة حامل من كريمو، وزبيدة راحت ضحية طمع ابيها الذي رفض كثيرا من خطابها طمعا في خاطب على مزاجه مما أدى بها إلى التعنس في النهاية، أما مراد فلا يهمه سوى طبه، وهو يعيش بصفة اللامبالي تقريبا، كان على علاقة بفرنسية مع احتمال الزواج منها، ثم اقنعوه بسهولة بالزواج بوهيبة ابنة ابن عبد الجليل، ويبقى الايجابي الوحيد والواضح في هذه الاسرة، وان كان قليل الظهور هو الابن الاصغر رضا الذي يناقض افكار أبيه جملة وتفصيلا، ويتزعم حركة التطوع في الجامعة ويتعاطف مع نعيمة ابنة عمه في محنتها عندما تتهم - خطأ - من قبل عمها وزوجته بأنها حامل.

وعلى العموم فإن هذه الاسرة تبني على المتناقضات التي عرف الكاتب كيف يختارها ـ فبينما ـ مثلا ـ الشيخ علاوة يفكر في المصيبة التي نزلت بالاسرة بسبب نعيمة «دليلة» الحامل، تكون زوجته العجوز كلثوم مع ابنتها زبيدة ومع نعيمة في الحمام يتناقشن في امور أخرى تتعلق بالزواج، وتكون «دليلة» جالسة على كنبة وثيرة بشقة «العزوبة» التي يملكها كريمو بشارع محمد الخامس (بان الصبح، ص. 75).

والتناقض في هذه الاسرة لا يوجد فقط بين الاباء والابناء ولكنه موجود أيضا بين الابناء فيما بينهم. فعمر ومراد ورضا كل له عالمه الخاص، عمر مدير البنك المختلس البيروقراطي الذي يتسبب في ثورة النقابة والموظفين ضده، مما يؤدي في النهاية إلى طرده من وظيفته، ومراد الطبيب الجراح السلبي الذي لا يهمه سوى طبه والذي يقبل في بساطة زواجا يقترحه عليه والداه.

ورضا المختلف بسبب ايجابيته عن الاثنين، وهو الوحيد الذي يملك خطه الواضح، ويعمل له باقتناع.

والبنات أيضا كل لها عالمها المتميز، وإذا كانت هالة البنت الصغرى لم تتميز أفكارها بعد بشكل واضح بسبب سنها، مع أنها تعبر، في المرات القليلة التي تظهر فيها عن ثورتها على والدها خاصة، فإن صورة اختيها الآخريين واضحة، فزبيدة الكبرى، وبسبب تعنسها ينحصر كل تفكيرها في ايجاد رجل، أي رجل ترتمي في احضانه، وتتزوجه بينما دليلة شخصية من نوع اخر مختلف، دخنت الدخان، وشربت الوسكي، وجربت علاقة كانت نتيجتها الحمل المتخبط في بطنها، وهي ثائرة باستمرار على عالم الرجال، وكأنها تريد أن تغير نواميس الطبيعة نفسها، في بعض الأحيان.

ان كل ما ذكرناه، وغيره ادى مرة بنعيمة إلى الحكم على دار عمها بأنها «قائمة على بركان» (بان الصبح، ص. 176).

* * *

شخصية دليلة

من المعروف لدى متتبعي تطور المجتمعات العربية الحديثة، أنه يمكن اتخاذ موضوع تطور المرأة مقياسا لتطور هذه المجتمعات، ونعني بذلك خروج المرأة من

البيت ودخولها في مجالات الحياة المختلفة، ابتداء أولا من دخولها المدرسة الابتدائية والثانوية والجامعة، إلى دخولها بعد ذلك عالم الثقافة والشغل، أي مشاركتها تقريبا في جميع الميادين التي كانت حكرا على الرجل. ونحن لذلك نجد إلى جانب المفكرين ورجال الاصلاح، والمثقفين العرب. الذين طرحوا موضوع المرأة، في اطار الدفاع عن حريتها وتعليمها وخروجها إلى العمل، وذلك ابتداء، على الخصوص، من أواخر القرن الماضي وبدايات هذا القرن، نجد إلى جانب هؤلاء أن الأدباء لم يقصروا بدورهم في تصوير وضع المرأة العربية، وتبني جانب الدفاع عنها، إلى درجة أن الرواية العربية الحديثة في اوضح نماذجها عند نشأتها الأولى. مثل «زينب» ظهرت مرتبطة بموضوع المرأة، كما خاض الأدباء من خلال الشعر والقصة معارك واسعة في تصوير وضعية المرأة والدفاع عنها.

وفي الرواية الجزائرية الحديثة فإن ابن هدوقة يولي الجانب الاهم من اهتمامه لقضية المرأة الجزائرية، ولعل موضوع المرأة عنده هو الموضوع الغالب، ولعلها ليست مجرد مصادفة كون أول رواية له «ريح الجنوب» ترتكز أساسا على موضوع المرأة.

لقد طرح عبد الحميد بن هودقة في «ريح الجنوب» موضوع المرأة بشكل اخر مختلف تماما عن طرحه له في «بان الصبح» وذلك لأسباب موضوعية من بينها على الأقل سببان اثنان أكثر وضوحا من غيرهما، وهما :

– أولا أن «ريح الجنوب» تجري احداثها زمانيا في فترة بدايات الاستقلال الأولى، وثانيا انها تجري مكانيا في البيئة الريفية.

لهذا كله يظهر الفرق واضحا بين الطرحين لوضع المرأة في الروايتين.

وحتى لا يتشعب بنا الموضوع كثيرا نقتصر على تناول الشخصيتين النسويتين الرئيسيتين وهما شخصية نفيسة في «ريح الجنوب» وشخصية دليلة في « بان الصبح». وسنوجز أيضا هذه المقارنة، بين الشخصيتين، فقد مربنا دراسة شخصية نفيسة في «ريح الجنوب» وسنتعرض ببعض التفاصيل لشخصية دليلة في «بان الصبح». موضوع المرأة المطروح في ريح الجنوب من خلال شخصية نفيسة هو موضوع التعليم من ناحية، والزواج من ناحية أخرى، فالفترة الزمنية، هي السنوات الأولى لما بعد الاستقلال، والبيئة ريفية تقليدية، والاب فلاح، والبنت «نفيسة» ريفية أصلا، ولكنها عاشت فترة مهمة في المدينة وتذوقت بعض أجواء التنفس الحر فيها،

عندما كانت تتابع دراستها الثانوية هناك، وهي وان لم تقطع شوطا بعيدا في مجال التحرر مثلما سنجد عند دليلة. إلا أنها صارت تملك من الوعي - على الأقل - ما يؤهلها لكي، تعترض على زواج يريد أبوها فرضه عليها في وقت لم تكن تفكر فيه.

وبهذا فإن موضوع المرأة الرئيسي في ريح الجنوب يتلخص من خلال «نفيسة» في الاعتراض على الزواج المقترح من قبل الاب. والرغبة في مواصلة التعليم، والامران مرتبط أحداهما بالأخر، فالزواج المرغم تقييد من حرية المرأة، ومنعها من مواصلة تعليمها حرمان لها من تحقيق هذه الحرية في أكمل صورها.

هذه هي صورة نفيسة، كما تراءت في «ريح الجنوب» فهل دليلة التي ظهرت بعد ذلك بحوالي عشر سنوات - كما نقدر - والتي ظهرت في مرحلة ازداد فيها التعليم انتشارا، كما ازدادت حرية المرأة، التي ظهرت في مجالات العمل المختلفة، هل دليلة هذه هي نفيسة نفسها بعد مرور حوالي عشر سنوات من الزمن إذا افترضنا أنها انتقلت إلى المدينة مع افراد اسرتها ؟ خاصة وان عائلة الشيخ علاوة في «بان الصبح» أصلها ريفي أيضا، وأن الاب في هذه العائلة مازال رجلا محافظا تقليديا.

هذه على كل حال - مجرد افتراضات، لا يمكن التعويل عليها لكي تبنى عليها دراسة ذات نتائج مؤكدة.

ولكن ومهما يكن، فإننا نشعر أن «ريح الجنوب» تصور مرحلة في تاريخ الجزائر الحديثة، بينما تصور «بان الصبح» مرحلة أخرى تالية لها، فعلى الرغم من أن أحداث «ريح الجنوب» تجري في الريف واحداث «بان الصبح» تجري في المدينة، وفي العاصمة بالذات، فإننا، نرجح ان الكاتب لم يكن يريد بكتابته «بان الصبح» مجرد تصوير بيئة المدينة، في مقابل بيئة الريف، ولكنه كان يقصد إلى تصوير مرحلة أخرى أكثر تطورا، وأكثر تعقيدا في تاريخ الجزائر الحديثة، ونعني بذلك أن العاصمة نفسها لم تكن في بدايات الاستقلال، بهذا الشكل الذي ظهرت به في منتصف السبعينيات من خلال، رواية «بان الصبح».

ومهما يكن فإن ابن هدوقة اراد من خلال هذه الرواية أن يشير إلى التطور الكبير الذي وقع في الجزائر في هذه المرحلة في المجالات المختلفة، ففي مجال الافكار كان هنالك الصراع الذي بدأ يطرح في الساحة من خلال مناقشة الميثاق. وفي مجال صراع الاباء والابناء هناك ذلك التناقض الكبير بين الشيخ علاوة وابنائه، وذلك التطور الكبير الذي حدث بالنسبة إلى الابناء بايجابياته وسلبياته.

واما بالنسبة إلى المرأة، فلا شك أن ابن هدوقة يريد أن يطرح من خلال شخصية «دليلة» مدى ما وصل إليه التعقيد الاجتماعي والحضاري في الجزائر الحديثة.

وابن هدوقة - بعد هذا - لم يرد مثلا مجرد الاشارة إلى انتشار الفساد في المجتمع أو ضياع المرأة، ولكنه قدم لنا من خلال «دليلة». امرأة مثقفة، ناضجة، واعية بما تفعل، ومسؤولة كامل المسؤولية عن فعلها، ولقد بنيت عقدة الرواية الرئيسية على حمل دليلة، المنسوب خطأ إلى نعيمة، وذلك من خلال رسالة كريمو التي تقع في يد الشيخ علاوة. مع العلم ان هذه الرسالة تمثل إلى حد ما بعض الضعف في بناء الحدث. اذ من غير المعقول ان يلجأ كريمو - الذي تعرف دليلة بيته جيدا. والذي تكلمه باستمرار في الهاتف - إلى طريقة المراسلة، وخاصة لكي يتحدث لدليلة عن حملها، ولكن الكاتب لجأ إلى استخدام هذه الرسالة قصداً، لكي تبنى عليها بعد ذلك احداث هامة للغاية في الرواية بعد ما يفتحها الشيخ علاوة، ويقرأ محتواها ظانا أنها موجهة لابنة أخيه نعيمة التي جاءت باسمها - وهي حيلة (؟) كانت تلجأ إليها دليلة حتى لا يعرف احد شيئا عن هذه المراسلة.

إن مسؤولية دليلة عن فعلها. وعن مصيرها واضحة منذ البداية فالكاتب لم يقدم قصة حب، بين دليلة وكريمو، كما جرت العادة لدى كثير من كتاب القصة أو الرواية الذين يقدمون المرأة في صورة المخلصة للحب كامل الاخلاص، بينما يقدمون الرجل في صورة العابث اللاهي الباحث عن اللذة، حتى اذا وقع ما لا تحمد عقباه كأن تحمل المرأة هجرها الرجل، وتركها لمصيرها التعس...

ابن هدوقة منذ البداية - لم يقدم قصة حب بين الطرفين، ولكنه قدم صورة علاقة بينهما، والفرق - بدون شك - شاسع، من الناحية الاخلاقية - بين العلاقة المبنية على الحب، والعلاقة المقامة على مجرد الصداقة، كما أن الفرق بين نوعي العلاقتين له مدلوله الكبير أيضا - من الناحية الاجتماعية، فالفرق بين علاقة الحب وعلاقة الصداقة أن كلا من الطرفين - في حالة الصداقة - يتحمل مسؤوليته الكاملة فكريمو هنا لم يخدع دليلة، لأنه لم يعدها بشيء كالزواج مثلا، أي أنه لم يعلن لها عن حبه الذي ستبني عليه امور كثيرة في مستقبل علاقتهما، وهي من جهتها لم تلجأ إليه ليفكر معها في حل إلا لأنها وقعت في أزمة حقيقية تحتاج إلى حل ما بعد حملها. أما من الناحية الاجتماعية فإن صورة الصداقة بين الجنسين بالطريقة التي وردت بها في الرواية لها مدلولها الهام أيضا اذ أن وصول المرأة إلى اقامة علاقة مثل هذه وهي المرأة المثقفة الناضجة - لهو دليل واضح. على حدوث تطور في شخصية المرأة من

حيث تحررها وتحملها مسؤوليتها، ومهما كان ضعف نسبة عدد النساء اللواتي يتصرفن مثل دليلة، فإن هذه النسبة موجودة بدون شك.

وكما مر ذكره فإن دليلة تتصرف بكامل وعيها، وكامل ارادتها ومع الوضع الذي صارت إليه بسبب الحمل، فإنها لم تنزو للبكاء على خطئها، ولكنها استقبلت هذا الحمل بكامل المسؤولية وهي بعد هذا ثائرة على وضعها كامرأة في كامل الرواية، وترى ان كل مشاكلها متأتية من سبب واحد هو كونها امرأة، في مجتمع الرجال، أي يأتي دورها في الدرجة الثانية، تقول مرة لكريمو، بعد مناقشته مناقشة حادة، تطلب منه مساعدتها في البحث عن حل لحملها : «اتدري فيماذا أفكر ؟ ولم أنا في هذه المرارة ؟ لأني امرأة، وضعي كامرأة في مجتمع الرجال هو الذي يحزنني... » (بان الصبح، ص. 81)

كما تبدي دليلة ثورتها على عالم الرجال، أو بالأحرى تهورها عندما تلتقي ـ وبعد أن شربت كاسات من الوسكي ـ في الشارع بصديقتها ـ نصيرة .....، فتعبر في صوت مرتفع عن ثورتها على عالم الرجال.

ولكن دليلة التي تحاول أن تفرض وجودها في عالم يحكمه الرجال، تجد نفسها في النهاية قد اخفقت إخفاقا ذريعا، وحتى محاولة حصولها على حريتها باستقلالها عن عائلتها عن طريق كراء بيت مستقل في ابسط مكان بالجزائر، هو حي القصبة، حتى هذه المحاولة فشلت، فهذا البيت الذي وعدت به تمنع سكناه.

ويؤزم الكاتب الموقف أكثر بالنسبة إلى دليلة ـ عندما يتبين لها أن الرجل الذي تعرفت به من قبل ووعدها بالمساعدة في موضوع السكن يشتغل في الأعمال الادارية لمصانع البلاستيك التي يملكها ابن عبد الجليل أبو كريمو، وبهذا تقع دليلة بين فكي كماشة كبيرة.

هنالك من جهة كريمو، الذي اقامت معه صداقة وحملت منه وتهاون في مساعدتها للخروج من أزمتها، والذي تَعَوَّد ان يجلب إلى بيته في شارع محمد الخامس الفتيات اللواتي يستهويهن بمختلف امكانياته ووسائله كالمشروبات الروحية المختلفة، والصور والأفلام البرنوغرافية ...

وهنالك من جهة أخرى أبو كريمو، الذي تنتشر مؤسساته في كل مكان والذي يحاصر من جهته دليلة في وقت ظنت انها ابتعدت عنه وعن ابنه، وتخلصت نهائيا منهما.

كل شيء إذن ضد دليلة، وتنتهي الرواية باتصالها هاتفيا بنصيرة صوناكوم التي ترحب بإيوائها أياما في انتظار أن تجد حلا.

* * *

على الرغم من كل شيء بالنسبة إلى دليلة، على الرغم من الجرأة والشجاعة وحمل الأفكار الثائرة، وتحمل المسؤولية كاملة، وعلى الرغم من أن شخصيتها تعبر عن تطور، أو مرحلة جديدة لدى المرأة الجزائرية، على الرغم من هذا كله وغير هذا، فإن دليلة تظل بدون شك وضعا استثنائيا لا قاعدة أي انها بصيغة أخرى لا تمثل التطور الحقيقي الذي تتجه إليه المرأة الجزائرية، ولكنها تمثل فئة قليلة من النساء في مجتمعنا، والدليل على ذلك النهاية المازومة التي انتهت إليها، فهي إذن الاستثناء لا القاعدة. ونحن نشعر من خلال الرواية ان شخصية المرأة التي يمكن أن تمثل المرأة الجزائرية المستقبلية فعلا، والتي تتطور بشكل منطقي، واقفة على أرض صلبة، هي شخصية نصيرة صوناكوم لاشخصية دليلة.

وفي موازنة بسيطة وسريعة بين الفتاتين في جملة من الامور يتضح الفرق، مع العلم أن الكاتب نفسه قصد إلى إقامة هذه الموازنة لكي يميز القارئ بين الشخصيتين بشكل واضح.

نشير أولاً إلى أن كلا الفتاتين جامعية، دليلة على أبواب التخرج في الحقوق، بينما نصيرة عاملة بمصلحة البحوث النقابية. ونعتقد أن الكاتب وفق في بناء الشخصيتين، فقدم لنا شخصية دليلة المنتمية إلى الطبقة البرجوازية الوسطى المذبذبة، ذات الاحلام الكثيرة، وقد جعلها في طبيعتها مؤهلة لأن تقوم بدورها احسن قيام، ثورتها على طبيعة اخلاقيات اسرتها، وعلى وضع المرأة، واندفاعها للبحث عن عالم الحرية كما تفهمه هي، لا كما يجب أن يكون. فعالم الحرية لديها يتمثل في حرية التدخين وحرية الشرب وحرية العلاقة بالجنس الآخر أي حرية المرأة بلا حدود، تقول مرة لابنة عمها نعيمة : «اذا شئت أعطيتك سيجارة، وخرجنا بهما موقدتين يملأ دخانهما ممرات البيت.. لنتحد كل واحد .. قومي» (بان الصبح، ص. 232).

بينما نصيرة المنتمية إلى الطبقة العاملة، جعلها الكاتب مثقفة واعية، واقعية مع نفسها، ومع اسرتها ومحيطها مستقيمة في اخلاقها، متزنة صريحة وايجابية بصفة عامة.

وبينما تقع دليلة بسهولة في حبائل كريمو، تقول نصيرة لها : «أنا لم تربطني بكريمو صداقة، تعارفنا كما يتعارف كل الطلبة. ولما اكتشفت حقيقته تركته» (بان الصبح، ص. 94).

والكاتب يميل دائما إلى تغليب أفكار، نصيرة : الواعية المتزنة، على أفكار دليلة المهتزة، وهذا حوار آخر يدل على هذا الأمر : «صحيح مجتمعنا قذر، اليس كذلك

لا، بعض الطبقات فيه قذرة » (بان الصبح، ص. 105).

ويمكن أن نجد أمثلة عدة من مثل هذا الاختلاف الواضح في التفكير بين الفتاتين : «الجزائر ليست تافهة، انما سكانها هم التافهون

ـ أصحح لك كلامك لثاني مرة : ليس كل السكان، بعض السكان تافهون ... الشعوب ليست تافهة» (بان الصبح، ص. 106).

ويجعل الكاتب دليلة نفسها تعترف برجاحة عقل نصيرة : «خسارة لم أعرفك بهذه، الصورة قبل اليوم لكنت الآن امرأة اخرى» (بان الصبح، ص. 107). فبينما تفكر دليلة ان المرأة بلا وسكي، ولا غيفارا لا يمكن أن تكون ثائرة، ترد نصيرة بأن «الثورة ليست سكرا ولا وسيلة إلى اشباع الجنس». (بان الصبح، ص. 186).

وعندما تتحدثان عن اليمين واليسار يتبين أن نصيرة أكثر عمقا في اليسار، وأكثر التصاقا به : «أنا كلي يسار، لو استطعت أن أغير اسم ذراعي ويدي اليمنى لفعلت، أنا من طبقة فقيرة عمالية أبي ميكانيكي» (بان الصبح، ص. 187).

وعندما تتطرقان إلى موضوع الثراء وارتباطه بالرجعية تقول نصيرة بان الثراء ركيزة للرجعية، وتصرح لدليلة بأنها لا تكره الثراء في حد ذاته، ولكن الثراء الذي يكون على حساب الفقراء.

وتعترف دليلة لنصيرة مرة أخرى بأنها معها : «كالذي دخل عالما جديدا، يتنقل فيه من اكتشاف لاخر» (بان الصبح، ص. 189).

نصيرة اذن تؤمن بالعمل، بالجدية، باعمال التفكير، حتى السعادة لديها «ليست شيئا نحصل عليه ثم ننتهي منه ونبقى دائما سعداء...» هي كالحرية، كلا هما يكتسب باستمرار وتجدد، وإلا فقدت الحياة معناها (بان الصبح، ص. 191).

هذه هي نصيرة، الفتاة العاملة الجادة المنسجمة مع نفسها ومع افراد اسرتها، والصريحة معهم، بينما تصرح دليلة بأنها تحيا بشخصيتين: «شخصية من تصميم اهلي، وابي على الخصوص. وشخصية من تصميمي أنا، ولست سعيدة لا بالأولى ولا بالثانية» (بان الصبح، ص. 192).

وتلاحظ دليلة تواضع أبي نصيرة بخلاف أبيها. كما تلاحظ اختلاف أم نصيرة عن أمها، فهي امرأة حضرية في غير تكلف.

وربما يبالغ الكاتب أحيانا في تغليب الايديولوجية على شخصية نصيرة، ولا يتركها تتصرف بحريتها وشعورها، فعند الحديث عن الالبسة الاجنبية تقول بأنها تعيش في الجزائر وتلبس ما في الجزائر. وعند الحديث عن بلدان الخارج تقول بأن الحياة في بلدان الناس أيضا ليست سهلة كما أنها تبرر عدم ارتباطها بكريمو بسبب عدم انتمائهما إلى طبقة واحدة. ولذلك فإن دليلة لم تخطئ عندما قالت لها: «تتكلمين أحيانا كمعلمي المدارس» (بان الصبح، ص. 197).

وعلى العموم فإن ابن هدوقة اراد من خلال شخصيتي دليلة ونصيرة أن يقدم نموذجين مختلفين متباينين للمرأة الجزائرية المعاصرة مع انتصاره للمرأة المثقفة الواعية الجادة المتزنة الواقعية متمثلة في نصيرة. بينما يحكم الواقع نفسة على هزيمة دليلة، وهي على كل حال، وعلى الرغم من نهايتها المادية والعملية بالهزيمة. فإنها تنتهي معنويا نهاية ايجابية، فما اعجابها بشخصية نصيرة وافكارها سوى دليل على تحول أفكارها هي، وطبيعتها من السلبية إلى الايجابية.

* * *

وللخلاصة، نقول ان الكاتب بنى روايته - من حيث اختياره للاسر والشخوص - بناء مدروسا ومتقنا:

فقد اختار ثلاث أسر، لكي تمثل ثلاث طبقات في المجتمع الجزائري، أسرة ابن عبد الجليل الممثلة للبرجوازية الكبيرة. واسرة نصيرة صوناكوم الممثلة للطبقة العاملة، وبينهما اسرة الشيخ علاوة الممثلة للبرجوازية الصغيرة، ولقد عرف كيف يجعل كل أسرة تؤدي دورها المنوط بها، أسرة ابن عبد الجليل تعيش في أبهة الغنى. كما تستغل مكانتها وامكانياتها عن طريق احد افرادها «كريمو» - للايقاع بفرد من أسرة الشيخ علاوة «دليلة». وأسرة نصيرة، تمثل النقاء والصفاء والعمل

والجدية، أي الطبقة العاملة في اخلاصها للعمل وللوطن، بينما تمثل أسرة الشيخ علاوة التي هي لب الموضوع في الرواية التذبذب المعروف عادة لدى البرجوازية الصغيرة، ولقد تمثل هذا التذبذب بشكل واضح وجميل في هذه الرواية في افراد هذه الاسرة، والتناقض فيما بينهم، فالاب الشيخ علاوة وزوجته يعملان للاندماج في الطبقة البرجوازية الغنية، ويعملان ـ وخاصة الشيخ علاوة ـ لتحقيق ذلك...

وابنهما الاكبر عمر، لا يختلف عنهما في حب الوصول، وان كانت له طريقة الخاصة التي تمثلت في اختلاس اموال الدولة. بينما يقف مقابلا لهما كل من رضا المخلص للثورة الزراعية، ولكل ما هو اشتراكي ودليلة التي تعيش نوعا من الضياع واللامبالاة، أو الثورة مدة من الزمن بطريقتها الخاصة، ولكنها لا تلبث أن تنتهي في الاخير معجبة بنصيرة وبأفكارها.

ولاشك أن الرمز الممتاز في هذه الرواية هو المتمثل في شخصية دليلة ضحية البرجوازية الكبيرة، والملتجئة في النهاية إلى الطبقة العاملة، فالحل الجذري والحقيقي بالنسبة إلى دليلة، ومن ثم بالنسبة إلى الجزائر لن يكون إلا باللجوء إلى طريق الجدية والعمل.

ما لا تذروه الرياح[1]

اغتراب البطل وغرابة البناء

عرعار محمد العالي

ان من أهم المواضيع التي تناولتها الرواية الجزائرية والتي ما تزال تمثل مجالا خصبا للتناول حتى الآن بسبب ما لها من أهمية خاصة لارتباطها بالمجتمع الجزائري الحديث موضوع الهجرة والاغتراب، واذا كانت الرواية العربية قد تطرقت بدورها لهذا الموضوع في أمثلة كثيرة وهامة يمكن أن نذكر منها، على سبيل المثال فقط - عصفور من الشرق لتوفيق الحكيم، واديب لطه حسين، والحي اللاتيني لسهيل ادريس، وموسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح، فإن الرواية الجزائرية لها - بدون شك - خصوصيتها في التطرق لهذا الموضوع ومعالجته، وذلك بسبب ان ما يربط الانسان الجزائري بالغرب ليس السياحة أو الدراسة أو العلاقة التجارية، على الرغم من وجود هذه الامور جميعا، ولكن ما يربط هذا الانسان بالغرب هي علاقة حضارية معقدة تتلخص في وجود اشكالية المستعمِر والمستعمَر ومن ثم جاءت خصوصية نظرة الانسان الجزائري والكاتب الجزائري إلى الغرب.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإننا عندما نتحدث عن النظرة إلى الغرب في القصة الجزائرية أو الرواية الجزائرية فإنما نعني بالغرب هنا فرنسا بالذات، وذلك لأن (معظم) كتاباتنا الروائية والقصصية التي تأخذ لها بيئات غربية تجري احداثها في فرنسا، وهذا على خلاف الرواية العربية التي توزعت بيئاتها عبر بلاد غربية واوربية شرقية مختلفة وكذلك امريكية.

---

1 – الشركة الوطنية للنشر والتوزع، طبعة 2، الجزائر 1982 ولمزيد من التوسيع يمكن الرجوع إلى كتاب، د/ محمد مصايف الرواية العربية الجزائرية الحديثة، طبع الدار العربية للكتاب، طرابلس، تونس. ص. 285.

ونريد في البداية أن نشير إلى أن الروايات الجزائرية التي تناولت موضوع الغرب قليلة، وذلك بطبيعة الحال لا يرجع إلى عدم اهميته ومجالاته الخصبة، بقدر ما يعود أولا إلى سيطرة الواقع الجزائري الداخلي بهمومه وقضاياه المختلفة - بسبب غنى هذا الواقع - على اذهان المبدعين الروائيين الجزائريين. كما يرجع ثانيا إلى أن الرواية الجزائرية باللغة العربية ما تزال حديثة العهد ضئيلة الكمية نسبيا.

وفي صدد الحديث عن الرواية الجزائرية التي تناولت الغرب يمكننا أن نميز بين رواية اشارت إليه أو تناولته بشكل سريع أو خفيف في احدى فقراتها، وصفحاتها أو في احد فصولها، وذلك ما نجده مثلا في روايتي الاعرج واسيني : «وقائع من اوجاع رجل غامر صوب البحر » و« ما تبقى من سيرة لخضر حمروش» وغيرهما. ورواية خصت بكاملها أو في معظمها لهذا الموضوع مثلما نجد بالنسبة إلى رواية «ضربةجزاء» لرشيد بوجدرة، أو «المرفوضون» لابراهيم سعدي، أو «ما لا تذروه الرياح» لعرعار محمد العالي».

تجري احداث «ما لا تذروه الرياح» أثناء السنوات الثلاث الاخيرة من الثورة التحريرية الجزائرية الكبرى، وتمتد زمانيا إلى الأيام الأولى من الاستقلال. تبدأ الاحداث بزواج بطل الرواية البشير، وتتحدث عن الثورة التحريرية وعن تدخل العباسي لدى جيش التحرير لتأجيل انضمام أخيه البشير إلى الثورة، ثم بعد ذلك القاء القبض عليه من طرف الجيش الفرنسي واخذه بالقوة لكي يؤدي الخدمة العسكرية.

وينتقل البشير من بلدته إلى العاصمة، ثم إلى ضواحي باريس، لكي يؤدي التدريب العسكري، ثم ليظل هناك بعد ذلك حتى نهاية الخدمة العسكرية مع استقلال الجزائر وعودته إليها.

هذا تلخيص سريع جدا لمسار حدث الرواية، وهو يبين فقط الخط العام الذي سارت فيه الاحداث زمانيا ومكانيا. إلا أننا إذا اردنا تحليل هذه الرواية بشيء من التفصيل كان علينا أن نعود إلى تتبع مسار حدثها من خلال حركة بطلها ومن خلال تحليل شخصيته وطبيعته.

ونحن اذا فعلنا ذلك فإننا سنتوصل إلى نتيجة ان «ما لا تذروه الرياح» لا تعدو أن تكون مجرد محاولة ضعيفة في مجال الرواية ينقصها كثير من الجدية والعمق لكي تصل إلى مستوى الرواية الجادة.

اننا منذ البداية نشعر كأن البشير هذا مخنر تخديرا قويا، مما جعله يتصرف خلال الرواية كلها بكثير من البلاهة واللامبالاة وعدم الاحساس بالواقع والمحيط، وما يجري حوله من احداث هامة وكبيرة.

ففي الوقت نفسه الذي يحدثنا الكاتب عن ان احداث الثورة كانت تملأ الاذان، وان النقاش كان جاريا بين افراد الاسرة وخاصة بين الأب بلقاسم وابنه العباسي عن ضرورة انضمام البشير إلى صفوف جيش التحرير أو تأجيل ذلك إلى وقت لاحق.

وفي الوقت نفسه الذي صارت حتى الاعراس تجري في كثير من الهدوء الشبيه بالسرية والكتمان مثلما كان الامر فيما يتعلق بعرس البشير بالذات، في هذا الوقت نفسه وفي هذه الاوضاع . يقول الكاتب عن البشير عندما ألقى عليه عساكر فرنسا القبض واخذوه معهم : «ولكن، ولأمر غريب، احس البشير بمتعة في الرضوخ والاستسلام، أي أن في قوة الجنود إلى جانب مقدرة خارقة، شيء جميل باهر (كدا) يدعو إلى الاعجاب والتعلم والاقتداء ... اخذ البشير ينظر إلى الجنود رغم حزنه وبؤسه، بشغف كبير، وكأنه يود الذوبان فيهم، واحلال نفسه محل أنفسهم، تخيل نفسه يمسك السلاح بيده، ويسيطر على شخص امامه، شخص ضعيف قاصر، مثله هو نفسه بالجمال القوة، وبالروعة السيطرة ..» (ما لاتذروه الرياح، ص. 28)

هذا عوض ان يصور الكاتب ـ مثلا ـ خوف البشير من المجهول فهو لأول مرة يلقى عليه القبض من طرف العساكر الفرنسيين ولأول مرة يجند، وبالقوة أيضا الم يكن من الضروي، ومن المنطقي أن يفكر البشير في المصير المجهول الذي ينتظره، وفي أفراد اسرته الذين فصل عنهم بالقوة، ومنهم زوجته التي تزوجها منذ حوالي ثلاثة اشهر فقط.

وهو يصف الفرنسيين بعد ذلك بقوله :

«كم هم أقوياء ...كم هم عزيزو الجانب ... أنهم يسيطرون على كل شيء .. أنه لشرف عظيم أن يكون الانسان في جانبهم (ما لاتذروه الرياح، ص. 42) مع العلم أن البشير كان قبل ذلك بقليل يتحدث عن مدينة الجزائر بعد مشاهدته لها باعجاب شديد ويشير إلى أن لها شخصيتها وهي لذلك ستدافع عن نفسها، إلخ.»

وإذا كان القارئ يعثر في أكثر من موضع في الرواية على بعض الجمل أو الفقرات التي تعبر عما يدل عن وجود الحس الوطني لدى البشير فإن هذا الامر سيظل مبهما وغامضا اذا ما نظرنا إليه من خلال شخصية البطل في الرواية بكاملها.

فقد قدم الكاتب في هذه الرواية شابا تغلب عليه السذاجة إلى درجة العباء، شابا ناقص الوعي معجبا بفرنسا انسانا وطبيعة وحضارة وقوة، إلخ. يذكر وطنه احيانا ولكن ذكرا غير واع، كما قد يذكر الثوار ولكن عرضا.

وبهذا نشعر أن الكاتب لا موقف له في هذه الرواية، وربما يجوز أن يتساءل قارئها : لماذا كتبت، فالعمل الابداعي عندما يكتب انما يقصد منه هدف ما، فكرة ما... امر ما، إلخ. فما الذي تقدمه هذه الرواية ؟ اذا كان الامر لا يعدو - تقريبا - ان يكون سردا عاديا لحكاية شاب عاش في فترة ما، وقضى مدة في العسكرية الفرنسية. والمشكل المطروح هنا - بعد هذا - لا يتمثل في كون البطل ساذجا أو أبله غبيا، فكثير من الروايات العالمية الشهيرة كان ابطالها يتصفون بهذه الصفات، ويكفي أن نذكر من أمثلة ذلك اكاكي كاكليفتش بطل قصة المعطف لغوغول، أو بطل رواية الابله لدستويفسكي. أو الزين بطل رواية عرس الزين للطيب صالح.

والفارق بين هؤلاء الكتاب وبين عرعار محمد العالي أن هؤلاء يملكون تجربة فنية، عالية، وأنهم قصدوا إلى خلق وابداع تلك الشخصيات بسذاجتها أو بلاهتها، وأنهم قصدوا إلى تصوير تلك السذاجة أو تلك البلاهة، أو ما إلى ذلك، لما في ذلك من تعميق لمعان انسانية مقصودة.

ولقد ابدع هؤلاء، الكتاب ايما ابداع في تصوير النفسية الانسانية وفي بناء شخصية البطل بناء متكاملا منسجما معبرا في كل تفاصيله حتى الصغيرة منها عن هدف الكاتب ومراده.

فبينما تتمثل قوة الابداع الفني في خلق ابطال هذه الروايات، فإن عكس ذلك أي ضعف الابداع هو ما يحدث بالنسبة إلى بطل «ما لا تذروه الرياح» أي أن تصرفات البشير الساذجة احيانا والمتناقضة احيانا اخرى جاءت بسبب الضعف الابداعي ومحدودية تجربة الكاتب.

ان ضعف تجربة الكاتب الابداعية هو الامر الوحيد الذي يفسر ويبرر تصرفات البشير كما يبرر مسار احداث الرواية بذلك الشكل الذي سارت عليه من البداية حتى النهاية.

وإلا فبماذا نفسر وقوف بلقاسم الرجل الريفي البسيط في بداية الرواية خطيبا في جماعة الريفيين البسطاء وكأنه في حفل استقبال في بيت أحد السياسيين أو الكبراء الارستقراطيين أو ما شابه ذلك ...

وبماذا نفسر نسيانه تماما للثورة التحريرية القائمة في بلاده وهو ابن القرية، واعجابه الشديد بفرنسا في كل شيء بجنودها الاقوياء وأسلحتهم بأرضها،

ونسائها، ونظامها وثكناتها العسكرية، ثم بماذا نفسر تنكره لكل ما يربطه بوطنه وحتى بأفراد اسرته الذين قاطعهم تماما، ولم يعد يقبل حتى سماع من يحدثه عنهم.

بل وأكثر من ذلك بماذا نفسر تغيير اسمه من البشير إلى جاك ومحاولته تمثيل دور انسان فرنسي لا علاقة له بالجزائر اطلاقا.

وبماذا نفسر بعد ذلك تعرفه على فرانسواز التي تنتمي إلى اسرة فرنسية غنية والتي قتل زوجها برنار في الجزائر على يد المجاهدين، بماذا نفسر تعرف البشير عليها بتلك الطريقة بالذات، أي بعد أن سكر في إحدى الحانات وتخاصم مع أحد الفرنسيين الشباب كان يدافع على رفيقته، وخرج يتمايل من السكر وهو يمشي تحت الامطار الغزيرة فتلفت انتباهه فرانسواز فيظل يتبعها على الرغم من معارضتها إلى أن يسقط من شدة السكر فتعطف عليه وتأخذه إلى بيتها، بماذا نفسر تعرفه عليها بهذه الطريقة المتكلفة جدا، مع العلم أنه كان قد قضى مدة طويلة في فرنسا وكان يسمي نفسه جاك وكان الفرنسيون أنفسهم لا يعرفون أنه جزائري.

ثم بماذا نفسر ذلك الانسجام الكامل لفرانسواز مع البشير وقد عرفت أنه جزائري مع أن زوجها الذي كانت تموت فيه حبا قد قتل في الجزائر على يد المجاهدين مخلفا لها طفلا صغيرا.

ثم بماذا نفسر بعد ذلك اعتدار فرانسواز للبشير في المستشفى الذي دخله بسبب مرضه بالسل بينما نعلم من احداث الرواية أن البشير هو الذي كان قد تخلى عن فرانسواز لا العكس.

وكذلك نجد صعوبة كبيرة في قبول كثير من تصرفات البطل الأخرى. فهو مثلا يستقبل خبر الاعلان عن استقلال الجزائر بقوله : «يا لهذا اليوم الملعون»[1].(ما لا تذروه الرياح، ص. 183)

مع العلم أنه لم يكن «حركيا» أو مقاتلا ضد بلاده، إلخ. وكل ما هنالك أنه عاش مدة في فرنسا نوعا من الضياع واللامبالاة.

وهو مثلا ـ عندما يعود إلى بلدته، ويدق باب منزله حيث يسكن أخوه مع زوجته وأولاده، كما تسكن ربيعة زوجته هو مع ابنها، فإن المرأتين بالداخل تعلمانه أن الباب مغلوق بالمفتاح، وأن المفتاح مع أخيه العباسي ويكون قبل ذلك قد طلب منهما «السماح» فربما يكون قد اقلقهما «وطير النوم من جفونهما»، وتكون المرأتان قد ردتا بأنه لم يخلق لهما أية مشكلة وأنهما مسرورتان السرور الكبير بعودته (ما لا تذروه الرياح، ص. 227).

وعندما يذهب للبحث عنه يجده في المقهى يلعب الورق، فيستقبله هذا استقبالا باردا، ويسلمه المفتاح، ليعود البشير إلى المنزل وينام دون عودة أخيه الذي يمتد غيابه بعد ذلك أياما.

ومع غرابة موقف العباسي المتمثل في هجرانه بيته وزوجته واطفاله أياما كثيرة احتجاجا على عودة أخيه المفاجئة وعلى تصرفاته السابقة، وموقفه من اسرته، وتغييره لاسمه وضياعه في فرنسا، إلخ. هذا الاخ الذي يختلف عنه كل الاختلاف اذ أن العباسي كما صوره الكاتب مثّل شخصية ذلك الانسان المخلص في كل شيء. المخلص للاسرة التي خدمها بكل ما يملك من جهد فهو الذي اهتم بزوجة البشير وابنها، وهو الذي ظل مخلصا للثورة يخدمها بكل ما يستطيع، مع غرابة موقف العباسي هذا المتمثل في هجران البيت والاسرة، فإن موقف البشير وغيره في البيت كان أكثر غرابة، فهم طيلة أيام كاملة بعد ذلك لم يفكروا مرة واحدة في كون البشير هو السبب الحقيقي والوحيد في هذا الهجران، ولم يتوصل البشير إلى هذه الحقيقة إلا بعد أن يسأل زوجته عن رأي العباسي فيه. وهنا فقط يكون رد فعله. بقوله «هكذا اذا، لقد كنت بليدا، مغفلا.. تركت هذه الايام تمر سدى دون فائدة، لماذا لم أسأل منذ أول يوم» (ما لا تذروه الرياح، ص. 218). والواقع أنه كان دائما بليدا، ومغفلا، إلى ابعد الحدود.

ثم ما هذه السذاجة التي يعبر بها الكاتب عن محاولة تكفير البشير عن ذنبه «اذا كان الشعب الجزائري قد ضحى في أيام الثورة بالعزيز والغالي، وكنت أنا لا أبذل شيئا .. فسأجعل من نفسي الباذل الوحيد، وكل الشعب المستفيد والمستريح. أنا استأهل ذلك، والشعب يستحق ذلك » (ما لا تذروه الرياح، ص. 218).

ومما تقدم، وكذلك من الامثلة العديدة الأخرى التي يمكننا استخراجها من هذه المحاولة الروائية، من ذلك كله يتضح لنا بأن الخلل الموجود في شخصية البطل في هذه الرواية وفي تصرفاته الساذجة احيانا، والغريبة أحيانا أخرى. وكذلك الخلل الموجود عبر صفحات الرواية بصفة عامة، وفيما يتعلق بشخوص أخرين إنما يرجع إلى خلل عام في بناء الشخصية الروائية بناء مدروسا منطقيا، وفي تبرير تصرفاتها وتطورها.

ولعل ما يشفع لضعف هذه الرواية لغة واسلوباً وبناءً أنها كانت من بين الروايات الأولى المكتوبة باللغة العربية في الجزائر.

الفهرس

ريح الجنوب

المرأة الريفية وقوة الواقع 7

الزلزال

الواقعية الاشتراكية – قرار السلطة 29

الخنازير

تكلف الصراع وتكلف اللغة 49

عين الحجر

برجوازية القرية 67

ما تبقى من سيرة لخضر حمروش

الواقعية الاشتراكية، القرار والواقع 81

عزوز الكابران

محاولة الرمز 101

بان الصبح

صراع الأجيال «الأباء والأبناء» 133

ما لا تذروه الرياح

اغتراب البطل وغرابة البناء 153

طبع دار القصبة للنشر
فيلا 6، حي سعيد حمدين – حيدرة – الجزائر
الهاتف : 08 21 69 (02) / 14 21 69 (02)
الفاكس : 44 20 69 (02)
– 2000 –

هذه السلسلة موجهة أساساً إلى الجامعيين : أساتذة، باحثين وطلبة والهدف منها هو رفع الرصيد المعرفي بأسلوب منهجي يعتمد على الدقة والجدية.

عبد الحميد بن هدوقة، الطاهر وطار، واسيني الأعرج، مرزاق بقطاش، عبد المالك مرتاض، علاوة بوجادي، محمد العالي عرعار، هؤلاء هم الكتاب الروائيون الذين تتناول هذه الدراسة نماذج من رواياتهم، وهي دراسة تعتمد على التعامل مع النص قبل كل شيء، وتركز خاصة على عنصر الشخصية فيه، محاولة أن تساهم قدر الإمكان في إثراء مجال دراسة الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية.

دار الفصبة للنشر

تدمك : 0 - 209 - 64 - 9961